ابن مقرب العيوني

شاعر الخليج العربي في العصور الإسلامية

حياته وشعره

تأليف

سامي جاسم عبد العزيز المناعي

جامعة قطر

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

ابن مقرب العيوني

شاعر الخليج العربي في العصور الإسلامية

حياته وشعره

تأليف

سامي جاسم عبد العزيز المناعي

جامعة قطر

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ابن مقرب العيونى هو أحد شعراء الخليج العربى القدامى الذين لم ينالوا ما هم جديرون به من العناية الكبيرة والدرس المستفيض ، رغم ما تحلى به هذا الشاعر من موهبة شعرية متعددة الجوانب ، وبراعة واقتدار كبيرين رفعاه الى مصاف كبار الشعراء .

ولعل للباحثين والدارسين ــ سواء من هذه المنطقة أو غيرها ــ عذرا فيما يبدو من قلة الجهد المبذول وضآلة العناية الموجهة لابن مقرب وأمثاله من شعراء المنطقة القدماء . ومرد ذلك العذر الى قلة ما اشتملت عليه المصادر والمراجع من أخبار تكشف لنا عن كل ما يتعلق بحياة هؤلاء الشعراء ، وقد يكون سبب ذلك فيما يتصل بابن مقرب هو العزلة التى كان يعيش فيها اقليم البحرين وطن الشاعر فى القرن السابع الهجرى بسبب بعده عن بغداد مركز الخلافة فى ذلك الوقت ، مما حدا بالمؤرخين الى الانصراف عنه الى حواضر الخلافة ، يسجلون فيها كل خطرة لشاعر أو لفظة لأديب .

ورغم هذه الصعوبة فقد استعنت بالله ، وشحذت القلم لأكتب هذا البحث عن ابن مقرب ومما دفعنى الى ذلك عدة أمور :

أولا : كون ابن مقرب يمثل ــ ظاهرة متفردة فى عصره ــ اذ أنه عاش فى القرن السابع الهجرى ، وهو زمن كانت فيه الجزيرة

العربية فى منتهى العقم الفكرى والتخبط فى دياجير الظلم والجهل ، كما كان الشعر يغلب عليه المحسنات اللفظية والزخارف البلاغية دون الاهتمام بالمضمون ، فجاء ابن المقرب ليجدد هذا الشعر ، ويعيد له صولجانه القديم ، فكان بحق ظاهرة متفردة فى عصره تستأهل العناية والاهتمام .

ثانيا : بيان منزلة ابن مقرب الشعرية ولفت الأنظار اليه ، والى ما تحلى به من موهبة شعرية ، وما دبجه من قصائد رصينة أعادت الى شرق الجزيرة العربية اعتبارها ومكانتها وأمجادها الشعرية التليدة ، ولعل ذلك يعوض بعض ما أصاب هذا الشاعر من ظلم واجحاف نتيجة اهمال الدارسين .

ثالثا : أن الواجب يتطلب منا نحن أبناء المنطقة أن نسعى بكل جهد الى ابراز تراثها وتعريف العالم من حولنا بأدبائها خصوصا وأن منطقتنا تشهد نهضة علمية وحضارية تحتم على كل واحد منا ألا يبخل عليها بأى عطاء .

وقد اقتضانى هذا البحث أن أقسمه الى ستة فصول :

فى الفصل الأول درست عصر الشاعر من الناحية السياسية والاجتماعية والأدبية وذلك بشكل موجز .

وفى الفصل الثانى درست حياة الشاعر نفسه وبينت طبيعة علاقته بأسرته ومجتمعه ، وتحدثت عن رحلاته واتصالاته بأمراء ورجالات وعلماء عصره ، وألقيت الضوء على حقيقة الخلاف حول معتقده ، ثم أفردت جزءا من الفصل للحديث عن تاريخ وطنه وأهم رجالاته وحكامه .

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن ديوانه ، وأوردت نسخه المخطوطة ، والمطبوعة حسب ترتيبها الزمنى .

أما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن أهم الأغراض التى قـال فيها شعرا ، وتناولت ذلك بالتحليل والدراسة الفنية •

وفى الفصل الخامس درست خصائص شعر ابن مقرب ، وبينت أهم ما تميز به هذا الشعر من سمات وخصائص فنية ، ثم عرضت لآراء النقاد والأدباء فى شعره •

أما الفصل السادس فقد قارنت فيه بين شـاعرنا وبين شـاعر العربية الكبير المتنبى ، نظرا لمـا بين شعر الرجلين من تشابه وتقارب ملحوظين •

ولعلى بهذا الجهد المتواضع أكون قد أديت لهذه المنطقة التى نشأت وترعرعت فيها بعض ما على من دين وأمانة ، وقدمت للمكتبة الأدبيـة وللمهتمين بالمنطقة وأدبها ما يفيد ويغنى •

ولا أنسى فى الختام أن أتقدم بالشكر والعرفان لأستاذى الفاضل الدكتور حسن جاد حسن على ما أولانى من العناية والتشجيع ما دفعنى على الاستمرار وبذل الجهد حتى ظهر هذا البحث فى هذه الصـورة التى هو عليها •

واللـه من وراء القصـد •

سامى قاسم عبد العزيز المناعى

الفصل الأول

عصر الشاعر

---

* الحياة الساسية
* الحياة الاجتماعية
* الحياة الأدبية

... سأحاول فى هذا الفصل أن ألقى بعض الأضواء على عصر الشاعر من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية بصـــورة موجزة وبقدر ما يكشف لنا عن الظروف والملابسات التى أحاطت بالشاعر فأثرت فيه وتأثر بها ، وكان لها صدى فيما نظمه من شـــــعر وما دبجه من قصائد ، وذلك فى الفترة التي عاشها من سنة ٥٧٢ هـ الى سنة ٦٣٠ هـ .

الحيــاة السياســية :

(١)

شهدت هذه الفترة من الناحية السياسية أحداثا جســاما أثرت فى مستقبل الدولة الاسلامية العريضة ردحا من الزمن ، ومن أخطــر هذه الحوادث على الاطلاق ، الحروب الصليبية من الغرب ، والغــزو المغولى من الشرق . وأظهرت هذه الحوادث من ناحية أخــرى مدى التفكك والانقسام اللذين استشريا فى جســم الدولة العباســية كما سنرى . ففى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى زالت الدولة السلجوقية من العراق نهائيا ، وبالتحديد فى ســنة ٥٩٠ هـ ، ويعتبر السلطان مسعود آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء ، اذ أنه لمــا توفى هذا السلطان سنة ٥٤٧ هـ ، لم يعد هناك من سلاطين الســلاجقة فى العراق من يستطيع أن يشغل الفراغ الذى خلفه ، لذلك تعتبر وفاتــه بداية لإنحــلال البيت السـلجوقى فى العراق[1] ، وكانت الخــلافة العباسية آنذاك فى أوج ضعفها ، اذ أن السلطة الحقيقية كانت بيــد المتغلبين على عاصمة الخلافة من سلاجقة أو بويهيين قبلهم . وقد استمر السلاجقة فى الحكم حتى قضى عليهم الخوارزميون سنة ٥٩٠ هـ ، وذلك

---

(١) أبو المحاســن : النجوم الزاهــرة فى ملوك مصر والقاهــرة ، ج ٥ ، ص ٣٠٣ .

أن الخليفة العباسى الناصر استعان بخوارزم شاه تكسن ضد طغرلبك (آخر سلاطين السلاجقة فى العراق) ، بعد أن وعده بأن يملكه البلاد التي بيده ان هو استطاع القضاء عليه[٢] ، وقد استطاع خوارزم شاه فعلا أن يقتل طغرلبك سنة ٥٩٠ هـ[٣] • وهكذا زالت دولة السلاجقة نهائيا من العراق بعد أن حكموا ما يزيد على القرن من الزمان (٤٤٧ هـ — ٥٩٠ هـ) •

وبدأ عصر جديد من عصور الخلافة العباسية ، أو هكذا ظن خلفاء بنى عباس ، فقد حسبوا أنه بزوال السلاجقة سيبدأ عهد جديد فى حياتهم السياسية يتمتعون فيه باستقلالهم بعد أن زال عدوهم الأكبر الذى يتمثل فى آل سلجوق ، ولكن الخوارزميين الذين تحمسوا لازالة الدولة السلجوقية كانوا فى الواقع يعملون لأنفسهم وفق خطة وضعوها منذ قامت دولتهم ، فقد بدأوا يتطلعون الى فرض سيطرتهم على الخلافة العباسية ، وعملوا جاهدين على أن يحتلوا ما كان للسلاجقة من نفوذ سياسى فى الحاضرة الاسلامية ، وكان من أثر تعارض سياسة الخوارزميين مع سياسة الخلفاء العباسيين أن قام بين الفريقين صراع طويل[٤] انتهى بانتهاء القوتين معا على يد المغول كما سيأتى •

كما أدى زوال السلاجقة الى انقسام دولتهم الواسعة الى الدويلات الأتابكية[٥] ، وبالتالى الى وصول الشرق الاسلامى الى درجة من الانحلال لم يسبق أن عرفها المسلمون •

---

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ، ص ٩٤ .

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك .

(٤) حافظ أحمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى — دار الفكر العربى . ص ٤٨ .

(٥) د. حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ١٠٢ ، والأتابك : كلمة مكونة من مقطعين : « بك » ومعناه امير و « أتا » معناه أب ، والأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك .

وأشهر دول الأتابكة جميعا هى أتابكية الموصل التى أسسها عماد الدين زنكى نظرا لاتساع المسرح الجغرافى الذى كانت تشغله فى شمال بلاد ما بين النهرين وفى بلاد الشام ، هذا فضلاً عن عظم الدور الذى لعبه عماد الدين زنكى وأبناؤه من بعده فى حرب الصليبيين، وكان عماد الدين من كبار القواد السلجوقيين المقيمين فى بغداد ، ثم أرسله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه واليا على الموصل سنة ٥٢٢ هـ ، وما زالت جيوشه تستولى على البلاد المجاورة واحدة بعد الأخرى حتى ملكها جميعا ومنها حلب ، ثم حدث أن قتل عماد الدين على يد غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ ، وسار ابنه نور الدين محمود الى حلب وملكها وعظم شأنه فيما بعد ونال شهرة كبيرة فى حروبه مع الصليبيين ، وبقيت حلب فى آل زنكى الى أن ملكها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٩ هـ(٦) .

(٢)

هذا عن بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، أما مصر فقد كانت فى هذه الفترة تحت حكم الدولة الفاطمية الآخذة فى التدهور والانحلال نتيجة الثورات التى قام بها الأتراك الذين أتلفوا قصور الخلفاء وخربوا كل ما وصل الى أيديهم ، وما صاحب ذلك من انتشار القحط والمجاعة وفى وسط الاضطراب الذى انتشر فى قلب الدولة السلجوقية والشام ومصر ، ظهر عدو أنكى وأشد هو الخطر الصليبى ، اذ أنه فى سنة ٤٩٠ هـ ، سارت الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام ، واستولي الصليبيون على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ(٧) . وقد ظلت البلاد الشامية تئن تحت ما أصابها من ذلة على أيدى الصليبيين ، كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الصليبيين بسبب ما بلغه الفاطميون

---

(٦) ابن الأثير : تاريخ الدولة الاتابكية ، ص ١٦٥ .

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ، ص ١١٧ .

من ضعف ، ولولا ظهور عماد الدين زنكى ومقاومته للصليبيين كما قلنا لكانت مصر من البلاد التى يسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها •

وكان استيلاء عماد الدين زنكى على (الرها) التى كانت تسيطر على الطريق بين بلاد ما بين النهرين وبين البحر الأبيض المتوسط سنة ٥٣٩ هـ بمثابة ضربة قاضية أصابت الصليبيين ، وترتب على ذلك قدوم الحملة الصليبية الثانية الى بلاد الشام سنة ٥٤٢ هـ فى عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، ولكن هذه الحملة فشلت فعادت من حيث أتت • ونظرا لأهمية مصر وموقعها وخيراتها ، فقد تسابق الصليبيون ونور الدين للاستيلاء عليها ، واستطاع نور الدين فعلا أن يستولى عليها بمساعدة أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤ هـ ، الذى اتخذه الخليفة الفاطمى العاضد وزيرا له ، ولكنه لم ينعم بمنصب الوزارة أكثر من شهرين وخمسة أيام[٨] ، فاختار العاضد مكانه صلاح الدين الأيوبى فى هذا المنصب ، كما قبل العاضد حماية نور الدين على مصر من الصليبيين •

ومنذ آلت السلطة الى صلاح الدين فى مصر ، أخذ يعمل على ازالة الدولة الفاطمية نهائيا ، فكان أن خطب للخليفة العباسى المستضئ سنة ٥٦٧ هـ ، وكان الخليفة العاضد فى ذلك الوقت على فراش الموت ، وعندما توفى انتقل حكم مصر الى صلاح الدين انتقالا هادئا[٩] •

وفى بداية حكمه بدأ صلاح الدين بتوطيد أقدامه فى البلاد المصرية ، وذلك بالعمل على تحصينها ضد القوى المعادية ، فقضى على بقايا الفاطميين فى مصر ، وحصن نفسه ضد سيده نور الدين ، كما تحصن ضد ما يمكن أن يقوم به الصليبيون من أعمال عدائية ، ثم أخذ يعمل على توحيد جميع القوى الاسلامية الموجودة فى الشرق الأدنى

---

(٨) المرجع السابق — ج ١١ ، ص ١٥٣ •

(٩) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٦٤ •

تحت سلطانه ، حتى يستطيع أن يوجه هذه القوى مجمعة ضد هدفه الأساسى وهو الصليبيين ، وقد أصبح صلاح الدين منذ وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ ، لا ينازعه منازع فى هذا المسرح التاريخى[١٠] .

وهكذا سار صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ الى بلاد الشام ، وأخضع كل بلاد ما بين النهرين ما عدا الموصل التى خضعت له عام ٥٨٢ هـ ، واستطاع أن يمد نفوذه الى حلب ، وبذلك أصبحت البلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين وبعض كردستان خاضعة لصلاح الدين الذى استطاع بعد ذلك كله أن يوجه هذه القوى الاسلامية مجتمعة لمحاربة الصليبيين ، وألحق بهم أول هزيمة منكرة فى موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ ، واسترد بيت المقدس من أيديهم ، وأدى ذلك الى قيام حروب الصليبيين الثالثة ، ولكنها لم تستمر طويلا بسبب اختلاف قادة الحملة الصليبية ، فاضطروا الى عقد صلح مع صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ[١١] ، وتوفى صلاح الدين فى دمشق فى السنة التالية أى فى سنة ٥٨٩ هـ .

ما أن توفى صلاح الدين حتى أصبحت الدولة الأيوبية المتماسكة الموحدة تتهددها عوامل التفكك والانحلال ، لأسباب أهمها اختلاف البيت الأيوبى على نفسه ، اذ أراد أبناء صلاح الدين واخوته أن يقتسموا التركة الهائلة التى تركها من بعده[١٢] ، وعلى الرغم من انقسام هذه البلاد فيما بين أفراد الأسرة الأيوبية فيما بعد فان النزاع لم ينقطع بين هؤلاء الأخوة[١٣] .

الا أن العادل أخا صلاح الدين استطاع بفضل شخصيته القوية أن يفرض سيطرته على مصر سنة ٥٩٦ هـ ، الى جانب أملاكه فى البلاد

---

(١٠) المصدر السابق — ص ١٨٠ .
(١١) ابن الأثير : الكامل — ج ١٢ ، ص ٤٠ .
(١٢) حافظ أحمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٢٧ .
(١٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٥١ .

الشامية ، فأصبح بذلك سيدا على معظم أملاك صلاح الدين ، فأدى للعالم الاسلامى بتوحيد تلك الامارات أجل الخدمات ، واستطاع أن ينقذ الدولة الأيوبية من الانقسام وأن يجنبها النهاية التى آلت اليها الدولة السلجوقية من قبل ، هذا وقد ورد ذكر الحروب الصليبية فى شعر ابن مقرب العيونى حينما وصلته أنباء انتصارات الملك موسى الأشرف الأيوبى فى دمياط فقال مشيدا بشجاعته(١٤) :

سل الكفر من أودى بدمياط ركنه
وقصر أعلى فرعه وهو باسق
يخبرك صدقا أن موسى هو الذى
بصارمه باقت عليه البوائق
وقد جاءت الافرنج من كل وجهة
كأن تداعيها السيول الدوافق(١٥)

الى أن يقول :

فلولاه لم ينطق بدمياط داعيا
الى كلمة التوحيد والعدل ناطق

(٣)

أما البحرين وطن الشاعر فقد كانت فى ذلك الوقت تحت حكم الأسرة العيونية التى ينتمى اليها شاعرنا ، وذلك منذ أن استولى عبد الله بن على العيونى على الحكم وقضى على القرامطة سنة ٤٦٨ هـ ،

---

(١٤) ديوان ابن مقرب — طبعة الاحساء ، ص ٣٠٠ .

(١٥) الديوان — طبعة الاحساء ص ٣٠٠ ، دمياط : مدينة قديمة تقع على الفرع الشرقى للنيل المسمى بفرع دمياط ، وقد كانت قديما تشرف على البحر الأبيض المتوسط ، أما الآن فقد طما النيل وامتدت الأرض بعدها مسافات كبيرة . وباسق : عال مرتفع باقت عليهم البوائق : أصابتهم الشرور والدواهى .

وبعد أن حكم عبد الله بن على مدة من الزمن توفى فخلفه أبناؤه من بعده ، ولكن أمراء الأسرة العيونية ظلوا فى نزاعات وخلافات مستمرة فيما بينهم مما أدى الى ضعفهم وطمع الأعادى فى انتزاع الحكم منهم، وهكذا استولى بنو عصفور على حكم البحرين فى حوالى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى بعد أن حكمها العيونيون قرابة القرنين من الزمن(١٦) .

وكانت الدولة العيونية تدين بالولاء — ولو رمزيا — لبغداد مركز الخلافة الاسلامية شأنها فى ذلك شأن الأقاليم الاسلامية الأخرى ، وكانت العلاقات بين العيونيين وبين الخليفة العباسى علاقات حسنة وتقوم على الود والتعاون ، يدلنا على ذلك ما كان بين الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، والأمير محمد بن الحسين العيونى من احترام متبادل، حتى أن الخليفة من تعظيمه وتشريفه لهذا الأمير فرض له فى كل سنة من بغداد ألفا ومائتى ثوب من عمل مصر أكثرها ابريسيم . وفرض له فى البصرة كل سنة ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز مدة حياته .

وافتخر ابن مقرب بذلك فقال :

منا الذى كل عام بالعراق له
رسم سنى الى أن ضمن الرجما(١٧)

وحدث فى احدى السنين أن خرجت بعض قبائل الجزيرة العربية عن طاعة الخليفة وقاموا بمهاجمة قوافل الحجيج ، فشكا الحاج الى الخليفة الذى أرسل من فوره الى الأمير محمد بن الحسين يأمره بمعاقبة هؤلاء الخارجين عن الطاعة جزاء ما فعلوه بقوافل الحجيج الآمنين ، فقام الأمير محمد بجمع قبائل البحرين معه وشن حملات مظفرة على

---

(١٦) سنذكر بالتفصيل تاريخ الأسرة العيونية فى الفصل الخاص بحياة الشاعر .

(١٧) الديوان — طبعة الأحساء ، ص ٥٤٩ .

هؤلاء الأعراب وأدبهم وأثخن فيهم ، وقبض على زعيمهم وأرسله مقيدا الى الخليفة يأمر فيه بأمره .

ولما قتل الأمير محمد بن الحسين على يد أصهاره ، استنجد ابنه الأمير فضل بن محمد بالخليفة للانتقام من قتلة أبيه ، فأمده الخليفة بخزينة كاملة فيها من العتاد والسلاح والأموال الشىء الكثير ، وحمل كل ذلك الشاعر ابن المقرب الذى كان فى ذلك الوقت فى بغداد ، واستطاع الأمير فضل بذلك أن ينتقم من أعداء أبيه ويقتلهم جميعا ، وذكر ابن مقرب قصة الطريفة فى شعره فقال :

رضى الخليفة هديه واختاره
وحباه بالحظ الجسزيل الأوفر
لباه جهرا واصطفاه له فتى
من بين أبناء النبيت وقيذر
وأمده بخزائن لو صبحت
ذات العماد لآذنت بتدعثر (١٨)

(٤)

عرفنا مما تقدم أن مصر وبلاد الشام كانت فى حالة ضعف شديدة نتيجة لانحلال هذا الجزء من العالم الاسلامى وانقسام زعمائه على أنفسهم ، رغم بعض الفترات التى كانت تبدو فيها البلاد متماسكة ، وقد زاد هذا الانحلال ما أحدثه الصليبيون من تأثير سياسى واقتصادى فى هذا المسرح التاريخى فجعله يشارك بلاد العراق وفارس فيما أصابهما من انحلال ، فلم يستطيع حكام مصر وبلاد الشام أن يوحدوا كلمتهم بحيث يستطيعون الوقوف الى جانب الخوارزميين ثم الى جانب

---

(١٨) الديوان : ص ٢٢٣ ، النبيت : أبو حى من اليمن واسمه عمرو ابن مالك . وقيذار بن اسماعيل أبو العرب ، ولعله عنى بهذا عرب الشمال والجنوب .

الخلافة العباسية فى بغداد عندها هم المغــول باجتياح هاتين القوتين الواحدة تلو الأخرى[١٩] .

وقد توالت الغزوات المغولية على أقاليم الشرق الإسلامى منــذ بداية القرن السابع الهجرى ، واستطاعوا إكتساح الدولة الخوارزمية فى سهولة ويسر واخضاع أراضيها فى مدة لا تزيد على أربع ســنوات وتم لهم ذلك سنة ٦٢٠ هـ[٢٠] .

وظهر خطر المغول على أملاك الخلافة العباسية فى عهد مانجوخان (٦٤٦ هـ — ٦٥٨ هـ) الذى جهز حملتين كبيرتين احداهما بقيادة أخيه كوبلاى خان كان هدفها اتمام فتح بلاد الصين ، أما الثانية فقد أسند قيادتها الى أخيه الأصغر هولاكو ، كان الغرض منها القضاء على طائفة الاسماعيلية فى فارس ، ثم الاســتيلاء على بغداد حاضرة الخــلافة العباســــية .

وفى التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ ، أرسل هولاكو رسالة الى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه فيها الى التسليم ، الا أن الخليفة لم يهتم فكانت النتيجة أن حاصر هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم بعد استسلام الخليفة أعمل فيها النهب والسلب والتخريب[٢١] .

وبعد سقوط بغداد اتجه التتار نحو الغرب مكتسحين ما بقى من بلاد ما بين النهرين ، ثم خربوا حلب سنة ٦٥٨ هـ ، وقبل أن يتــم اخضاع البلاد السورية عاد هولاكو الى بلاده وخلف وراءه قائده كتبغا لغزو مصر ، فاتجه هذا الأخير الى البلاد المصرية فى نحو عشرة آلاف مقاتل ، ولم يهتم المصريون بتهديده ووعيده ، وتمكن الظــاهر بيبرس من أن يوقع بالمغول هزيمة منكرة فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ .

---

(١٩) حافظ احمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٣٤ .
(٢٠) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .
(٢١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٩٢ .

هذا وقد ذكر ابن مقرب التتار والافرنج عرضا فى قصيدة يمدح بها الأمير بدر الدين لؤلؤ ومنها :

فقاد الى الافرنج جيشا زهاؤه
عديد الحصا ذا أزمل وزمازم

وجيشا يوارى الشمس ريعان نقعه
الى الترك اذ جاءوا لهتك المحارم

اذا التتر الباغون ذاقوا لقاءه
تمنوا بأن كانوا دما فى المشائم(٢٢)

وكل هذه الشواهد تدل على أن شاعرنا لم يكن غائبا عن الساحة السياسية ولا عن هذه الحوادث الجسام التى شغلت الناس وأخذت بلبهم وأثرت فى مستقبلهم أيما تأثير .

(٥)

وللتدليل على ما وصلت اليه حال العالم الاسلامى من تفكك وانحلال فى تلك الفترة فقد أوردنا بيان بحال الامبراطورية الاسلامية الواسعة وقت سقوط الدولة العباسية فكانت حالتها على الشكل التالى(٢٣) :

١ — كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بنى نصر ، والقائم بأمرها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ هـ — ٦٧١ هـ) .

---

(٢٢) الديوان ، ص ٥١٧ ، الأزمل : الصوت المختلط ، والزمزمة : الصوت البعيد له دوى ، ريعان الشىء : أوله وشدته ، والنقع : الغبار ، والمشيمة : غشاء ولد الانسان يخرج معه عند الولادة .

(٢٣) المستشرقة يوجينا غيانه : تاريخ الدولة الاسلامية — طبعة بيروت ، ص ٣٥٧ .

٢ — بشمالى أفريقيا دولة الموحدين ، والقائم بأمرهم أبو حفص عمر المرتضى من نسل عبد المؤمن (٦٤٦ هـ — ٦٦٥ هـ) .

٣ — بالجزائر الدولة الزيانية ، والقائم بأمرها بغمر أسن بن زيـان (٦٣٣ هـ — ٦٨١ هـ) .

٤ — بتونس الدولة الحفصية ، والقائم بأمرها ، أبو عبد الله محمد المستنصر بالله (٦٤٧ هـ — ٦٧٥ هـ) .

٥ — بمراكش ، الدولة المرينية ، والقائم بأمرها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥١ هـ — ٦٧٥ هـ) .

٦ — بمصر ، دولة المماليك البحرية ، والقائم بأمرهـا المنصور نور الدين على بن المعز عز الدين ايبك (٦٥٥ هـ — ٦٥٨ هـ) .

٧ — باليمن الدولة الرسولية والقائم بأمرها المظفر بن يوسـف بن المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧ هـ — ٦٧٤ هـ) .

٨ — بصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥١ هـ — ٦٨٠ هـ) .

٩ — بالروم من السلاجقة ركن الدولة قلج أرسلان الرابع (٦٥٥ هـ — ٦٦٦ هـ) .

١٠ — بماردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ هـ — ٦٥٨ هـ) .

١١ — بفارس من الأتابكية أبو بكر بن سعد بن زنكى (٦٣٣ هـ — ٦٥٨ هـ) .

١٢ — ببلورستان من الأتابكية دكلى بن هزارسب (٦٥٠ هـ — ٦٥٧ هـ) .

١٣ — بكرمان من دولة قتلع خان ، قتلع حاقون (٦٥٥ هـ — ٦٨١ هـ) .

... ألا وأن حال العالم الاسلامى بهذا الشكل ألا يحق لشـاعرنا بعد ذلك أن يشكو من زمانه ونوائب دهره ؟ .

الحيـــاة الإجتماعية :

(١)

••• خضعت البلاد العربية والاسلامية ما بين القرنين السادس والسابع الهجريين لنظم اجتماعية لم يسبق مشاهدتها فى العالم الاسلامى ، حيث كانت نظما طارئة أساسها الاقطاع الذى ساد العصور الوسطى فى أوروبا ، وكان طبيعيا والحال كذلك ألا يكون توزيع الثروة معتدلا بين طبقات الشعب المختلفة ، كما كان سواد الناس يتعرضون لنوبات وهزات اقتصادية عنيفة فى صورة مجاعات مخيفة متتالية تجتاح الناس فتكتسح منهم الآلاف اكتساحا .

ونتيجة هذه الاضطرابات فى المجتمع وعدم التوازن فى الدخول لجأ بعض الناس الى كثير من ألوان الكسب غير المشروع ، وكان الأدب وسيلة من وسائل الرزق — وكانت موضوعات التملق تغلب على المواطنين من الشعراء[٢٤] ، كذلك اتخذ الدين والصلاح والتقوى وسيلة من وسائل الرزق ، وظهرت جماعات لم يكن لها عمل فى الحياة الا أنهم متدينون صالحون ، وكان الأمير أو السلطان يتقرب للناس بتقريب هؤلاء وايوائهم ، وربما كانت الحروب الصليبية التى هددت كيان الشرق الاسلامى أول هزة عنيفة أعقبت عصر الاقطاع الذى أوجده نظام الملك منذ عهد السلاجقة وهزتهم وأثارت فيهم النخوة والحمية وجعلتهم يعيشون مع الأحداث ، ويعتبرون ما يجرى على أرضهم شيئا يتعلق بهم وبكيانهم ومستقبلهم :

وكان المجتمع الاسلامى فى ذلك الوقت يتكون من خليط امشاج من عناصر وجنسيات متعددة متباينة فى طبائعها وأخلاقها من العرب والترك والفرس والروم والأرمن ومن سلالات أوروبية استوطنت وتأقلمت ، ولكل جماعة من هؤلاء تراثها الفكرى والاجتماعى والدينى ،

---

(٢٤) د. محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الأيوبى — ص ٤٩ .

ولا شك أن اختلاط هذه العناصر جميعا أنبت أشياء كثيرة وجديدة فى نظم المجتمع وفى العادات والتقاليد وفى الأدب والفكر والدين .

وكان العنصر البارز فى هذه الجماعات هو العنصر التركى ثم الكردى ، وقد بدأ العنصر التركى يظهر عاملا فعالا فى العالم الاسلامى منذ أيام المعتصم الخليفة العباسى ، وكان الأتراك يجلبون غلمانا من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة على أطراف الدولة الاسلامية يخطفون من القبائل المخيمة شمال وشمالى شرق بلاد فارس ، وكان هؤلاء الأتراك يمتازون بجمال الصورة وحسن البنيان والاستعداد الحربى الممتاز ، مما شجع الخلفاء وكبار رجال الدولة على الاكثار منهم لاستعمالهم خدما أو حرسا خاصا . وقد سبب تزايدهم اضطرابا فى المجتمع الاسلامى نظرا لصعوبة خضوعهم للقوانين والتقاليد(٢٥) .

أما العنصر العربى فكان قد فقد سيطرته نهائيا فى كثير من البقاع التى كان يغلب عليها ، وان ظلت آثاره باقية فى الشام والجزيرة وديار بكر وبعض أماكن متفرقة فى العراق ومصر ، ولا ننسى بلاد البحرين التى كانت تحت حكم العيونيين وهم عرب خلص أبا عن جد .

(٢)

وقد تكون الصورة السابقة للمجتمع الاسلامى فى ذلك العصر مصبوغة بلون قاتم ، الا أننا لا ينبغى أن نغفل عن بعض جوانبها المشرقة فانه على الرغم مما كان يسود المجتمع من العيوب والمفاسد فقد قامت كثير من الأعمال الانشائية والعمرانية على أيدى بعض الشخصيات القوية الممتازة أمثال نظام الملك الوزير السلجوقى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، فنظام الملك هو مؤسس أول جامعة اسلامية كبرى ، وهى المدرسة النظامية التى سميت باسمه فى بغداد ، وقد خرجت كثيرا من العلماء فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، وقد أنشأ نور الدين

---

(٢٥) حافظ حمدى — الدولة الخوارزمية ، ص ٣٦ .

محمود كثيرا من المنشآت النافعة فى مدن الشام ، وفى حلب ودمشق خاصة ، منها قلعة حلب العظيمة وبعض المدارس و كذلك البيمارستان وربط الصوفية والخانقاه فى دمشق . وكان لصلاح الدين نصيب وافر فى التعمير والاصلاح فى أنحاء متفرقة وبلاد كثيرة فى مصر والشام ، وأهم منشآته بمصر القلعة المعروفة باسمه على المقطم ، ثم بناء سور القاهرة الكبير وبناء المدارس الكثيرة بها ، وقد فعل بدمشق مثلما فعل فى القاهرة .

وبالرغم من أن كثرة الحروب قد أثقلت كاهل الناس والسلاطين الا أن المؤرخين يذكرون لنا من الأخبار الشىء الكثير عن مظاهر البذخ والعظمة التى صاحبت أفراحهم ومناسباتهم(٢٦) .

وقد نشطت حركة التجارة بصفة عامة فى هذا العصر على الرغم مما كان يسوده من اضطراب نتيجة للحروب المستمرة بين الشرق والغرب ، وكان لهذه التجارة أثر كبير فى حياة الناس وفى أحوال معيشتهم وفى ميزانيات الحكومات ومشروعاتها ، كذلك حصلت المكوس (الضرائب) الكثيرة على التجارة العابرة مما زاد موردها وحسن حالتها المالية بصفة عامة ، وقد ذكر الشعراء (المكوس) وتحصيلها وشكوا من الحاح المحصلين وتعنتهم ومن هؤلاء ابن التعاويذى الشاعر المعروف فى ذلك الوقت(٢٧) ، ولابن مقرب أبياتا شعرية فى هذا الجانب قالها فى هجاء ضامن المكوس بواسط لما عارضه فى بضاعة كانت معه وفيها يقول :

أسرفت فى ظلم العباد أما
للبعث فى ناديك من ذكر

وأعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر

---

(٢٦) راجع مفرج الكروب — جـ ٣ ، ص ٢١٤ ، تحقيق د. الشيال .
(٢٧) راجع ديوان ابن التعاويذى ص ١٩٥ .

نصف البضاعة حين تظفرها
مكس لقد بالغت فى النكر

خنت الخليفة فى رعيته
وعصيته فى السر والجهر[٢٨]

على أن بعض الحكام العادلين لاحظوا ما يقاسيه الناس ، ويعانيه التجار من فداحة المكوس ، أو ما قد ينتج عنها من وقف نشاط التجارة أو ركودها ، أو ما قد تسببه من مضايقات لحجاج بيت الله الحرام فرفعوا بعض أنواعها وخفضوا البعض الآخر ، وممن استن هذه السنة الحميدة فى الشام نور الدين محمود ، كما أمر صلاح الدين بتخفيضها كثيرا فى سنة ٥٦٧ هـ .

وعلى الرغم من هذا كانت تحدث هزات اقتصادية عنيفة قد تؤدى بالكثيرين وتؤدى الى المجاعات وانتشار الكساد ثم الأوبئة ، ولعل أهم ما حدث فى مصر والجزيرة والموصل والشام من غلاء ومجاعات ما كان سنة ٥٧٤ هـ ، قال ابن الأثير : « وفى سنة ٥٧٤ هـ اشتد الغلاء وعم أكثر بلاد العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشام ، وغير ذلك من البلاد ودامت الى أن انقضت السنة »[٢٩] . وفى احدى السنين أصاب « القطيف » وهى من بلاد البحرين سنة مجدبة ممحلة شديدة القحط ، فكانت الطيور فى البلاد تميل عن البر لفقدها الغذاء وكان أمير القطيف آنذاك أبا مقدم شكر بن أبى على الحسن بن عبد الله بن على العيونى ، وبلغ من كرم هذا الأمير أن جعل لكل جنس من الطير شيئا من مأكوله ، فللغراب التمر ، وللفواخت وغيرها الحنطة وأجناس الحبوب وينثر ذلك فى الأماكن التى تقع فيها ، ويمنع الصيادين من صيدها . وقال ابن مقرب عن ذلك :

---

(٢٨) ديوان ابن مؤب — ص ٢٢٧ ، التجار : جمع التاجر والسفر : الجماعة المسافرون .

(٢٩) ابن الأثير — الكامل ، جـ ٤ فى تلك السنة .

ومطعم الطير عام المحــل قاســـم بـــه
هنا اذا ضـــر خلك الغيث فانصرما[٣٠]

(٣)

وكان للعناصر التى تكون منها المجتمع الاسلامى والتى أشرنا اليها أثر فى ظهور بعض العادات والتقاليد الغريبة عن الاسلام والعرب ، كما أن الحالة السياسية التى كان يحكم بها الناس أظهرت بعض المظــالم والمفاسد الاجتماعية ، وبرزت أخلاق الملق والرياء وطغت على غيرهــا بين العامة والخاصة وكثر الدس ، وانتشرت الخيانة والوقيعة لدرجــة تدفع بالخليفة أن ينادى (من ســـعى بأحد أبيح ماله) ، وفى ديوان ابن مقرب أشعارا كثيرة فى ذم أهل زمانه وأخلاقهم المرذولة[٣١] .

ومن البدع السيئة التى ابتدعها القرامطة فى البحرين وجعلوهــا دينا بدعة (الماشوش) : وهى أن يجتمع الرجال والنساء فى ليلة معلومة عندهم فى السنة (الليلة العاشرة من محرم وأول ليلة من برج الحمــل المسمى بالنيروز) ويشعلون الشمع ويقومون ويرقصون ويختلطون ، وفيهم أخوات الرجل وأمه وبناته وعماته وخالاته ، فاذا استكفوا من الرقص أطفأوا الشمع واختلطوا وقبض كل رجل منهم بيــد امرأة من الجمع وواقعها سواء كانت من محارمه أو أجنبية ، ولـــا ملك عبد الله بن على العيونى البحرين وصارت تلك الليلة ركب الأمير أبو شــــكر المبارك ، وركب معه غلمانه وهجموا على جمع الفساد فضربوهم وسلبوهم، فقال أحدهم : والله ما نحن فى شىء مما يضر بدولتكم انما هذا مذهب نراه فى ديننا ، فقال له الأمير : لئن اجتمع منكم اثنان على هذا الأمر لأعملن فيكم السيف لا العصا ، فأمات هذه البدعة من البحرين فمــا بقيت تعرف . وقال ابن مقرب عن هذا :

---

(٣٠) ديوان ابن مقرب ، ص ٥٤٤ .
(٣١) المصدر السابق ص ١٣ ، ص ٣٥ ، ص ١٤٠ .

هذا الذى أبطل الماشوش فانقطعت
آثاره وانمحى فى الناس واتطشما[٣٢]

وهناك جانب آخر من حياة المجتمع فى هذا العصر هو حياة الرقيق من الجوارى والغلمان والاكرة عبيد الأرض ، وكانت تجارة الرقيق رائجة يقوم عليها جماعة من تجار الرقيق من أهل جنوة والبندقية[٣٣] ، وكان أثرياء الناس يتهافتون على اقتناء الجوارى والغلمان ليكونوا زينة لقصورهم وتتمة لأبهتها ورونقها ، وقد أثر الرقيق فى حياة المجتمع الاسلامى والعربى فى ذلك الوقت ، وزاد منه كثرة سبى الحروب الصليبية الذى أضاف الى الفئات المجتلبة من البلاد والأصقاع البعيدة أجناسا أخرى من الأرض الأوروبية واليونان وغيرهم ، وقد فتن المسلمون بهذه الألوان الجديدة ، وكان من الطبيعى أن يظهر أثر ذلك كله على أدب العصر كما سنرى ان شاء الله .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل أيضا هى ظهور ألوان جديدة من العقائد والتقاليد الدينية لم تكن معروفة من قبل ، وكانت نتيجة طبيعية للاختلاط بين هذه الأجناس والشعوب وبين أمشاج العقائد والديانات بين المسلمين من سنيين وشيعة ودروز وباطنية ، وحشيشية ويهود ونصارى ووثنيين وبقايا عقائد قديمة حملتها فئات من الشعوب ذات الحضارات القديمة كالهنود والفرس الذين تركزت فى عقولهم بعض عقائدهم كالمانوية والزرادشتية وغيرها .

هذا وقد عرف السلاجقة السنيون بتشجيعهم على بناء المدارس ودور الحديث لبث الثقافة الاسلامية السنية ، وكانت المساجد تفتح طوال النهار لأداء فريضة الصلاة ولتعليم الدين ولقراء القرآن الكريم ، وأولى الأيوبيين عنايتهم للعلوم الاسلامية والعربية كالفقه والحديث

---

(٣٢) الديوان ، ص ٥٥٠ .

(٣٣) وفيات الأعيان ج ٤ ، ص ١٤٧ .

والسيرة النبوية ، ويروى أن صاحب (اربل) بلغ من تعظيمه لسيرة النبى عليه الصلاة والسلام أنه دفع لأحد علماء الأندلس ألفى دينار عندما ألف له كتابا فى السيرة النبوية وهو كتاب (التنوير فى مولد السراج المنير)[٣٤] ، وقد أدى هذا كله الى وجود محصول كبير من الكتب الاسلامية التى ألفت فى هذا العصر . كما حرص المسلمون على أن يحيطوا احتفالاتهم وأعيادهم الدينية بمظاهر البهجة والسرور ، وكانوا يتبادلون التهانى ويلبسون الثياب الجديدة ويتزاورون وتزدان المدن وتزخر ما بها من مرافق دينية بجماعات المسلمين ينشدون الأناشيد الدينية ويرتلون القرآن الكريم ويقيمون الأذكار .

(٤)

هذا جانب مشرق من جوانب الحياة الدينية ، ولكن هناك جانبا آخر أقل اشراقا ، وهو ما انتاب هذه الحياة من خلافات عقيدية ومذهبية بين المسلمين أنفسهم من أتباع المذاهب المختلفة ، وقد استغلت بعض الفرق الدينية الفقر وسوء توزيع الثروة وجهل العامة فلعبت بعقولهم ، وحاولت اجتذابهم الى بعض المبادىء الهدامة المخربة مما جعلها تنتشر فى هذا الوقت كدعوة الاسماعيلية التى استفحلت فى القرن السادس الهجرى حتى قضى عليها التتار عند اجتياحهم للشرق الاسلامى[٣٥] ، وكدعوة القرامطة قبلها التى زعزعت أركان الدولة العباسية وساعدت على سرعة زوالها[٣٦] . وكان للشعور الدينى الذى غلب على الناس فى هذا العصر أثره كذلك على الأسماء والألقاب التى تسمى بها الناس مضافة الى الدين مثل : زين الدين وصلاح الدين ونور الدين وهكذا ، ومن الظواهر التى انتشرت فى هذا العصر أيضا ظاهرة التصوف ، وهى

---

(٣٤) وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

(٣٥) راجع الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى — حافظ حمدى ، ص ٦٧ .

(٣٦) انظر كتاب القرامطة لمحمود شاكر ، طبعة المكتب الاسلامى ببيروت .

ظاهرة طغت على ماسواها من مذاهب ، وساعد على ظهورها وانتشارها سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التى عرفناها سابقا ، وقد ساعد على انتشارها أيضا تشجيع الحكام لها سواء عن رغبة حقيقية وعقيدة عند بعضهم ، أو عن رغبة خفية ماكرة لمجرد مسايرة الشعور العام ، ولأن هذه الدعوة فى صالحهم فهى تصرف العامة عن تتبعهم وحسابهم على ما يفعلون .

وكان من الصوفية فى هذا العصر علماء ألفوا فى التصوف ، ومنهم الامام القشيرى صاحب « الرسالة القشيرية » ، والشيخ الانصارى فى « كتاب الأسرار » ، والسلامى فى « طبقات الصوفية » ، والهجويرى فى كتاب « كشف المحجوب » بالفارسية وغيرهم كثير ، ومن شيوخهم المشهورين فى القرنين السادس والسابع : نجم الدين كبرى[٣٧] ، ومحب الدين البغدادى الذى توفى سنة ٦٠٦ هـ[٣٨] .

ومن شعرائهم المشهورين عمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ .

والخلاصة أن عصر ابن مقرب كما رأينا حفل بشتى الطوائف والنحل سواء الدينية منها أو التى اتخذت من الدين ستارا لتحقيق أطماعها ومآربها المشبوهة ، وكان من نتيجة اختلاط الأجناس المختلفة فى الدولة الاسلامية أن تولدت العلوم والمعارف كظاهرة ايجابية ، والعادات والأخلاق المذمومة كظاهرة سلبية وهذا كله انعكس بدوره على الأدب والفكر بشكل عام والشعر بشكل خاص .

* * *

---

(٣٧) فوات الوفيات — لابن شاكر — طبعة محى الدين ، جـ٢ ، ص٥

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٤٩٦ .

الحيـــاة الأدبيـــة :

(١)

اذا وصفنا هذا العصر من الناحية الأدبية بأنه العصر الفضى للأدب وأن العصر السابق عليه هو العصر الذهبى ، واذا قلنا عنه أيضا بأنه لم يكن يمتاز بالابداع والعبقرية بقدر ما كان يمتاز به من براعة الصـنعة والمهارة الفنية التى غلبت الى وقت كبير على العبقرية والابتكار ، فان كلامنا هذا لا يخلو من الحقيقة[٣٩] . فالأدب فى عصرنا هذا كان حقـا أدب صنعة فى أكثره وان لم يخل الأمر بطبيعة الحال من الطبع والحس الرقيق وهو أدب ترف مسخر فى أساليبه وموضوعاته لخدمة الطبقـة الحاكمة والوزراء والولاة ، على أنه فى كثير من حالاته كذلك كان أدب تسلية وقطع للوقت وفيه الكثير من اللعب باللفظ والمعنى والمهـارة فى اللغز والتعمية بقصد السمر والدعابة ، وكان على الشاعر فى ذلك الزمن أن يبدع فى هذا كله والا لم يكن مقربا من نفوس الرؤساء ، ومن معالم هذا الأدب فى النثر والرسائل كثرة ألفاظ المديح والاطراء ، كما أنـه عرف بالافتتاحيات التى تزخر بمعانى الخضوع والذلة كقولهم مثلا : « الخادم يقبل الأرض بين يدى المولى »[٤٠] . وفرض ذوق العصـر ورفاهيته على الأدب ألوانا من التعبير عمادها اســـتخدام الخواص الصوتية للعبارات لا الألفاظ المفردة وحدها ، كما أن الشعراء برعوا فى توليد الأوزان الخفيفة التى تميل فى نغماتها الى التوقيـع الراقص ، وهذا الميل أو الذوق العام لهذا اللون من الأدب جعلهم ينحرفون عن الأنماط القديمة له ، ويبتعدون عن أساليبه وفنونه ، كما نفروا من روح البداوة كل النفور ، ورقوا فى أدبهم كما رقوا فى أخلاقهم وعاداتهم ، وكل هذا ظهر فى أدابهم كما سنرى وبما أن الأدب يشمل الشعر والنثر فيلزمنا أن نستعرض هنا بشكل موجز صفات كل من هذين الفنين على

---

(٣٩) محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ١٦٨ .
(٤٠) المصدر السابق .

جدة من ناحية الشكل والمضمون والموضوعات التي تطرقا اليها ومدى تعبير كل منهما عن هذه الفترة التي نتحدث عنها .

(٢)

وبادىء ذى بدء نقول أن النثر تفوق على الشعر فى هذا العصر واقتحم عليه ميادينه وأصبح الكتاب بمنزلة أرفع من منزلة الشعراء ، وصارت بأيديهم أزمة البيان بعد أن حمل رايته الشعراء دهورا طويلة من قبل . أما الموضوعات فقد كانت هى الموضوعات التقليدية نفسها للأدب العربى ، الا أنه زادت فى هذا العصر فنون جديدة وترعرعت فنون كانت معروفة من قبل ، وقد كان هذا العصر عصر حروب متصلة بين المسلمين والصليبيين وكانت تلك الحروب سببا فى ظهور لون من الأدب يعبر عنها هو أدب القتال وما يستتبعه من وصف الجيوش والآلات الحرب والحصون ، وكان هذا مشتركا بين الشعراء والكتاب ، ومن أمثلة هذا فى النثر كثير ، وللقاضى الفاضل من كتاب الرسائل أوصاف كثيرة للحروب والحصون ، منذ ذلك وصفه لحصن منيع سقط فى يد المسلمين : « هو شجى فى الحناجر ، وقذى فى المحاجر ، وقد أخذ من الآمال بمخنقها ، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها ، وصار رئيا للدهر فى ذلك الفج ، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ، وهو حصن الشوبك — يسر الله الآخر » — كبيت الواصف للأسدين :

ما مر يوم الا وعندهما

لحم رجال أو يولغان دما[(٤١)]

أما المعركة التى وقع فيها حصن الكرك فقد وصفها على النحو التالى : « أما الكرك فكفأت المنجنيقات متظافرة عليه ، وحجارتها على من فيه حاجرة ، وقد جدعت أنوف الأبرجة ، وأسبلت قناع الستائر

---

(٤١) الروضتين — لأبى شامه ج ٢ ، ص ٥٥ .

وجوهها المتبرجة ، وكل جوانبها وعرة المرتقى ، التى تتعادى فيها الهمم ، ويناشر حرات الشتاء الكالح بوجهه المبتسم »(٤٢) ، ومما يدخل فى أدب القتال الكتب التى ألفت فى أحوال الحرب والسلاح ، قال ابن خلكان فى « ابن صابر » المنجنيقى : « كان ابن صابر جنديا فى ابتداء أمره ، مقدما على المنجنيقيين بمدينة السلام ، ولم يزل مغرى بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة ، واشتهر بذلك ، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه فى درايته وفهمه لذلك ، وصنف فيه كتابا سماه (عدة السالك فى سياسة الممالك) ولم يتمه ، وهو مليح فى معناه ، يتضمن أحوال الحروب ، وتعبئتها ، وفتح الثغور ، وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية ، والهندسة، والمصابرة على الحصاد والقلاع والرياضة الميدانية والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل أداة الحروب والكفاح ، وصنوف الخيل وصفتها »(٤٣) وجمع القاضى ابن شداد لصلاح الدين كتابا فى الحرب يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين(٤٤) .

والى جانب ذلك سجل النثر فى هذا العصر معالم الحياة والمجتمع . فكتب الكتاب عن الاضطراب الاجتماعى ووصف الأدب ارتفاع الناس وسقوطهم ، وتقلب أحوال الناس بين المجد والانحدار ، وهى أشياء ومظاهر كانت عادية ومعهودة ، حتى أن كاتبا مثل القفطى يؤلف كتابا فى : « من ألوت الأيام عليه فرفعته ، ثم التوت عليه فوضعته »(٤٥) .

ومن بين الموضوعات الطريفة التى تناولها النثر أيضا موضوعات من صميم الحياة التى قد لا نجد الأدب القديم يعنى بها مثل وصف الحمامات العامة ، أو ذم بعض العادات الشاذة ، ونقد أحوال العمال والموظفين فى الدولة مثل عمال المكوس كما مر من أمثلة . ومن غريب

---

(٤٢) الروضتين — لأبى شامة .
(٤٣) ابن خلكان — وفيات الأعيان — ص ٦ ، ص ٣٦ .
(٤٤) المصدر السابق — ص ٨٥ .
(٤٥) ارشاد الأديب — لياقوت الحموى — ج ٥ ، ص ٤٨٣ .

الموضوعات موضوع ذم المدن أو مدحها ، أو هجاء الأقاليم ، وألفت كتب فى ذكر فضائل الشام ودمشق ومصر ، وربما قامت بين الأدباء مناظرات أو منافرات موضوعها المدن ، كالتى قامت بين أدباء مصر والشام حول فضائل الاقليمين ، وقد أورد أبو شامة[٤٦] أمثلة لهذه المناظرات فى الروضتين ، ونال النيل فى مصر نصيبه من انتاج الأدباء شعراء وكتابا ، وممن جرى قلمهم بوصفه ضياء الدين بن الأثير ، والقاضى الفاضل أيضا رسالة فى النيل نقل بعضها ابن حجة الحموى فى كتاب « الثمرات »[٤٧] ، ومن المواضيع الأخرى كثرة ما قيل فى السيف والقلم ، ومع قدم هذا الموضوع الا أن الشعراء والكتاب قد أكثروا فيه .

ومن كتب الأقدمين التى نالت اهتمام أدباء هذه الفترة كتاب « الحماسة » لأبى تمام ، وكان له مكانة خاصة فى النفوس ، فكانوا يقرؤونه ويحفظونه ويستشهدون بأبيات منه فى كتبهم ورسائلهم ، وقد تناوله بالشرح جماعة من أعلام اللغويين كالخطيب التبريزى[٤٨] ، والبيهقى ، وغيرهم ، وبجانب « الحماسة » يأتى كتاب « ديوان أبى الطيب المتنبى » ، وكان عدة الأدباء وزاد الشعراء ، وكتاب « مقامات الحريرى » وكان يحفظه الأدباء والعلماء ولهم عليه شروح كثيرة .

وصور الأدب النثرى وفنونه فى ذلك الوقت هى نفسها تقريبا الصور والفنون التى عرفت من قبل فى الأدب العربى ، ونعنى بها الخطب والرسائل ، وزادت عليها المقامات وهى أحدثها ظهورا فى الأدب النثرى ، وكان لمقامات الهمذانى والحريرى أثر واضح فى انتشار هذا الفن الجديد ، وقوى أيضا فن القصص ، وفن الخطابة الدينية خاصة ، وقد اشتهر جماعة من الخطباء الأئمة منهم ابن الجوزى الذى كان يعظ

---

(٤٦) الروضتين — لابى شامة — ج ٢ ، ص ٥٦ ، ٥٨ .

(٤٧) ثمرات الأوراق — لابن حجة الحموى — ص ١٣٢ .

(٤٨) الارشاد — للحموى — ص ٢٨٧ ، وص ٢١٣ .

الناس ببغداد[٤٩] ، وابن الزكى[٥٠] . وأشهر كتاب النثر فى هذه الفترة رشيد الدين الوطواط فى الشرق ، وكان شاعر البلاط فى دولة الخوارزميين[٥١] ، وفى الشام عماد الدين الأصبهانى المعروف بالعماد الكاتب الأصبهانى الذى خدم الأيوبيين بالشام ، وفى مصر نجد القاضى الفاضل الذى كان كاتب صلاح الدين وقد أوردنا أمثلة من كتاباته ، ومن كتاب النثر المشهورين أيضا ضياء الدين بن الأثير المتوفى فى بغداد سنة ٦٣٧ هـ . هذا وقد امتاز كتاب النثر بالتطويل فى كتاباتهم ، وكذلك غلب عليهم طابع السجع ، وعمدوا اليه عمدا ، وغلب على سجعهم التكلف والتصنع ، وكانوا يحاولون بكثرة لجوئهم الى التعقيد والاسراف فى الصنعة أن يوجدوا فنا جديدا يضارع الشعر ويفوقه ، أو كما يرى بروكلمان فى مقامات الحريرى : أنها تمثل محاولة أخيرة من جانب الروح العربى الى التماس فن ملائم من القول خارج نطاق الشعر التقليدى[٥٢] ، على أن هناك كتابا شذوا عن هذه القاعدة وجنحوا فى كتاباتهم الى السلاسة والسهولة والوضوح ومنهم أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » الذى وصف فيه مغامراته فى الحرب والسلم بعبارات قصصية مبسطة[٥٣] .

(٣)

هذا عن النثر ، أما الشعر فانه بدوره سجل أحداث العصر ، وكان صورة لها وعكس مراحل الحروب الصليبية وما حصل عليه المسلمون من انتصارات ، وما نكبوا به من هزائم ، وخلد الشعر حوادث التتار المروعة وما جروه على بلاد المسلمين من تخريب واحراق وخاصة فى أواخر

---

(٤٩) راجع رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
(٥٠) وفيات الأعيان — ج ٣ — ص ٣٦٥ ، ص ٣٧١ .
(٥١) الدولة الخوارزمية — ص ٨٧ .
(٥٢) بروكلمان — تاريخ الشعوب الاسلامية — ج ٢ — ص ١٧٢ .
(٥٣) المصدر السابق — ص ٢٣٣ .

القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، وللأنورى الشاعر الفارسى قصيدة بيماها « دموع خراسان » يبكى فيها خراسان بعد غارة التتار ، وتدميرهم لها وقتل أهلها واشتعال النار فيها[٥٤] ، كما سطر الشعر بأبياته مفاخر الأبطال الكبار وانتصاراتهم ممن تصدوا للتتار البرابرة أو للصليبيين المغيرين وعلى رأس هؤلاء الأبطال صلاح الدين الأيوبى ونور الدين محمود ، وكان لقادة صلاح الدين وجنوده نصيب من الشعر لما أبدوه من ضروب الفروسية والشجاعة ، وقد ذكر (الغزى) الشاعر أبياتا فى جند صلاح الدين من الأتراك فقال :

فى فتيـة من جيوش التـرك ما تركت
للرعـد كـراتهم صـوتا ولا صيتا
قـوم اذا قوبلوا كانـوا ملائـكة
حسنا ، وان قوتلوا كانوا عفاريتا[٥٥]

وكقصيدة ابن مقرب العيونى فى مدح الملك الأشرف الأيوبى لما هزم الصليبيين فى دمياط ومطلعها :

أبر شـهودى أننى لـك عاشـق
سـهادى وسقمى والدموع الذوافق[٥٦]

ولم يكن المديح مقصورا على الأشخاص المعاصرين ، بل ان الشعراء تعرضوا فى مدائحهم لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذت المدائح النبوية فى القرن السابع الهجرى طريقها الى الشعر العربى بشكل واضح ، ومن أشهر أصحاب المدائح الامام البوصيرى ، وقصائده فى هذا المجال معروفة وأشهرها البردة والهمزية .

---

(٥٤) محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ٢٣٤ .
(٥٥) الجامع المختصر — ج ٣ / ٤ .
(٥٦) الديوان — ص ٢٩٢ .

أما غرض الهجاء فاتخذ فى هذا العصر طابعا مختلفا عن الهجاء التقليدى القديم فى خصائصه ومادته ، فكما تعرض الهجاء فى هذه الفترة للأشخاص تعرض أيضا للبلاد والأشياء الأخرى ، ومن أشهر الهجائين « ابن الهبارية » و « ابن عنين » ولعل الفساد الاجتماعى هو الذى ساعد على ازدهار غرض الهجاء فى هذا العصر ، وهذا العامل هو الذى دعا شاعرنا ابن مقرب الى التعريض بصفات أهل زمانه الذميمة واستكانتهم للظلم فقال :

أرى الناس مذ كانوا عبيدا لغاشم
وخضما لمغلوب وجندا لغالب(٥٧)

وظلت بعض الموضوعات التقليدية التى اعتاد الشعراء القول فيها مجالا للشعر فى ذلك العصر كذلك . ومن هذه الموضوعات وصف الخمر ومجالس الشراب ، وبرع فيها جماعة مثل ابن النبيه(٥٨) ، وقد عاش فى هذا العصر جماعة من الخلعاء وأصحاب المجون من الشعراء ممن اتخذوا خلعاء العصر العباسى فى القرنين الثانى والثالث أئمة يحتذون على منوالهم ، ومن هؤلاء أبو القاسم الاسطر لأبى المتوفى سنة ٥٣٢ هـ ، ويقول عنه ابن خلكان : « وكان كثير الخلاعة ، يستعمل المجون فى أشعاره ، حتى يفضى به الى الفحش فى اللفظ »(٥٩) .

ومن موضوعات الشعر الألغاز ، وكان الشعراء يتراسلون بها ، ويقضون أوقاتهم فى عملها وحلها ، وهى تدل على مدى قدرة الشاعر وتمكنه ، ونبغ فيها جماعة ، وألف فيها آخرون كتبا جمعوا فيها ما وقعوا عليه منها مثل على بن عدلان الربعى المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ، وله فى ذلك كتاب « عقلة المجتاز فى حل الألغاز »(٦٠) .

---

(٥٧) المصدر السابق ص ٦٦ .
(٥٨) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .
(٥٩) وفيات الأعيان ج ٣ — ص ١٠١ .
(٦٠) فوات الوفيات ، ج ٢ — ص ١٢٢ .

ونجد فى هذا العصر كذلك نماذج من الشعر الانسانى الجياش بالعواطف الانسانية العميقة ، الى جانب الألوان التى أشرنا اليها ومنهم طائفة غلبت عليهم العاطفة الدينية فصاروا ينظمون أبيات النسك والزهد بدلا من الغزل والصبابة ، ويدعون غيرهم بترك الطرق المعوجة والتزام الطريق المستقيمة كقول الشاعر :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى
وللمشترى دنياه بالدين أعجب

وأعجب من هذين من باع دينه
بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وخاض الشعر فى العقائد ، وأصبحنا نرى شعراء المذاهب والنحل يتجادلون فى عقائدهم ومذاهبهم ، ويردون حجج المعارضين ويدلون بحججهم ، فشعراء أهل السنة يندون بالمعتزلة والشيعة الباطنية ، وهؤلاء بدورهم يردون عليهم وينتصرون لمذاهبهم ، واتخذوا من الشعر منبرا لنشر الآراء حتى تذيع بين الناس ويسهل تناقلها لسرعة تعلق الشعر بأذهان العامة .

(٤)

ولشعر هذا العصر ملامحه الأسلوبية التى تكون الصورة والشكل الفنى الذى ظهرت فيه تلك الموضوعات . وقد تنوعت المذاهب الفنية فى شعر العصر ، فنرى بعض الشعراء قد انتحوا ناحية القديم ينهجون نهجه ويصطنعون أساليبه ومعانيه ، والتزم آخرون مذهب الصنعة والبديع وجمع فريق ثالث بين المنهجين فأخذوا من القديم معانيه ، ومن الجديد أساليبه ، ومن خصائص المذهب الأول بالاضافة الى قوة الألفاظ والرصانة والنزوع الى الأغراب ، كثرة الصور البدوية ، وتعمد البدء بالنسيب على الطريقة البدوية ، واشتقاق الصور والتشبيهات والمعانى من الصحراء ومظاهرها .

وكان شعراء هذا المذهب أو أكثرهم ينفرون من الاتجاه الجديد فى الشعر والأخذ بطريقة أصحاب البديع والرقة والسهولة ، ومن أشهر أصحاب هذا الاتجاه الشاعر الطغرائي[٦١] ، والشاعر الحيص بيص[٦٢] وابن التعاويذى والأبيوردى وغيرهم ، على أن المذهب الثانى وهو مذهب البديعيين كان أكثر شيوعا ، وأصحابه كانوا هم الكثرة الغالبة فى ذلك العصر ، ومذهبهم المذهب المفضل المختار الذى يتلاءم مع أذواق الناس ويتفق مع أهواءهم ، واتخذ البديعيون من الحريرى وطريقته فى المقامات نموذجا يحتذى وأكثروا فى أشعارهم من ألوان التلاعب اللفظى حتى غلب عليه التعقيد والاسراف ، الا أن كثيرا من شعراء هذا العصر الذين أعجبوا بالبديع لونا فنيا لم يغرقوا هذا الاغراق وانما تناولوا بعض فنونه بحذر وحيطة ، وهؤلاء هم أصحاب الاتجاه الثالث ، ومن أشهرهم فى ذلك العصر ابن منير الطرابلسى ، ومعاصره ابن القيسرانى وكانا من شعراء الشام ، وجرت بينهما وقائع ونوادر ، ولزما السلطان نور الدين محمود ، ولهما فيه قصائد طنانة فى المدح ، وكان يشبهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع التى جرت بينهما ، ومن شعر ابن القيسرانى فى نور الدين محمود رحمه الله ، قوله :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب
وذى المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتى متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

... هذه حالة الأدب فى تلك الفترة .

---

(٦١) انظر اتابكة الموصل — ص ٤٢ .

(٦٢) ارشاد الأريب — لياقوت الحموى ، ج ٤ — ص ٢٣٣ .

الفصل الثاني

حيــاة الشـــــاعر

* اسمه ونسبه ٠
* ولادتــه ونشأته ٠
* رحلاته واتصالاته ٠
* ثقافتــــه ٠
* شخصيته وخلقــه ٠
* معتقـــــده ٠
* وفاتـــــه ٠
* نبذة تاريخية عن وطن الشاعر ٠

أسمه ونسبه وكنيته :

اتفق الرواة ومن ترجموا للشاعر فيما يتعلق باسمه واسم أبيه ، ولكنهم اختلفوا فى ترتيب أسماء آبائه وأجداده بعد ذلك حتى الجـــد الأعلى للعشيرة[١] ، بل اختلفوا فى الأسماء نفسها ولكننا مع ذلك يمكننا الاطمئنان الى تعريف واحد ممن ترجموا له ، وهو ابن الشعار الموصلى، وذلك لسبب ظاهر وهو أنه استقى هذا التعريف من الشاعر نفسه حيث التقى به فى بغداد سنة ٦٢٤هـ [٢] . يقول ابن الشـــعار بعد أن يعرف الشاعر (هكذا أملى على نسبه من حفظه)[٣] .

فعلى ذلك نقول أن شاعرنا هـــو : على بن مقرب بن منصـــور بن المقرب بن عزيز ، بن ضبار بن عبد الله بن على بن عبد الله بن محمد ابن ابراهيم بن محمد الربعى البحرانى العيونى[٤] .

وكما اختلف الرواة والمترجمون حول نسب الشاعر ، اختلفوا أيضا حول لقبه وكنيته فنرى بعضهم يلقبه بجمال الدين[٥] ، والبعض الآخر يلقبه بموفق الدين[٦] ، وبينما يكنيه البعض بأبى عبد الله[٧] ، نرى

---

(١) انظر ابن الفوطى ــ تلخيص مجمع الآداب ــ والصفدى فى الوافى بالوفيات ، وابن ماكولا فى الاكمال .

(٢) عمران العمران ــ ابن مقرب ــ دراسة ، ص ١٥ .

(٣) ابن الشـعار الموصلى ــ قلائد الجمان فى شعراء الزمان ــ مصور بمعهد المخطوطات .

(٤) عمران العمران ــ دراسة عن ابن مقرب ــ ص ١٩ .

(٥) ديوان ابن مقرب ــ طبعة الهند سنة ١٣١٠ هـ ، وانظر ايضـــا (مخطوطات الموصل) للدكتور داود الحلبى ص ٤١ .

(٦) ابن الفوطى ــ تلخيص مجمع الآداب .

(٧) الديوان ــ طبعة الهند ، والصفدى فى الوافى بالوفيات ــ ج ٢٢، ورقة ٨٩ .

الآخر يكنيه بأبى الحسن[٨] ، وغيره يكنيه بأبى القاسم[٩] ، وهناك من يكنيه بأبى منصور[١٠] ، وعلى كل حال فانه من الجائز أن يحمل المرء أكثر من لقب وأكثر من كنيه ، وليس من اليسير بالنظر الى الاختلافات السابقة حول لقب الشاعر وكنيته الجزم بلقب واحد وكنية واحدة دون غيرهما ، ثم قصرهما على الشاعر ، ولكن بالنظر الى أن أغلب من ترجموا له لقبه بجمال الدين ، وأغلبهم أيضا كناه بأبى الحسن فيمكننا على ذلك أن نطمئن ونرتاح لهذا اللقب وهذه الكنية .

ولادتـــــه :

ولد ابن مقرب فى بلدة « العيون » من نواحى الاحســـاء شرق الجزيرة العربية ، وذلك سنة ٥٧٢ هـ[١١] ، الموافقـــة لسنة ١١٧٦ م ، وهو ينتسب الى أسرة العيونيين الذين حكموا منطقة البحرين [١٢] حينا من الدهر ، وتسمي دولتهم الدولة العيونية ومؤسسها هو عبد الله بن علي العيونى الذى قضى على القرامطة فى البحرين ، وأزال دولتهم نهائيا سنة ٤٦٨ هـ ، وسنتحدث عن ذلك فى حينه ان شاء الله .

نشــــأته :

من الممكن اعتبار الفترة الأولى من حياة ابن مقرب وبالتحديد منذ مولده وحتى مطلع القرن السابع الهجرى ــ وبلوغه الثلاثين من عمره

---

(٨) ابن ماكولا في الاكمال ، وابن نقطة فى المستدرك ــ مادة ضبار ، والحافظ المنذرى فى التكملة وفيات سنة ٦٢٩ .

(٩) ابن الفوطى ــ تلخيص مجمع الآداب .

(١٠) د. داود الحلبى ــ مخطوطات الموصل ص ٤١ .

(١١) ابن الشعاد الموصلى ــ قلائد الجمان ــ والحافظ المنذرى فى التكملة ــ وفيات سنة ٦٢٩ هـ .

(١٢) كانت البحرين قديما تضم جزر أوال وساحل الاحساء كله ، أما الآن فيطلق الاسم على البحرين المعروفة فقط .

صفحات مجهولة أو شبه مجهولة في بطن التاريخ ، ذلك لأن كتب التاريخ والتراجم تغفل الحديث تماما عن هذه الفترة من حياته ، ولا تعطينا أي معلومات تشفي غليل الباحث .

وحتى ديوان الشاعر نفسه لا يعطينا سوى معلومات قليلة جدا لا تلقي بالضوء الكافي على هذه الفترة المظلمة من حياته ، ويقول أحد شراح ديوانه عن هذا : (وهكذا كان حظ ابن المقرب بخسا في ذكر المؤرخين له ، كما كان حظ بلاده)[١٣] ، ولو استعرضنا ما جاء في كتب التراجم عنه من نتف قليلة لتبين لنا صدق هذا الكلام[١٤] ، وعلى أنه

---

(١٣) مقدمة الديوان — طبعة الاحساء ، ١٩٦٣ م تحقيق وشرح عبد الفتاح الحلو . ص ١٧ .

(١٤) ما جاء في كتب التراجم عن ابن مقرب :

أ — ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان ج٦/ص٢٥٩ بقوله (وبالبحرين موضع يقال له العيون ، ينسب اليه شاعر قدم الموصل وانها بها ، اسمه علي بن المقرب بن الحسن) يذكر اسمه ..

« لقيته بالموصل في سنة ٦١٧ ، وقد مدح بها بدر الدين وغيره من الأعيان ، ونفق فأرفدوه وأكرموه » ثم يذكر شيئا من شعره .

ب — وذكره ابن نقطة في كتابه « المستدرك على ابن ماكولا » فقال في مادة ع ي ن : « واما العيوني فهو علي بن المقرب بن الحسن — ثم يذكر نسبه — .. قدم علينابغداد ، شاعر محسن سمعنا منه شيئا من شعره » وذكره في مادة (ض ب ر) فقال : « واما ضبار — بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء المعجمة بواحدة وآخره راء — فهو ابو الحسن علي بن المقرب — ويذكر نسبه — ثم يقول تقدم ذكره » .

ج — وذكره ابن الشعار الموصلي في كتابه « قلائد الجمان في شعراء الزمان » فقال بعد ان ذكر نسبه : (هكذا املى علي نسبه من حفظه ، وهو موضع بالبحرين يقال له العيون ، أخبرني انه ولد به في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وتوفي به في اواخر المحرم سنة ثلاثين وستمائة ، وكان شاعرا

=

يمكن القول أن شاعرنا نشأ وترعرع بين قومه أمراء البحرين ، وغذى بلبان الشهامة والبطولة منذ نعومة أظفاره ، وشب عزيز النفس ، شديد البأس ، صلب القناة ، حاد الطبع ، وهبه الله جنابا ثابتا ، وفؤادا يقظا ، ونفسا تائقة الى معالى الأمور ، أبعدته عن مواطن الريب ، ودفعته الى طريق الأمجاد وقضى أيام شبابه وصباه فى تلك الربوع ، وكانت له أيام سعيدة فى أماكن كثيرة من بلاد البحرين مثل الثليم والجرعاء والجديد والمصلى والحصنين — ظل يتغنى بها فى كثير من مناسباته الشعرية ، ولولا أنه ذكرها فى شعره لغابت عنا كما غاب غيرها من المعلومات عن نشأته ومن حديثه عن ذلك قوله :

رعى الله (الثليم) وساكنيه
وأجراعا تكنفها الثلام

وجاد من (الجديد) الى (المصلى)
الى (الحصنين) وكاف ركام

فمسرح لذتى ومراح لهوى
هنالكم وجدتى الكرام(١٥)

مجودا منتجعا ، كثير المدح ، قليل الهجاء ، جيد القول متينه ، قوى اللفظ رصينه — وبعد أن يذكر بعض صفاته يقول : — شاهدته بمدينة السلام سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وانشدنى الكثير من قوله ، ومعظم شعره يحفظه ويردده ، ولم يتوقف فى ايراده ولا يجد بذلك سامة ولا ضجر) .

ثم يورد ابن الشعار طرفا من اشعار ابن مقرب فى المدح وينتهى . وعلى هذه الشاكلة ذكرته كتب التراجم الآتية .

د — الحافظ المنذرى — « التكملة لوفيات النقلة » — وفيات ٦٢٩ هـ .

هـ — ابن الفوطى — « تلخيص مجمع الآداب » .

و — الصفدى — « الوافى بالوفيات » . . . هذا كل ما جاء عنه .

(١٥) الديوان — طبعة الاحساء ص ٥٦٣ — والثلم : أن ينثلم حرف الوادى ، وكف المطر : انهل وانصب وركام : بعضه فوق بعض .

ويقول فى موضع آخر :

يامنزل الحى (بالجرعــــاء) لابرحت
تهمى بــك المــزن منهــلا عزاليهــــا

كــم لى بمغنــــاك من يــوم نعمت به
وليــلة تعــدل الدنيــا ومــا فيهــا[١٦]

كما قضى شطرا من أيام الشباب والصبا فى أماكن من منطقــة اليمامة ذكرها فى شعره مثل (حجر) وهى قصبة اليمامة و (اجله) وهى أرض بها فقال :

للـــه أيـــام الصـــبا اذ دارنــــا
(حجر) القرى ولنــا (باجــلة) معهد

وهذه الأيام كانت أيام صبوة وأنس ومرح :

اذ لمتــى تحــكى الغــداف وانمــا
أشــهى الشــعور الى العيــون الأسود

والخــد من مـــاء الشـــباب كأنمـا
فيــه لأحـــداق الـــكواعب مـــورد

كــم ليــــلة طالــت فقصــر طــولها
شــدو المزاهــر والغــزال الأغيـــد

وترنــم الأوتـــار فى يـــد قينـــة
غنج يدين لها (الغريض) و (معبد)[١٧]

---

(١٦) الديوان ــ ص ٦٥١ ــ الجرعاء : الرملة الطيبة المنبت ، همى المطر : سال بغزارة ، العزلاء : مصب الماء من القربة ، ويقال أنزلت السماء عزاليها ، اشارة الى شدة وقع المطر .

(١٧) الديوان طبعة ١٨ حساء ص ١٦٠ (الغداف : يطلق على غراب القيظ والشعر الاسود الزهر : العود ، الأغيد : الوسنان المائل العنق ، والغنج : الجارية ، والغريض ومعبد : مغنيان مشهوران) .

هذا ما استطعنا معرفته عن نشأته أخذا من شعره نفسه ، ولما شب عن الطوق ، تحركت فى نفسه روح الطموح الى المجد ، وظهرت عليه مخايل النباهة والنجابة ، ووشت شاعريته بمواهب عظيمة وآمال بعيدة توجب حسد الحاسدين وكيد الكائدين ، فلا عجب أن نراه بعد ذلك شاعرا مغلقا ، تورى كلماته نار الحرب ، وتهز قصائده فؤاد الجبان ، فلماذا هو مقدم على الهول ثابت عند اليأس ، ولقد أثار هذا كله التفات الناس ودهشتهم ، وخاف أمراء الأسرة العيونية على ملكهم من هذا الشاعر الفارس ، ونقم عليه الأعداء والوشاة ، وأوغروا صدر أبناء عمه واستعدوهم عليه ، فاجتاحوا أمواله ووضعوا العقبات فى طريقه ، بل وصل الأمر الى القائه فى السجن .

ونقرأ فى مقدمة احدى النسخ المخطوطة لديوان الشاعر هذا الكلام : (وما كان من مقاله فى آل أبى المنصور على بن عبد الله بن على فهو مصانعة منه واستدراج ، وكف لعادية شرورهم ، واقطاع ، ولم يكن ليمدحهم على اختيار ، ولا وقع ما وجد فيهم من شعره على ايثار ، والسبب فى ذلك أن الأمير الاجل محمد بن على بن عبد الله ، لما ملك الاحساء ، وهى البلدة التى بها وطنه وفيها مملكته وسكنه ، اجتاح جميع أملاكه من طريف وتالد ، وحاز الصامت والناطق ارضاء للعدو الحاسد ، ولم يبق له صفراء ولا بيضاء ، ولا راعى فيه حق النسب والولاء ، ثم لم ينفعه ما صنع بثرائه وسلب من نعمته وغنائه ، بل ضيق عليه فى السجن والأصفاد ، وجعل على الأبواب لحفظه الحراس والأرصاد ، وبالغ فى مكروهه وأذاه ، ولم يكن لأمر جنته يداه ، وانما وشى به حساد بيته حرصا على اطفاء فضله وصيته ، وسعى به الى آل أبى المنصور أعادى مساعيهم ، وأرادوا اخماد شرغهم بالاساءة الى مواليهم ، وأقام فى السجن مدة ، وأخرج عنه بعد جهد وشدة ، ليث فى البلاد على غاية

من انكسار القلب لما أولاه من الأذى أهل القرب ، كما قال طرفة : وظلم ذوى القربى أشد مضاضة — على المرء من وقع الحسام المهنـد . ثم خرج عن الاحساء الى ناحية العراق ، وكان بعض ما لقى منهم يوجب النأى عنهم)[١٨] بالاضافة الى وشاية الأعداء فان هناك سببا آخر جعل أبناء عمه يعادوه ويكيدوا له ، وهذا السبب هو انتقاداته الدائمة لهم ولأسلوبهم فى معالجة الأمور وتهاونهم مع الأعداء الطامعين ، ذلك أن ابن مقرب عاصر الفترة التى ضعف خلالها الحكم العيونى وتعرض للمنافسات الداخلية ، والفساد وللأطماع الخارجية ، وخاصة من جانب الأعجام الطامعين فى السيطرة على البلاد ، وقد شاهد بأم عينه مدى التناحر والانشقاق فى الأسرة العيونية وطمع كل أمير فى الاستئثار بالملك حتى تجزأت بلاد البحرين الى امارات بين أسرته ، وظل كل أمير يثب على ابن عمه أو أخيه فيغتاله أو يقتله دون مراعاة لروابط القربى[١٩] ، فبازاء هذا الوضع وقف الشاعر موقف الناصح لقومه وعشيرته يحاول أن ينبههم الى ما يحيط بهم من أخطاء مذكرا لهم بماضيهم التليد ومآثرهم الخالدة ، وأمجادهم القديمة ، لكن حديثه هذا يذهب أدراج الرياح ، ليس هذا فقط ، بل يجلب عليه نقمة أمراء أسرته فيقدمون أعداءه ويؤخرونه ، ويأخذون برأيهم فى حرمانه ونفيه ، ويشير الى هذا السبب أحد الكتاب بقوله : (وبالرغم من أن ابن المقرب ينتمى الى أسرة الأمراء العيونيين ، فانه رفض مجاراتهم ، ووقف منهم موقف الناقد الناصح المعارض ثم موقف الثائر المتمرد عندما لم ينفع نقده ونصحه ...) ثم يقول (وبسبب هذا الموقف تعرض ابن المقرب للسجن فى شبابه المبكر ، وعندما خرج من السجن كان شعلة من الثورة ضد الأوضاع الفاسدة فحاربوه وسدوا أمامه كل سبل العيش الشريف ،

---

(١٨) الديوان — نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ، ٥٢٢ ادب .

(١٩) محمد سعيد المسلم — ساحل الذهب الأسود — ط ٣ ، ص ٢٧٦ .

فاضطر الى المهاجرة من وطنه الى العراق ، حيث بقي مدة طويلة)[٢٠] ، وبعد خروج ابن مقرب من السجن وحيال التضييق عليه لم يجد أمامه مندوحة من مغادرة الوطن فرحل عن الاحساء على مضض الى القطيف ، ثم سافر الى البصرة وواسط وبغداد وديار بكر ، وأخذ يتصل بالولاة والأمراء هنا وهناك ، وأنشد فيهم الأشعار فأكرموه وأحلوه مكانا طيبا من مجالسهم ، ثم دفع به الحنين الى العودة الى وطنه الاحساء ، وأنشد القصائد في بني عمه الأمراء آملا في استجابتهم وترك الاصغاء الى الواشين ولكنهم لم يصيخوا له سمعا ، ومن شعره فيهم قوله من قصيدة يخاطب بها الأمير محمد بن ماجد ويستعطفه كي يرد عليه أملاكه المسلوبة :

أبا ماجد أنظر الى ذى قرابة
بعين رضا يغضى لها الخائن الخب

فان الوداد المحض مالا يشوبه
اختلاب وبعض القوم شيمته الخلب

الى أن يقول :

فصن حر وجهي عن سؤال فانه
على ولو عاش ابن زائدة صعب

ورد كثيرا من يسير تقت به
فراخا قد استولى على ربعها الجدب[٢١]

---

(٢٠) محمد جابر الانصاري — لمحات من الخليج العربي — طبعة أولى ، ص ٣١—٣٢ .

(٢١) الديوان — طبعة الاحساء ص ٣٣ — والخب : الخداع ، الاختلاب والخلب : الخديعة . معن بن زائدة : من اشهر اجواد العرب ، الجدب : القحط .

فوعده الأمير محمد وعدا جميلا وتكفل له بقضاء حاجته ورد ما أخذ منه ، ثم أبطا بالوفاء ، فاستنجزه وعده واستعطفه بقصيدة ثانية مطلعها :

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك(٢٢)

ولكن الأمير بتأثير الحساد والوشاة ماطله فى وعوده ولم يف له بشىء ، ثم ان الشاعر خاف على نفسه ، فخرج الى القطيف ، وهناك أخذ ينظم الشعر محاولا أن ينفى عن نفسه شجونها فقال :

الى كم مناجاة الهموم العوازب
وحتى م تأميل الظنون الكواذب

أما حان للعضب اليمانى أن يرى
بيمناك كالمخراق فى كف لاعب(٢٣)

ثم انه مدح والى القطيف الأمير فضل بن محمد عله يصل من ورائه الى شىء من أملاكه المغتصبة فمدحه بقصيدة مطلعها :

تجاف عن العتبى فما الذنب واحد
وهب لصروف الدهر ما أنت واجد

اذا خانك الأدنى الذى أنت حزبه
فلا عجبا ان أسلمتك الأباعد(٢٤)

---

(٢٢) ديوان ابن مقرب — طبعة الاحساء ، ص ٣٠٥ ، والدكدك من الرمل : الأرض التى فيها غلظ .

(٢٣) المصدر السابق — ص ٦٤ ، والعوازب : البعيدة ، العضب : السيف القاطع ، المخراق : المنديل يلف ليضرب به .

(٢٤) نفس المصدر — ص ١٤٠ .

على أنه لم يحظ منه بطائل فعاد الى الاحساء ، ثم غادرها الى الموصل من بلاد العراق ، وهكذا قضى ابن مقرب آخر عمره كالطريد الشريد محروما من أمواله وأملاكه وشاهد معاول الهدم فى كيان الدولة العيونية تعمل عملها فنصح قومه وحذرهم لكن أحدا لم يعره أدنى اهتمام .

ومن صرخاته فيهم :

ايـه بقايا عبد قيس انه
لا خير فى ماض بكف جبان

لا تسقطن من هامكم وأنوفكم
همم الرجال وغيرة الفتيان(٢٥)

وغير هذا كثير الا أن أحدا من قومه لم يستمع له ولم يأخذ تحذيراته مأخذ الجد والاهتمام .

رحلاته واتصالاته :

كان حتما على الأمير ابن مقرب صاحب الهمة والطموح وقد وقف منه قومه موقف العداء والمجافاة أن ينأى عنهم ويبتعد بنفسه لا حبا فى الغربة ولا قلى عن الأهل والأوطان بل بسبب ما ذكرنا ، ولذلك كثرت رحلاته وتنقلاته بين بلده وما جاورها من أمصار طلبا للحرية وابتعادا عن الضيم والذل :

مالى أجمجم فى صدرى بلابله
ومنكب الأرض ذو منأى ومتسع

---

(٢٥) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٦٣٦ ، ايه : كلمة استزادة ، واستنطاق .

وكـــل أرض اذا يممتهـــا وطــــن
وكل قــوم اذا صــاحبتهم شــيعى[٢٦]

ويقـــول :

أقيمـا على حـر المـدى ، أو ترحـلا
فلســت براض منـزل الهـون منـزلا

ولا تســألانى أيـن ترمـى ركائبـى
فمـا لكمـا أن تســامانى وتســألا

فقـد ســئمت نفسى المقـام وشـاقنى
ركـوب الفيـافى مجهـلا ثـم مجهـلا

وكيف مقــامى بـين أوباش قـــرية
أرى الرأس فيها من بها كان أسفلا[٢٧]

ويشرح سبب بغضه وابتعاده عن الأوطان فان الحب والبغض لابد لهما من سبب :

لا تحســبوا بغضى الأوطــان من مــلل
لابـد للـــود والبغضـــاء من سبب

قــل ، وذل ، وخــذلان وضــيم عــدى
مقــام مثــلى على هــذا من العجب[٢٨]

---

(٢٦) المصدر السابق — ص ٢٧٧ — الجمجمة : إخفـاء الشىء فى الصدر ، والبلبال : البرحاء فى الصدد ، والمنكب : ناحية كل شىء ، ويممتها : قصدتها ، شيعى : أنصارى .

(٢٧) نفس المصدر — ص ٣٦٤ — والمدى : جمع مدية وهى السكين ، والهون : الذلة والضعف .

(٢٨) الديوان — ص ٧٦ ، وقل : بكسر القاف قلة المال ، وبضمها : الفرد لا أحد له .

فليرحل لحياة العز أو لموت كريم :

سأرحل رحلة تذر المطايا
وشارفها الخدية كالاهان
فاما أن أعيش مصاد عز
لجنى عليه أو لجانى
واما أن أموت وما عليها
سوى من خافنى أو من رجانى[٢٩]

وكانت أولى رحلاته خارج البحرين الى أرض (اليمامة) قام بها وهو صغير وقضى هناك شطرا من أيام الصبا ، وأشار الى ذلك فى شعره بقوله :

لله أيام الصبا اذ دارنا
(حجر) القرى ولنا (باجله) معهد[٣٠]

وهذه الرحلة لم يتصل فيها بأحد من الأمراء أو الأعيان ، أما بعد ما كبر ، وحدث له ما حدث من جفاء وعداء مع قومه اضطر الى الرحيل فاتجه الى (بغداد) عاصمة الخلافة الاسلامية و (مكث بمدينة السلام أشهرا معدودة على طريقة من الخير مرضية محمودة ، لم تنكرها نفسه الأبية ، وهمته العلية اللوذعية ، ولا تعرض لأحد بمديح ، ولا توخى منحة من ذى وجه صبيح ، ولا دنس عرضه بسؤال ، ولا تعرض لأجل المال ، لأنه يرى أن قدره يجل عن التعريض للنوال والقيام بين يدى عراقى وغيره بنطق مقال ، ثم عاد الى هجر البحرين من تلك الناحية

---

(٢٩) المصدر السابق — ص ٦٢٦ ، الشارف من الابل : المسن ، وحذى البعير : أسرع ، والاهان : العرجون ، والمصاد : الهضبة العالية .

(٣٠) الديوان — ص ١٦٠ .

مؤملا زوال الشحناء الجارية ..)[٣١] ، عاد ابن مقرب من بغداد يحدوه الأمل الوطيد بأن الفتنة قد انتهت ، وأن أوار الأحقاد قد انطفأ وأن صفحة من الحب والصفاء قد فتحت لتحل محل صفحات البغض والخصام ، وهذا التفاؤل كان بسبب أن السلطة قد انتقلت من بنى عمه آل على بن عبد الله — وهم الذين اضطهدوه — الى بنى عمه آل فضل ابن عبد الله ، وهؤلاء كانوا معه على وفاق ومودة ، ولذلك فان شاعرنا حالما وطئت قدماه أرض الاحساء قصد أميرها محمد بن ماجد آل فضل وأنشده قصيدته البائية ومطلعها :

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركب
لنسأل ذاك الحى : ما صنع السرب ؟[٣٢]

وفيها يستعطف الأمير أن يرد اليه أملاكه ، فوعده هذا وعدا جميلا بأن يرد اليه أملاكه ولكن ابن مقرب طال انتظاره ، فأنشد قصيدة أخرى يستنجز الأمير وعده اياه :

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك[٣٣]

ورغم ذلك لم يحظ من الأمير بشىء ، بل طالت مماطلة هذا الأخير على مدى الأيام ، وكان ذلك بسبب الوشاة أيضا ، فقد أوعزوا صدر الأمير عليه وأوهموه بأن مطالب الشاعر بعيدة المرامى ، وأن مطالبته برد أمواله وأملاكه ستعقبها مطالب أخرى لا نهاية لها ، وهكذا فان الأمير محمد بن ماجد استمع لهم وانصاع لرأيهم ولم يف للشاعر بشىء ،

---

(٣١) مقدمة الديوان — طبعة الهند ، وطبعة الاحساء ص ٧ .

(٣٢) الديوان — ص ٢٦ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ ، والدكدك من الرمل : الأرض التى فيها غلظ .

ورغم ذلك فان ابن مقرب ضرب صفحا عن هجو هؤلاء الوشاة احتقارا لقدرهم واستصغارا لشأنهم ، ثم انه خاف على نفسه منهم فرحل الى القطيف ، وهناك امتدح الأمير فضل بن محمد العيونى بقصيدتين ، وأقام هناك مدة ، ولكنه أيضا لم يظفر من ورائه بطائل ، فعاد مرة أخرى الى الاحساء ، ولكنه هذه المرة لم يراجع الأمير محمد بن ماجد بشيء ثم ان أبو القاسم محمد بن مسعود العيونى قتل ابن أخيه محمد بن ماجد وصعد على أريكة الحكم مكانه ، فمدحه ابن مقرب بقصيدتين عصماوين ، كما امتدح ولده الفضل بقصيدتين من عيون شعره ، غير أن الفضل هذا فى أواخر أيامه بات مستبدا غشوما أحزق التصرفات ، فعاث فى أملاك عشيرته ، وأقطعها للأباعد والغرباء ، فعاتبه ابن المقرب على هذه السياسة الرعناء عتابا شديدا ، ثم رأى أن يبتعد عنه كلية ، فرحل الى (العراق) مرة ثانية ، وحالما وصل الى هناك جاءته الأنباء بأن الامير على بن ماجد قد ثار على قتلة أخيه ، واسترد السلطة فى الاحساء ، فعاد ابن مقرب مسرعا الى بلده ، وامتدح اميرها الجديد بقصيدة منها :

صـــدت فجـــذت حبـــل وصـــلك زينب
تيهـــا ، وأعجبهـــا الشـــباب المعجب[٣٤]

ولم يمدحه الا قطعا لألسنة الحساء حتى لا يقولوا انه لم يمتدحك مثلما مدح اخوتك والذين من قبلك[٣٥] ، وبعد أن زال عرش هذا الأمير كحال من سبقه ، وتولى بعده الأمير مقدم بن غرير العيونى لم يمتدحه الشاعر بشيء ، وذلك لسوء طباعه وخسة أخـــلاقه ، ومن ثم شد ابن مقرب رحاله قاصدا العراق وذلك للمرة الثالثة ، وتوجه صوب (الموصل) وديار بكر ، وكانت نيته أن يفد على الملك الأشرف بن العادل الأيوبى[٣٦]

---

(٣٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٨٤ ، وجذ الحبل : قطعه .
(٣٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٩ .
(٣٦) الملك الأشرف : هو موسى بن محمد العادل من ملـــوك الدولة الأيوبية ، توفى سنة ٦٣٥ هـ .

صاحب الجزيرة الفراتية ، ووصل الى الموصل سنة ٦١٨ هـ ، وبقى بها حيث سمع أن الملك الأشرف قد غادر بلاده عندما استصرخ داعى الجهاد نخوته الاسلامية ، فنهض هو واخوته وجنوده للقاء الأفرنج ونزل (دمياط) فبعدت الشقة بينه وبين الشاعر الذى كان يمنى نفسه بلقاء هذا الملك والحضور عنده لما بلغه من الولوع بذكره والحرص على أن يمتدحه بشىء من أشعاره[٣٧] ، ولما وردت عليه وهو بالموصل أنباء انتصارات الملك الأشرف على الصليبيين فى دمياط نظم قصيدة بهذه المناسبة أشاد فيها ببطولة هذا الملك وكفاحه ومما جاء فيها :

سل الكفر من أودى بدمياط ركنه
وقصر أعلى فرعه وهو باسق

يخبرك صدقا أن موسى هو الذى
بصارمه باقت عليه البوائق

وقد جاءت الأفرنج من كل وجهة
كأن تداعيها السيول الدوافق[٣٨]

وقبل ذلك اتصل فى الموصل بواليها بدر الدين لؤلؤ[٣٩] وامتدحه بقصيدة مطلعها :

حطوا الرحال فقد أودى بها الرحل
ما كلفت سيرها خيل ولا ابل[٤٠]

وقد أشار الى هذه الرحلة — الرحالة العربى (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان ، وذكر أنه لقى الشاعر بالموصل فى تلك السنة ، وسمع

---

(٣٧) الديوان — طبعة الاحساء — ص ١٠ .
(٣٨) المصدر السابق — ص ٣٠٠ .
(٣٩) هو لؤلؤ بن عبد الله الاتابكى ، امير الموصل ، كان عالى الهمة وقد طالت أيام حكمه، توفى سنة ٦٥٧ هـ .
(٤٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٣٩ .

شيئاً من شعره[٤١] ، وعندما هم ابن مقرب بمغادرة الموصل ودع بدر الدين بقصيدة من عيون شعره مطلعها :

انــزل لتــلثم ذا الصــــعيد مقبـــلا
شـــرنا واجـــلالا لمـــولى ذا الملا[٤٢]

وفى احدى سفراته الى بغداد التقى بالنقيب تاج الدين اسماعيل ابن النقيب جعفر العلوى الحســـنى وحضر مجلسه ، فخلـــع عليه ابن النقيب بخلعة ثمينة وامتدحه ابن مقرب بقصيدة :

(تخفى الصـــبابة والألحـــاظ تبديها
وتظهر الزهد بين النـــاس تمويها[٤٣])

ومن الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم شاعرنا واتصل بهم الخليفة العباسى الناصر لدين الله احمد بن المستضىء[٤٤] ، اتصل به فى بغداد سنة ٦١٣ هـ ، وخصه بجليل العبارة ورفيـــع الخطاب ، وكان ينشـــده قصائده بين الحين والآخر ، ومن مظاهر صلتهما القوية أن الشاعر فى احدى سفراته ، حمـــل خزينة من الخليفة العباسى الى الأمير فضـــل ابن محمد العيونى ليضرب على أيدى المفسدين ويؤدب الخارجين على الدولة وينتقم من قتلة أبيه . ومن أجود مدائح ابن المقرب فى الخليفة الناصر قصيدة :

أمـــارات ســـــر الحـــب مالا يـــــكتم
وأبـــين شـــــىء ما يجـــــن المتيـــــم

(٤١) معجم البلدان ـــ لياقوت الحموى ـــ جـ ٦ ـــ مادة « العيون » ص ٢٥٩ .
(٤٢) الديوان ـــ ص ٤٢٢ .
(٤٣) المصدر السابق ـــ ص ٦٤٩ .
(٤٤) الخليفة الناصر ولد سنة ٥٥٣ هـ وبويع بالخلافة ٥٧٥ ، وطالت مدة خلافته ـــ توفى سنة ٦٢٢ هـ .
(٤٥) الديوان ـــ طبعة الاحساء ـــ ص ٤٤٨ ، ابين شىء : اظهره ، ويجن : يســـتر .

وأخــرى :

أرتهــا المــآقى مــا تــكن الجــوانــح
فبــح فالمعنــى بالصــبابة بائـــح[٤٦]

وثالثة مطلعها :

الام أناجــى قــلب حــيران واجــم
وأنظــر عــودى بين لاح وعاجم ؟[٤٧]

وفى بغداد أيضا اتصل بأحد رجالات الخليفة الناصر المبرزين وهو فخر الدين أبو عبد الله المحسن بن هبة الله الدوامى ، وذلك سنة ٦١٤هـ ومدحه بقصيدة مطلعها :

دعــوه فخــيرــ الرأى أن لا يعنفـــا
فلو كان يشــفى داءه اللوم لاشتفى[٤٨]

ومن أعلام الأدب المشهورين الذين التقى بهم فى بغداد الأديب البارز (ابن الشعار الموصلى) صاحب كتاب « قلائد الجمان فى شعراء الزمان » وذلك سنة ٦٢٣ هـ ، وذكره ابن الشعار بعد ذلك فى كتابه آنف الذكر وأشاد بفضله وذكر طرفا من أشعاره .

ومر فى احدى رحلاته ببلدة (واسط) واتصـــل بعاملها الأديب عميد الدين أحمد بن جعفر المعروف بابن الدبيثى ، فمدحه أول الأمر ، ثم عاد فصب عليه جام غضبه بهجاء لاذع ، وذلك بسبب واقعة بينهما ، حيث تروى الأنباء أن ابن مقرب كان مارا ببلدة واسط ومعه بضاعة من حديد ، ففرض ابن الدبيثى عليها ـ بواسطة عماله ـ مكوسا عالية ،

---

(٤٦) المصدر السابق ـ ص ١٢٠ .
(٤٧) نفس المصدر ـ ص ٤٩٠ ، لحا العود : قشره ، وعجم العود : اختبــره .
(٤٨) نفس المصدر ، ص ٢٨٣ .

مما أغضب الشاعر ، فهو ما كان يتوقع هذه المعاملة من ابن الدبيثى خصوصا وأنه مدحه بقصائد من شعره ، وازاء هذا الصنيع هجاه ابن مقرب بقصائد مقذعة لاذعة ، يقول فى احداها :

بع (واسطا) بالنأى والهجر
ودع المرور بها الى الحشر
أرض يدبرها ابن صابئة
شابت مفارقها على الكفر

ومثله لا يستحق المدح :

ألا فمثلك لا أجود له
بالمدح فى نظم ولا نثر

ويطلب منه أن يرد عليه مدائحه فيه :

أردد على بلا مراجعة
ما خاننى فى نظمه فكرى(٤٩)

ومن أشهر أمراء عصره الذين كانت تربطه بهم صلات قوية أمير البصرة (شمس الدين باتكين)(٥٠) فكان يفد عليه كلما مر بالبصرة وقد قال فيه قصائد كثيرة منها قصيدة مطلعها :

طما بحر الهموم به فمادا
وعوضه من الغمض السهادا(٥١)

---

(٤٩) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٢٤ ، وصبأ : خرج من دين لآخر .

(٥٠) هو باتكين بن عبد الله الرومى الناصرى ، كان واليا من الشعراء العلماء توفى فى بغداد سنة ٦٤٠ هـ .

(٥١) الديوان : ص ١٨٢ .

وأخرى مطلعها :

كـــره اللـــه مـــا أحـــب الأعـــادى
وأبى مـــا أراد أهـــل العنـــاد[٥٢]

وقال يودعه حين أراد الخروج من البصرة :

أبــا شــجاع رعــاك اللـــه من مـــلك
ســما فمـــا مثـــله فى الناس من أحـــد
أمـــا الفـــراق فتأتينـــا رواحـــله
غـــدا ويحـــدجن للترحـــال بعـــد غـــد
واللـــه يعـــلم أنى لا أســـربه
لكن أخـــاف شـــقاء الأهـــل والولد[٥٣]

وعدا هؤلاء الأمراء والأعيان والملوك الذين التقى بهم الشاعر فقد كان على صلةوثيقة بعلماء واسط بغداد كالفقيه العالم الشافعى محب الدين الواسطى[٥٤] ، ومدحه ابن مقرب بشعر له ، وكالأديب البغدادى ابن نقطة صاحب كتابى (التقييد) و (المستدرك على الاكمال) وقد ذكر هذا الأديب شاعرنا فى كتابه الأخير مثنيا عليه ، والتقى أيضا بالعالم الحنبلى عبد الله بن الحسين العكبرى[٥٤] لواء أهل العربية والأدب والفرائض ببغداد ، وقد حكم لابن مقرب بالتفوق فى الشعر .

والخلاصة التى نخرج بها من كل هذا هى أنه وان كانت الظروف القهرية قد دفعت بابن مقرب الى النأى والهجران الى خارج وطنه الا

---

(٥٢) المصدر السابق — ص ١٩١ .

(٥٣) الديوان — ص ١٥٩ ، وحدج الراحلة : شد عليها الحدج وهو شىء كالمحفة لحمل النساء .

(٥٤) من اهل واسط ، وكان خيرا دينا ، وله معرفة تامة بمذهب الشافعى والفراض والحساب ، توفى سنة ٦١٩ هـ .

(٥٥) من ائمة اللغة واشتغل بالأدب والفرائض والحساب ، وهو شارح ديوان المتنبى — توفى فى بغداد سنة ٦١٦ هـ .

أن هذا التقلب فى البلاد المختلفة أفاده جدا ودفع به الى مجالس العلم ومحافل الأدب مما عاد على شاعريته بأنفع الأثر وأقواه ، وأكسبه هذا التنقل أيضا خبرة ومشاهدات انعكست بدورها على شعره بشكل كبير .
ومن الناحية التاريخية فان شعره هذا يتيـــح لنا الوقوف على مـــدى الروابط بين قطرى البحرين والعراق فى ذلك الزمن الذى انقطعت فيه الصلات أو كادت بين أجزاء العالم الاسلامى .

ثقافتـــــــه :

بقيت مصادر الثقافة الأساســية فى القرن السادس والســـابع الهجريين هى هى لم تتغير عما قبل ، وأهمها القرآن الكريم والحديث وعلوم السيرة النبوية واللغة العربية وآدابها وتاريخ العرب وأيامهم ، والشاعر ابن مقرب استقى من جميــع هذه المنابع الشىء الكثير ، هذا الحكم نقرره بعد القاء نظرة بسيطة سريعة على شعره الذى بين أيدينا الذى نشك أنه يمثل كل شعره .

وعلى الرغـــم من أن ابن مقرب لا يذكر لنا فى شعره شيئا عن أساتذته أو من تتلمذ عليهم ان كان ذلك الا أننا نستطيع الاستنتاج بأنه تتلمذ على يد أساتذة ومربين وذلك من عدة أمور :

أولاهـــــا :

معرفتنا أنه أمير من أسرة مالكة ، وجرت العادة أن الملوك والأمراء كانوا يأتون بالأساتذة والمربين المشاهير فى عصرهم لتأديب أولادهم .

وثانيـــــــا :

أمر واضح فى شعره وهو سعة اطلاعه على تاريخ بلاد البحرين وتاريخ أسرته ومواقف رجالاتها كما يتبدى بكثرة فى مدائحه لهم . وهذه النقطة بالذات تدفع الباحث الى الجزم بأنه أخذ هذا التاريخ عن الملمين بهذه الناحية حتى ولو كان والده على الأقل .

على أن أبرز معالم الثقافة عند ابن مقرب تضلعه فى علوم العربية وآدابها ويتبدى ذلك فى مراعاة قواعد العربية بكل دقة وأيضا فانه أشار فى شعره الى أن أحد ألوية العربية وأئمة اللغة والأدب فى زمانه قد شهد له بالتفوق والسبق على من تقدمه وهذا الامـام هو الشيخ العـلامة أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى البغدادى الحنبلى، وما كان هذا العلامة ليشهد للشاعر بذلك لو لم يكن الأخير مبرزا فيها ، ويقول ابن مقرب فى ذلك :

لقـــد تقدمـت ســبقا من تقــدمنى
ســـنا وأدرك شـــأوى فارط الأول

بذاك قـــدوة أهـل العـلم قاطبــة
أبو البقـاء محب الدين يشــهد لى(٥٦)

والمجال الثقافى الآخر الذى برز فيه شاعرنا هو التاريخ وأيـام العرب الماضية ، سواء ما كان يختص بتاريخ بلاده وأسرته أو التاريخ العربى والاسلامى عموما فهو يذكر فى قصـائده الشىء الكثير من هذه المعلومات التاريخية مما يشهد بتبريزه فى هذا المجال(٥٧) . ولا شك أن المامه بالتاريخ أفاده فى ترصيع مدائحه لأمـراء أسرته وغيرهم بذكر مواقفهم السالفة والاشادة بها .

وكذلك له بعض الاقتباسات من القرآن الكريم تشهد بأنه استقى من هذا النبع العظيم كمصدر للثقافة من ذلك قوله :

ولا تهنـوا واستشعروا الصـبر جنــة
وعزمـا فمـا للحرب الا اعترامهـا

---

(٥٦) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٨٢ ، الشأو : المـدى والغاية ، فارط الأول : بعيدة .

(٥٧) راجع الديوان ص ٢١٩ ، ص ٣٥٠ ، ص ٥٢٦ .

فانـــكم ان تألمـــوا فعـــدوكم
كذاك وللأمــر العظيــم عظامهــا[٥٨]

وقولـــــه :

العـــابد المجيى قيـــاما ليـــله
اذ ناشــئات الليــل أقوم قيلا[٥٩]

وكما قلنا فان كثرة رحلات الشـــاعر وتقلباته فى مجالس الأدب والعلم كان مصدرا آخر من مصادر اكتسابه العلم والخبرة ، والاحتكاك بالناس زوده بالتجارب التى انعكس أثرها على شعرب فصقلته وزادته قوة على قوة . وهكذا فان ابن مقرب أخذ من ثقافة عصره وزمانه أوفاها وأعظمها ، وبرز فى نواحيها المختلفة بشهادة علماء عصره وأهل زمانه ، وبشهادة شعره الذى بين أيدينا ، والذى يعطينا الدليل تلو الدليل على طول باع صاحبه فى مجال الثقافة والأدب كلاهما .

شخصيته وخلقـــه :

ان من يقرأ شعر ابن مقرب يتبادر الى ذهنه لأول وهلة أن وراء هذا الشعر شخصية متميزة تأسر القارىء وتفرض نفسها عليه ، وللحق فان شعره يمثل نفسيته أوضح تمثيل ، ويعبر عن حقيقته أصدق تعبير ، ان هذا الشـــعر يمثل صاحبه من ناحيـــة العزة والقوة وسمو القـــدر وصدق الرجولة وبعد الهمة ، كيف لا وهو القائل :

لا صـــاحبتنى نفـــس لا تبلغنـــى
مراتب العـــز لـــو فى ناظـــر الســـبع
سيصحب الدهـــر منى ماجـــد نجـــد
لـــو داس عرنين أنف الموت لم يـــرع

---

(٥٨) الديوان ـــ ص ٤٦٣ ، ولا تهنوا : لا تضعفوا ، وجنة : وقاية .
(٥٩) المصدر السابق ص ٤٠٨ .

وبين جنبيه عزم وهمم لا يسعها هذا الدهر :

وبـــين جنبـــى عـــزم يقتضى همـمــــا
لو ضمها صدر هذا الدهر لم يسع(٦٠)

وعنده صبر الكهول والقدرة على تحمل نوائب الدهر :

كـــم عايـــن الدهـــر منى صـــبر مكتهل
اذ ليس يوجـــد صـــبر العود فى الجذع
وكم ســـــــقانى من كأس على ظمـــأ
أمر فى الطعم من صـــاب ومن ســـلع

ومن شيمه الوفاء للأخلاء والصفح عن المسيئين :

ســـل الأخـــلاء عنى هـــل صـــحبتهم
يوما من الدهـــر الا والوفـــاء معـــى
ألقى مسيئهم بالبشـــــر مبتســـــما
حتى كأن لم يخن عهـــدا ولم يضـــع

وكل ذنبه عندهم أنه يتورع عما يفعلون من سيئات الأمور :

لقـــد تفـــكرت فى شـــأنى وشـــأنهم
فبـــان لى أن ذنبى عنـــدهم ورعـــى(٦١)

ومن صفاته البارزة نفوره من الظلم وأنفته من الذل والاستكانة للضـــيم :

وللمـــوت أحيـــا من حيـــاة ببلـــدة
يرى الحـــر فيهـــا الغبن من لا يشـــاكله

---

(٦٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٧٣ — ناظر السبع : عينه النجد : الشجاع ، عرنين الأنف : ما صلب من عظمه ، لم يرع : لم يخف .

(٦١) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٢٧٤ ، والمكتهل : المتناهى والعود : المسن من الابل ، والجذع صغيرها ، الصاب : شجر مر ، والسلع : نوع من الصـــبر .

وما غربة عن دار ذل بغربة
لو أن الفتى أكدي وغثث مآكله[٦٣]

وهو تقى حليم يؤدى الفروض والنوافل :

ألست أوفاكم عهدا وأحلمكم
عقدا ، وأقومكم بالفرض والنفل[٦٣]

مما تقدم يتضح لنا بعض جوانب شخصية ابن مقرب فلقد كان عزيزا فى نفسه ، عاليا فى همته ، طموحا الى المجد ، تواقا الى المعالى ، أنوفا عن الذل ، صبورا على حوادث الدهر مع كثرة ما ابتلاه به دهره فهو كما قال :

منيت من الزمان بعنقفيز
قليل عندها حز الشفار
فراق أحبة ، وذهاب مال
وضيم أقارب ، وأذاة جار
فلا والله لا وجد كوجدى
ولا عرف اصطبار كاصطبارى[٦٤]

وهو يرى أن المعالى تناديه وتطالبه بالنهوض ، فاذا أراد ذلك قعدت به أسباب خارجة عن ارادته ، منها قلة المال وكثرة الأعداء ، وعدم مناصرة أبناء العم :

كم تقاضانى المعالى عزمة
يهتف الشادى بها فى كل ناد

(٦٢) المصدر السابق — ص ٣٣٠ ، الغبن : الظلم ، لا يشاكله : لا يشابهه .
(٦٣) نفس المصدر — ص ٣٨١ .
(٦٤) الديوان — ص ٢١٥ — والعنقفيز : الداهية .

فاذا رمت نهوضــــا قعـــــدت
بى أمـور أنا منهـا فى جهـــاد
قـــلة المـــال وكثــر فى العـــدى
وابن عـم رأيـه غير الســداد(٦٥)

ولكنه يقسم بالله الذى أجرى الماء رزقا للعباد أنه لن يخضع للذل والاستكانة فهو ذو قلب شجاع فينبغى على العدو ألا ينخدع بهدوئه الظاهر :

أحـــذار المـــوت أبقـــى هـــكذا
لا ومجـرى المـــاء رزقـــا للعبـاد
ان ترى شــــخصى لأمـــر ســاكنا
فلعمــــرى ان قلبـــى فى طـــراد
رب ذى هـــم تـــراه مطـــرقا
وهـــو فى اطراقـــه حيـــة واد

ويقول معبرا عن شجاعته ومضاء صارمه :

ما اعتـــذارى والوغـــى تعرفنـــى
والعـــوالى والمواضـــى والهــــوادى
قـــد تســـاوى فى مضـــاء صـــارمى
وســـنانى ولســـانى وفـــؤادى
فـــارم بى ما شـــئت واعـــلم أننى
ليث غـــاب ، وشـــهاب ذو انتقـــاد(٦٦)

ان ابن مقرب كثير الحديث عن نفسه ، شديد الاعجاب بمواهبه وبنسبه وبشجاعته ، كما أنه مؤمنا أشد الايمان بعدالة قضيته ، وبالرغم من أن قومه ناصبوه العداء وأبعدوه وتحدوا مشـــاعره وضـــايقوه فى

---

(٦٥) المصدر السابق — ص ١٧٨ .
(٦٦) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ١٨١ .

معيشته ، الا أنه ما نسى صلة القرابة وحق العشيرة ، وكان لهم اللسان الذرب المعبر عن أمجادهم ، المنافح عن حوزتهم بشعره وبيانه فكان لهم بمثابة الناطق الرسمى أو الصحافة اليومية الحزبية ، حتى أن أطـول قصيدة فى ديوانه وعدد أبياتها (١٥٠) بيتا ، قالها كلها فى غرض واحد هو الافتخار بآبائه وأهل بيته ومطلعها :

قم فاشـــدد العيــس للترحـــال معتزما
وارم الفجاج بها فالخطـــب قد فقما(٦٧)

وكان فى غربته حفيا بأبنائهم ومسائلا عن أحوالهم ، وكان يبخل بمودتهم عن قطع الرحم ، معتدا بالواحد منهم ، يحسبه سيفه البتار فى مواجهة الحياة والناس :

وانـــى حفـــى عنهـــم ومســـــائل
بهم حيث يثوى الســفر أو ينزل الركب
وانـــى بقـــومى للضـــــنين واننـــى
على بعـــد دارى والتنـــائى بهم حـــدب
ولى فيهمـــو ســـيف اذا مـــا انتضـــيته
على الدهر أضحى وهو من خيفة كلب(٦٨)

فاذا عرفنا هذا الوفاء من ابن مقرب لعشيرته مع ما لاقاه منهم من جحود وجفاء ، أدركنا نبل أخلاقه ، ومدى التصاقه بصفات أسلافه النجباء الذين اعتزوا بآبائهم وأهلهم بالرغم من كل شىء .

ومن صفات ابن مقرب وأخلاقه عطفه على الضعفاء واحسانه الى المحتاجين على الرغم مما علمت عن ظروفه وقسوة الحياة عليه :

---

(٦٧) المصدر السابق ــ ص ٥٢٦ ، فقم الخطب : عظم .

(٦٨) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٣١ ، السفر : الجماعة المسافرون ، ويثوى السفر : يقيم ، اضحى من خيفة كلب : اى انى اذا استعنت بأقاربى على الدهر فانه سيخافنى .

فــلا رعى اللــه أرضــا لا أكون بهــا
سـما لمسـتنكف غيثـا لمنتجـع(٦٩)

والمنتجع هو طالب الكلأ أو المعروف ، أى أن الشاعر يدعو اللــه على أرض لا يكون — اذا حل بها — غوثا وعونا لطالب العون وذو الفاقة المحتاج ، ومن ذلك أيضا قوله وهو يتحدث عن قبيلته :

ولسـت بهجـلم على مـا يسـوءها
ولا ناطـق بالعيب منى لهـا فـم
ولا قابضـى فضـل الغنـى عن فقيرها
ولا باسـط كفالهـا حـين أعـدم
وانـى لأقصـاها اذا ثـاب مغنـم
وانـى لأدناهـا اذا نـاب مغـرم(٧٠)

ويقول ابن مقرب انه لا يتحدث عن أهله بسوء ، ولا ينطق لسانه عنهم بعيب ، واذا أسعفه الدهر بغنى وسعة فى المال فهو لا يمسك بفضل هذا المال عن فقير من أهله ، واذا حدث وأصابته فاقة وعدم فلا يمد يده بالسؤال وطلب النوال لأحد منهم ، ثم ان البيت الثالث يذكرنا فى معناه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم مادحا الأنصار رضوان الله عليهم: « انكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » .

ولو أردنا الاستطراد وراء الشواهد الكثيرة من شعره لكى ندل على صفاته وأخلاقه فلن ننتهى الى حد لكثرة ذلك فى ديوانه ، ولكن نختم هذه الفقرات بقول أحد شراح ديوانه القدماء عن مناقبه وخلاله :

(وقـد أعطى الله الأمير الأجـل جمال الدين أبا عبد الله على ابن مقرب ... — من هذه الحلة أفضل الانصبا وخصه بخصائص لم ينلها

(٦٩) المصدر السابق — ص ٢٧٤ .
(٧٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٤٩ ، اعدم : افتقر ، اقصاها: ابعدها ، ثاب مغنم : عاد واجتمع .

أحدا من الأدباء ، حتى صار فريد دهره ، ومقدما فى هذا الشأن على كثير من سابقى عصره ، وشهد له بالسبق كل ناقد أريب ، وملكه زمام الفضل كل فاضل أديب ، مع ما يناسبه الى هذه الرتبة الجليلة من شرف البيت ، وجميل الأحدوثة والصيت ، وكرم النفس المتوافر ، ونزاهتها ومجدها المتكاثر ، والتمسك بالدين والعفاف ، وحسن الخلق والانصاف ، فلم يقصر عن الكمال بقوت فضيلة ، ولا دنس عرضه بارتكاب رذيلة ، بل كمل فضلا وخلقا ، وأخذ من كل نفيس حظا وحقا)(٧١) .

فابن مقرب حقا كما قال عن نفسه :

هـل جـاء قومى وأخدانى الذين هـم
ان ارم من قبـل الرامين لا قبـلى
بأننـى لم أرد وردا أعـاب بـه
ولم أقف ذات يـوم موقف الخجل ؟(٧٢)

هذه هى أخلاق ابن مقرب وصفاته .

معتقـده :

ابن مقرب مسلم سنى المعتقد ، ولا مجـال لمن يرى من مؤرخى الشيعة أنه شيعى المعتقد لمجرد أن ديوانه احتوى على قصيدة قالهـا فى آل البيت ، وهى قصـيدة تزخر بشتيت من صور التشـيع ، وفيها استرسال فى رثاء الحسـين بن على رضى الله عنهما ووصف لمقتله فى موقعة كربلاء ، وفيض من اللعنات على قاتليه ، وكثير من الندب واللهفات والأحزان والحسرات عليه ومطلعها :

يـا باكيـا لدمنـة وأربـع
ابـك علـى آل النبـى أودع(٧٣)

(٧١) المصدر السابق — ص ٤ .
(٧٢) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٧٤ .
(٧٣) المصدر السابق — ص ٢٥٩ .

اذ أغلب الظن أن هذه القصيدة مقحمة على الديوان ، لأن روح القصيدة يخالف الطابع الفكرى لابن مقرب كما هو فى باقى شعره ، وأيضا لأن ابن مقرب وأسرته وأبناء عمه العيدينيين ساروا فى معتقدهم وفى أحكامهم وتطبيقهم لحدود الشريعة وفق مذهب أهل السنة ، وكانت لهم مواقف خالدة فى احياء ما اندرس من السنة ، يقول أحد شراح ديوانه حول القصيدة آنفة الذكر شاكا فى نسبتها اليه : (وهى قصيدة أكبر الظن أنها مقحمة على الديوان منسوبة الى الشاعر ، والا لسرى هذا اللون الى قصائده كلها ، أو الى كثرتها ، ويؤيد هذا الظن ما نجده فى نهاية القصيدة من نسبتها الى الشاعر بطريقة تقوى الشك فيها ...)[٧٤] ، والذى أشار اليه من طريقة نسبة القصيدة الى الشاعر ما قاله الناظم فى آخرها :

اليكم بنفثة مصدور أتت
من مقحم الشعر الى مصقع
مقربى ، عربى طبعه
ونجره ، وليس بالمدرع[٧٥]

فنسبتها اليه بهذه الطريقة هو سبب آخر للشك فيها .

وعدا هذا فان هناك أسبابا أخرى تجعلنا نجزم بأن هذه القصيدة ليست من نظم ابن مقرب بل هى ملصقة بديوانه مقحمة عليه ومنها :

(أ) أن القصيدة انفردت بها نسخة خطية واحدة دون سائر نسخ الديوان المخطوطة الأخرى على كثرتها .

(ب) ليس فى شعر ابن مقرب على سعته وكثرته أى صورة من صور التشيع ، وهذا من شأنه زيادة الشك فى نسبة القصيدة اليه ،

(٧٤) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ١٢ .
(٧٥) المصدر السابق — ص ٢٦٦ .

اذ لو كانت القصيدة من شعره حقيقة لرأينا فى قصائده الأخرى شيئا من سمات هذا اللون الذى اتصفت به القصيدة •

على أن من نسبوا اليه التشيع استدلوا على ذلك بأدلة أخرى فى زعمهم ، منها رحلاته المتتابعة الى العراق ، وهناك كما هو معلوم مشاهد الشيعة المقدسة ، ومنها أيضا أنه مدح آل البيت رضوان الله عليهم فى شعره ، وهى حجج واهية فى أغلبها ، ذلك أنه كما علمنا لما وقعت الجفوة بين ابن مقرب وبين قومه للأسباب التى ذكرناها ، لم يجد غير بـــلاد العراق ملجأ وملاذا لأنها أقرب البلدان الى وطنه ، ولأن فى العراق من الولاة والأمــراء من يلتجىء الى حمــاهم ويلوذ بكنفهم ، ولأن بغداد لا تزال العاصمة — ولو رمزا — للعالم الاسلامى ، ولا يزال بنو العباس فيها يتوارثون منصب الخلافة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان التاريخ لم يثبت لنا اطلاقا أن ابن مقرب قد عرج على الأماكن المقدسة عند الشيعة ، اذ لو حدث ذلك لظهر أثره فى شعره بكل تأكيد • أما مدحه لآل البيت فان حبهم ليس وقفا على الشيعة دون أهل السنة ، فان أهل السنة يجلون أهل البيت ويكنون صادق الحب لهم واذا كانت السياسات والحكام فى بعض فترات التاريخ قد عملوا على أن يكبت الناس حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدورهم خوف الاضطهاد فان هذا لا يعنى أن هذه العاطفة مقصورة على طائفة الشيعة وحدهم ، وزيادة على ذلك فان صلة ابن مقرب بعلماء السنة ومدائحه الكثيرة لهم تنفى عنه أيضا تهمة التشيع ، وكذلك مدائحه للأمير باتكين لأنه أحيا سنن الامام مالك وأبى حنيفة والشافعى • كل هذا ينفى الشـك فى معتقد الشاعر ويؤكد ما قلناه عنه فى هذا الموضوع وما ذهبنا اليه •

ومن وصفه لمعاهد العلم التى أنشـأها الأمير باتكين فى البصرة قولـــــه :

أحيى بهـــا للشـــافعى ومالـــك

وأبى حنيفـــة أحرفـــا وفصـــولا

وبجـامـع بـذ الجـوامـع كلهـا
حسـنا وعرضـا فى البناء وطولا[٧٦]

وكذلك مدح علماء السنة ومنهم الشيخ محب الدين الواسطى وكان عالما خيرا دنيا ، وله معرفة تامة بمذهب الامام الشافعى أصولا وفروعا، فقال يودعه عند خروجه الى الحج :

ألقـت اليـك مقـادها الأيـام
وأمـدك الاجـلال والاعظـام
ومشى اليـك الدهـر مشـية خاضـع
وقضـى بمـا تختـاره العـلام
وبقيـت مـا بقـى الزمـان مخـلدا
فى حيث تقعـد والأنـام قيـام

ومدحه بأنه أحيا بزهده ذكرى بعض الأولياء الصالحين من أمثال بشر والجنيد وعامر وكلهم كانوا على طريقة أهل السنة والحديث فقال :

بـك يا محـب الدين طـالت فاعتـلت
شـرفا على الخطيـة الأقـلام
أحييـت بشـرا والجنيـد وعامـرا
زهـدا وكـل اذ يعـد امـام

وبأنه عمل على اظهار واشهار المذهب الشـافعى بما أقام له من حجـج :

وأقمـت للقرشـى فى آرائـه
حججـا يقصـد دونهـا النظـام[٧٧]

---

(٧٦) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٤١٠ ، وبذ : فاق .
(٧٧) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٥٦٩ — والقرشى هو الامام الشافعى رضى الله عنه .

وهذا عن الشيخ الواسطى أما الشيخ العالم الحنبلى أبو البقاء محب الدين العكبرى صاحب كتاب (التلخيص فى الفرائض) فقد مدحه ابن مقرب بقوله :

هـو الامـام الـذى كـل لـه تبـع
من كل حـاف على الدنيـا ومنتعـل[٧٨]

وبعد فأرجو أن أكون فيما سقته من أدلة عن معتقد ابن مقـرب مـا يكفى للرد على مزاعم من يقول انه من الشيعة لمجرد أنه مـدح آل البيت رضوان الله عليهم ، إذ أن حب آل البيت — كما قلت — ليس مقصورا على طائفة الشيعة ، وان كانت مجريات الحوادث التاريخية قد ألصقت هذه الصفة بهم ، فصـاروا يعرفون ويشتهرون بهـا أكثر من غيرهم ولكن الحقيقة غير ذلك .

وفـــاته :

اختلف أصحاب التراجم حول سنة وفاة الشاعر ومكانها ، فمن قائل انه توفى سنة ٦٣٠ هـ[٧٩] ، وغيره يؤرخ وفاته سنة ٦٣١ هـ[٨٠] ، وحددها ابن الفوطى فى كتابه (تلخيص مجمع الآداب) بالمحـرم من سنة ٦٣١ هـ ، وترجم له الحافظ المنذرى فى كتاب « التكملة » فى وفيات سنة ٦٢٩ هـ .

وأما عن مكان وفاته ، فقال ابن الفوطى فى كتابه الآنف الذكر انها فى البحرين ، وغيره يقول انه توفى فى بغداد[٨١] . على أن شيئا من ذلك غير صحيح لأن ابن مقرب توفى فى قرية من بلاد عمان تسمى (طيوى) مر بها فى أخريات أيامه ولما نزلها سماها (طيبى)[٨٢] ، نص على ذلك

---

(٧٨) المصدر السابق ، ص ٣٨٣ .
(٧٩) ابن الشعار — الموصلى — قلائد الجمان فى شعراء الزمان .
(٨٠) الصفدى — الوافى بالوفيات .
(٨١) خير الدين الزركلى — الاعلام ، ج ٥ .
(٨٢) عمران العمران — ابن مقرب — دراسة ، ص ٢٣ .

أحد المؤلفين من القرن العاشر الهجرى فى احدى المخطوطات التاريخية « وذكر انه مر بتلك القرية وهو فى طريقه الى الهند »(٨٣) •

ومهما يكن من اختلاف حول سنة وفاة الشاعر ، فانه توفى بعد عمر لا يقل عن سبعة وخمسين عاما ، قضاها — أو أكثرها — فى صراع مرير مع دهره ورجالاته ، واذا كان هذا الصراع قد أرهق صاحبه — وهذا لا شك فيه — فانه من ناحية أخرى عاد على الأدب العربى بثروة شعرية كبيرة ، وانتاج بيانى ضخم •

نبذة تاريخية عن وطن الشاعر وأسرته :

البحرين هى وطن الشاعر ابن مقرب العيونى ، فيها مولده ونشأته ، وهى وطن آبائه وأجداده ، فقد سكنتها فى الجاهلية قبائل عبد القيس العدنانية التى تنتسب اليها أسرة الشاعر(٨٤) ، وكان لهم فى معظم الأحيان السيادة والملك ، واذا كان بعض المؤرخين ينسب ابن مقرب الى غير البحرين فهذا خطأ(٨٥) • فابن مقرب احسائى من البحرين من قرية العيون ، وهى فى الطرف الشمالى للاحساء ، وسنحاول فيما يلى أن نلم ببعض تاريخ البحرين حتى نلقى الأضواء على حياة الشاعر من جميع جوانبها •

البحرين فى الاصطلاح التاريخى — يطلق على البلاد الواقعة على الساحل الغربى للخليج العربى ، من البصرة شمالا حتى عمان جنوبا ، وكانت عاصمة البحرين قديما (هجر) أو الاحساء،ثم تلاشى اسم البحرين عن هذه المناطق الواسعة تدريجيا مع الزمن ، وأصبح اطلاقه مقصورا على مجموعة من الجزر الصغيرة أكبرها جزيرة (أوال) ولا زالت تعرف بهذه التسمية حتى يومنا الحاضر •

---

(٨٣) مخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ — دار الكتب المصرية ، ص٣٥٨ •
(٨٤) محمود بهجت سنان — البحرين درة الخليج — ص ١٣ •
(٨٥) جاء فى النسخة المخطوطة الموجودة بمكتبة محافظة الاسكندرية (هذا ديوان الامام ابن المقرب الحماسى اليمنى البغدادى رحمه الله تعالى)•

وقد تحدث عنها جغرافيو العرب القدماء فى كتبهم • فقال عنها « ياقوت الحموى » فى معجم البلدان (البحرين اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر ، الواقع بين جزيرة العرب وبلاد فارس ، تمتد من البصرة شمالا الى عمان جنوبا ، ومن الدهناء غربا الى البحر شرقا[٨٦] وقال « الأزهرى » عن سبب تسميتها بهذا الاسم :

(وانما سموا البحرين لأن فى ناحية قراها بحيرة على باب الاحساء وقرى هجر ، بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ)[٨٧] وقال عنها الادريس فى كتاب « نزهة المشتاق » : (وسميت الجهة بالبحرين ، بجزيرة أوال ، وذلك أن جزيرة أوال بينها وبين فارس مجرى ، وبينها الى بر العرب مجرى ، هى ستة أميال طولا ، وعرضا كذلك)[٨٨] •

والبحرين غنية عن التعريف فهى بلاد عريقة فى الحضارة ، حتى قال أحد المؤرخين بأن الخليج العربى هو مهد الحضارة الانسانية بل مهد الجنس البشرى نفسه ، وأن سكان جزره وساحله الغربى هم أول من رفع شراعا فى البحر ، واقتحموا لججه وأخطاره ، فكانت بلادهم بمثابة حلقة اتصال بين الشرق والغرب وقال بعض المؤرخين أن الفينيقيين هم من هذه الربوع ، وأنهم سكنوها قبل نزوحهم الى سواحل لبنان على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وقد نقلوا معهم مبادىء الأبجدية وجوانب خالدة من الحضارة[٨٩] ، والحق أن بالبحرين اليوم من الأدلة المادية الملموسة ما يثبت « فينيقية الخليج » والفينيقيون عرب فى أصح الروايات ، ولأغراض تجارية حاول كثير من ملوك آشور

---

(٨٦) ياقوت الحموى — معجم البلدان ، وانظر تاريخ الاحساء ، لمحمد عبد الله الانصارى ص ٣ .
(٨٧) الأزهرى — تهذيب اللغة — ٥ — ٤٠ .
(٨٨) العرب — مجلة شهرية تصدر عن دار اليمامة بالرياض — عدد مايو — يونيو ١٩٧٩ — ص ٩٨ .
(٨٩) البحرين درة الخليج — بهجت سنان ، وانظر دراسة عمران العمران عن ابن مقرب ، ص ٣٨ .

وبابل واليونان اخضاعهم لنفوذهم ، ومن هؤلاء الاسكندر المقدونى الذى جهز أسطولا هائلا طمعا فى الاستيلاء عليها ، ولكنه مات قبل أن يحقق مشروعه ، ومنذ قديم الأزل التقى على أرض البحرين الهندى والافريقى والكلدانى والفارسى والبابلى والآرامى والفرعونى والاغريقى وأجناس غيرهم مما يدل على مجدها التجارى والحضارى .

وكانت الســيادة فى العصر الجاهــلى فى البحرين للعرب ، وزعم بعض مؤرخى الشعوبيين أن الفرس قد استعمروها بعض الوقت قبيل الاسلام وفى السنوات الأولى للبعثة ، ولكنهم اعترفوا بأن ولاتها كانوا من العرب .

وبعد ظهور الاسلام ، أرسل عرب البحرين وفدا برئاسة الأشج من عبد القيس ليفاوض رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى اقنعهم بدخول الاسلام ، فعادوا الى البحرين وأسلم كثير من أهلها[٩٠] ، ثم قدم عليهم العلاء الحضرمى معلما ومرشدا ، ولما بلغ أهل البحرين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتداد العرب ، ارتدت طائفة منهم بضاحية البحرين ، فجهز لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيشــا بقيادة العلاء بن الحضرمى[٩١] ولكنه لم يتمكن من اخضاعهم ، فجاءه المدد من اليمامة على يد خالد بن الوليد رضى الله عنه ، بعد أن قمع بنى حنيفة ، ففر المرتدون الى جزيرة دارين وتحصنوا بها ، وهناك أطبق عليهم العلاء بجيوشــه ، فأخضعهم وردهــم الى الاســلام . وظلت البحرين اسلامية تحت حكم الخلفاء الراشدين ثم الأمويين حتى عهد عبد الملك بن مروان ، حتى ثار أحد الخوارج بجزيرة أوال ، ولكن جيوش عبد الملك تمكنت من اخماد الثورة فى المهد ، وفى سنة ٨٦ هـ ، تمكن مسعود بن أبى زينب العبدى من غلبة العامل الأموى ، والاستيلاء على البحرين

(٩٠) تاريخ الاحساء — للشيخ عبد الله الانصارى — ص ٦٠ .

(٩١) انظر تاريخ الطبرى — جـ٢ — ص ٥٢١ .

لمدة تسعة عشر عاما ثم استعادها الأمويون ، وأنجبت البحرين أثناء العصر الجاهلي عددا من فطاحلة العقل والشعر أمثال سعيد بن مالك والمرقشان والمتلمس وطرفه بن العبد ، وفي أثناء العصر الاسلامي والأموي عددا من رجال الفكر والشعر أشهرهم قطرى بن الفجاءة ، والصلتان العبدي وعيسى بن فاتك الخطي ، ثم دخلت البحرين في حوزة بني العباس حتى سنة ٢٤٩،حيث استولى عليها صاحب الزنج الذي ادعى النبوة لنفسه ، وبعد حروب دامية قتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ هـ ، فعادت البلاد الى الخلافة العباسية مرة أخرى .

وخلال هذه الفترة ازدهرت الحياة العلمية والأدبية في البحرين ، وبرز علماء أفذاذ في الفقه واللغة والفلسفة كالشيخ كمال الدين ميثم[٩٢] وغيره ، كما برز آخرون في نقد الشعر وتاريخ الأدب مثل موفق الدين الأربلي ، وكان للشعر في هذا العصر دولة سامقة الفروع ساعد على ازدهارها شعراء مجيدون أمثال ، معاذ الأزرق ، وأحمد بن منصور القطيفي وغيرهما .

ظهور القرامطة ودور العيونيين في القضاء عليهم :

أشرنا فيما سبق الى أن أسرة الشاعر وأجداده العيونيون هم الذين قضوا على القرامطة بقيادة جده الأعلى عبد الله بن على العيوني[٩٣] وعن ذلك قال ابن مقرب مفتخرا :

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقا ، وغادرهم بعد العلا خدما

من بعد أن جل بالبحرين شأنهم
وأرجفوا الشام بالغارات والحرما

---

(٩٢) محمد جابر الانصارى — لمحات من الخليج العربى — ص ١٣٨ .

(٩٣) الديوان ص ٥٣١ — ٥٣٧ .

وبعد أن وصف معارك جده مع القرامطة قال :

فسلم الأمر أهل الأمر وانتزحوا
عن سورة الملك لازهدا ولا كرما
وأصبحت آل عبد القيس قد ثلجت
صدورها ، فترى الموتور مبتسما[٩٤]

والوقوف على تفصيل هذه الأمور يستلزم منا الرجوع الى بداية ظهور القرامطة فى البحرين وما أحدثوه فيها وفيما جاوروها من أحداث وانتهاك لحرمات الله حتى نهايتهم وتخليص الناس من شرورهم ٠

فبعد القضاء على حركة صاحب الزنج بفترة من الزمن وبالتحديد سنة ٢٨٦هـ[٩٥] ابتدأت حركة القرامطة فى البحرين على يد رجل يسمى أبو سعيد الجنابى ، وكان سبب ظهور أبى سعيد أن رجلا يعرف بيحيى ابن المهدى نزل البحرين وأظهر التشيع فى بداية الأمر ، ثم أعان أنه المهدى المنتظر ، فظهر أمره وأجابه عدد كبير من الناس ، وكانت الدولة العباسية قد بدأت فى مراحل ضعفها ، وشغلت بالكثير من المشكلات والجنود هم الذين يسيطرون عليها ، ولا يهمهم سوى مصلحتهم وتأمين أهوائهم والسير وراءها ، وباقى الناس فى ترف فكرى ، مشتغلين بعلم الكلام ، وزاد ترفهم القعود عن الجهاد واهمال الحكام لهم ، لذا كان العوام يسيرون وراء كل من يحقق لهم مصالحهم أو يدعى أنه يفعل ذلك ، وكان من الذين اتبعوا يحيى بن المهدى أبو سعيد الجنابى ، وهو ينتسب الى « جنابه » من قرى فارس ، وقد نزل البحرين منفيا من بلاده ، ويعمل بالفراء ، وينتقل من البحرين الى سواد الكوفة ، وصحب أبو سعيد يحيى مدة من الزمن وتأثر به ، حتى اذا أفشى أمرهما الى الوالي هرب أبو سعيد الى (جنابه) مسقط رأسه ، وهناك بدأ يدعو

---

(٩٤) الديوان ص ٥٣١ — ٥٣٧ ٠

(٩٥) تاريخ الاحساء — ص ٨٤ ، (القرامطة) لمحمود شاكر — طبعة بيروت ص ٦٦ ٠

الى القرامطة[٩٦] . وعندما تجمع حوله عـدد من الاتباع ، بدأ يعيث هو ورفاقه فى الأرض فسادا ، فقتلوا وسبوا فى بلاد الاحساء خلقا كثيرا سنة ٢٨٧ هـ ، ثم سار الى القطيف فقتـل من بها ، وأظهـر أنه يريد البصرة ، فجهز اليهم الخليفة العباسى جيشا كثيفا ، جعل عليه (العباس ابن عمر الغنوى) فانتصر عليه القرامطة ، وأسروا الجيش كله ، ثم استمر نشاطهم حتى سنة ٣٠١ هـ حيث قتل أبو سعيد الجنابى على يد خادمه فى الحمام[٩٧]،وكان قد عهد من بعده لابنه الأكبر (سعيد) الا أنه كان ضعيفا ، فغلبه على ذلك أخوه الأصغر (سليمان) الذى يكنى بأبى طاهر ، وكان فاتكا جريئا ، ودخل أبو طاهر هذا البصرة ، سنة ٣١١ هـ ، فى ألفين وسبعمائة رجل فقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وبقى فيها ثمانية عشر يوما يحمل منها ما يقدر على حمله من الأموال والأمتعة ، والنساء والصبيان ثم رجع الى بلده ، وفى سـنة ٣١٢ هـ قطع أبو طاهـر على الحجاج طريق عودتهم ، وأخذ منهم أزوادهم وأمتعتهم ، وترك من بقى منهم بلا ماء ولا طعام فمات أكثرهم ، ثم دخل الكوفة سنة ٣١٣ هـ ، وبقى فيها ستة أيام نقل خلالها أكثر ما فيها من مختلف المتاع ، ثم عاد ودخلها فى العام التالى وفعل فيها مثلما فعل فى السابق ، كما استولى على مدينة الأنبار وعين التمر ، وفى سنة ٣١٧ سار أبو طاهر القرمطى الى مكة ودخلها يوم التروية (٨ ذى الحجة) فقتل الحجاج فى المسجد الحرام ، ونهب أموالهم ، وخلع باب الكعبة ووقف يلعب بسـيفه على بابها وهو يقول :

أنـا باللـه ، وباللـه أنـا
يخلـق الخـلق وأفنيـم أنـا[٩٨]

---

(٩٦) ينتسب القرامطة الى رجل يدعى (قرمط) ولقب بهـذا اللقب لقصد كان فيه — راجع المصدر الأخير ص ٥ .

(٩٧) تاريخ اخبار القرامطة — لابن سنان — تحقيق سهيل زكار — ص ٣٦ .

(٩٨) تاريخ الاحساء — الشيخ الانصارى ، ص ٩٠ .

وخلع الحجر الأسود وأخذه معه الى (هجر) ، ومات أبو طاهر سنة ٣٣٢ هـ ، فخلفه اخوته الثلاثة (سعيد أبو القاسم) و (أحمد أبو العباس) و (يوسف أبو يعقوب) ، وكانت كلمتهم متفقة ، وفى سنة ٣٣٩ هـ رد القرامطة الحجر الأسود الى مكانه بعد أن بقى عندهم اثنان وعشرين سنة •

وامتد نفوذ قرامطة البحرين(٩٩) الى نجد ، وكانت الدولة الأخيضرية هناك تحت اشرافهم ، كما أخضعوا الحجاز لهم ، ووصلوا الى بلاد الشام سنة ٣٥٧ هـ ، وكان أمرهم آنذاك الى الحسن بن أحمد ابن بهرام ، وقد دخل دمشق وولى عليها (وشاح السلمى) ، وعاد اليها مرة أخرى سنة ٣٦٠ هـ • ومنها سار الحسن الى الرملة ثم اتجه الى القاهرة ، الا أن جوهر الصقلى ردهم عنها وأخذ منهم دمشق بعد ذلك • ومات الحسن سنة ٣٦٦ هـ ، وقام على أمر القرامطة من بعده ابن عمه جعفر بن الحسن بن بهرام • وبدأ وضع القرامطة يضعف تدريجيا ، ولولا ضعف الدولة العباسية لانتهى أمرهم منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ، الا أن التفكك الذى أصاب الدولة قد جعل أمرهم يطول ، أما الآن فقد أصبحت أوضاعهم مهلهلة ، والمناطق التى سيطروا عليها قد تجزأت ، حتى اذا كان العقد السادس من القرن الخامس ونتيجة ضعف القرامطة من ناحية ، ولما كان يعانى منه أهل البحرين من عسف وجور وامتهان للمشاعر والمقدسات من ناحية أخرى سنحت الظروف وأصبحت الفرصة مواتية للانقضاض والثورة وهب لقتال القرامطة ثلاثة من رجالات العرب بالبحرين وهم :

١ — الأمير عبد الله بن على العيونى ، فى الاحساء •

٢ — يحيى بن العياش فى القطيف •

٣ — أبو البهلول محمد بن يوسف الزجاج فى جزيرة أوال •

---

(٩٩) هناك ايضا قرامطة العراق وقرامطة اليمن .

أما الأمير عبد الله بن على العيونى فقد كاتب أبا الفتح جـلال الدين السلجوقى ببغداد شارحا له أحـوال البلاد وطالبا منه العون ، فأرسل اليه القائد اكسك سالار فى جيش كبير قوامه سبعة آلاف فارس، فتم لعبد الله بمساعدة هذه القوة تخليص الاحساء من براثن القرامطة بعد حروب طاحنة انتهت سنة ٤٦٨ هـ ، وأما أبو البهلول فقد استطاع منذ البداية أن يسـحق قوة القرامطـة فى جزيرة أوال وأن يطرد منها عمالهم ، وأن يخضعها لنفوذه بضع سنوات .

ونهض يحيى بن العياش فى القطيف وطرد منها عمال القرامطة ، وأخضعها لنفوذه،ثم طمع فى جزيرة أوال وأراد أن ينتزعها من أبى البهلول فلم يتمكن ، ولما مات خلفـه ابنه زكريا الذى واصـل خطة أبيه فى الاستيلاء على جزر أوال فظفر بأبى البهلول وقتله واستولى على أوال وضمها الى ملكه فى القطيف ، ثم انه فكر بعد ذلك فى الاسـتيلاء على الاحساء آملا فى توحيد البحرين تحت تاجه ، فالتقى جيشه مع جيش الأمير عبد الله بن على العيونى فانهزم ابن العياش فى الموقعة الأولى ثم قتل هو نفسه فى الموقعة الثانية ، وتفرق جنده ، وتم استيلاء عبد الله ابن على على القطيف وجزيرة أوال وتم توحيد البحرين تحت علم الامارة العيونية .

وقد أشار ابن مقرب الى حروب جده الأمير عبد الله بن على مع ابن عياش فى معرض الافتخار فقال :

ولـم ينـج (ابـن عيـاش) بمهجتـه
يم ، اذا مـا رآه النـاظر ارتسـما

أتى مغـيرا فوافى جـو (ناظـرة)
فعاين المـوت منـا دون مـا زعمـا

فـراح يطـرد طـرد الوحش ليس يرى
حبـل السـلامة الا السـوط والقـدما

فانصـــــاع نحـــو (أوال) يبتغى عصما
اذ لم يجـــد فى نواحى (الخط)معتصما
فأقحـــم البحـــر منـــا خلفـــه مـــلك
ما زال ، مذ كان للأهـــــوال مقتحمـــــا
فجـــاز مـــلك (أوال) بعـــد مـــا تـــرك
(العكروت) بالســـيف للغبراء ملتزمـــا
فصـــــار مـــلك (ابن عيـــاش) ومـــلك
(أبى البهلول) مع ملكنا عقـــدا لنا نظما
من ذا يقاس بعبـــد اللـــه يـــوم وغـــى
فى بأســـه أو يبـــارى جوده كرمـــا(١٠٠)

ولما استقر الأمر لعبد الله بن على على الاحساء قطع ما كان لرؤساء بنى عامر من العوائد والجرايات التى أجريت لهم أيام القرامطة فأجمعوا على حربه ، وأقبلوا ومعهم خلق كثير من البوادى يسوقون الابل أمامهم وهم خلفها ، وصـــاحوا عليها فكانت تدق الجموع ، وخرج عبد اللـــه ابن على لقتالهم ، ولما رأى ما تفعله الابل بالناس ، أمر بضرب الدبادب والأبواق فى وجوهها فنفرت ورجعت على أعقابها ، فحطمت من خلفها فانهزموا ، وحمل عليهم عبد الله بن على وقتلهم قتلا ذريعا ، ولم ينج منهم الا جماعة قليلة هربوا الى العراق ، ثم ان عبد الله بن على جهز نساءهم وذراريهم والضعفة منهم ، ووجههم الى عمان ، واســـتقر له الحكم بعد ذلك على البحرين كلها متينا ، قوى الأركان والدعائم .

---

(١٠٠) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٥٣٨ ، ارتسما : كبر وتعوذ ، ناظره : كثبان رمل شرقى الهفـــوف ، العـــكروت : أحـــد قادة ابن عياش الشجعان .

الدولة العيونية :

استمر عبد الله بن على فى الحكم مدة ستين سنة وتوفى على رأس عام الخمسمائة تقريبا بعد أن حكم البحرين هذه المدة الطويلة ، وخلفه من بعده ثلاثة من الأبناء هم : الفضل ، وعلى ، وضبار .

وقد تعاقبوا على أريكة الحكم من بعد الدهم هم وأبناؤهم وأحفادهم وسنعرض فيما يلى لسيرة البعض منهم حتى نهاية الدولة العيونية .

الفضل بن عبد الله بن على العيونى :

تولى الحكم بعد أبيه وكان شجاعا كريما بعيد الهمة كثير الأسفار والتنقلات والتجول فى البرارى ، لتعقب المفسدين ، والأخذ على أيدى الأعراب الذين يرتزقون من قطع الطرق وسلب المارة ، فأمنت البلاد فى عهده ، وقد حمى لابله وابل المستضعفين من رعيته من منطقة (ثاج) شمالا ، الى منطقة (يبرين) جنوبا ويروى أنه كان يتجول مرة فى الصحراء التى حماها فرأى أعرابيا يرعى غنمه فى الحمى ، واذا أعرابى آخر يقول له : أما علمت أن هذا حمى الفضل فقال :

وأين امرؤ فى (زاد برد) محله
وأغتام سودى بعيد مذاهبه[101]

فما أتم البيت حتى ظهر عليه الفضل ، فبهت الأعرابى ، الا أن الفضل اكتفى بتحذيره من العودة ثانية ، وقد أشار ابن المقرب الى ذلك بقوله :

وان تفتخر بالفضل ، فضل بن عبدل
فيا بأبى أعراقه ومناسبه

---

(١٠١) زاد برد : موضع فى جزيرة أوال فيه تصور للأمير الفضل .

همـام حمـى البحـرين سـبعا ومثاها
سـنين ، وسـارت فى الفيافى مواكبـه
ولم يرع من (ثاج) الى (الرمل) مصرم
على عهـده الا استبيحت حلائبـه
زمـان يقـول العامـرى لمـن غـدى
يحـدثه عنـه وذو الحمـق غالبـه
متـى يلتقـى مـن زاد بـرد محـله
وآخـر سـودى بعيـد مذاهبـه
فلـم يسـتتم القـول حتى اذا بـه
يسـايره والدهـر جـم عجائبـه
فقـال لـه الآن التقينـا فأرعـدت
فرائصـه ، والجهـل مـر عواقبه(١٠٢)

ومن كرمه أن تجارا ركبوا البحر فغرق مركبهم بين أوال والقطيف، فذهب ما كان معهم ، فأمر الفضل أن يكتب كل رجل ما غرق له ففعلوا ، فأعطى كل رجل ما يقابل ماله من نقود ، ودام ، حكم الفضـل سـبع سنين ، وقيل أربع عشرة سنة(١٠٣) ، ومات مقتولا فى جزيرة تاروت على يد خدمـه .

محمـد بن الفضـل :

يكنى أبو سنان ، وكان يسكن جزيرة أوال ، وعرف بالكرم ، وكان ابن مقرب كثير الافتخار به وبشعره ، ويعتبر من أبرز أمـراء الدولة العيونية وأشدهم قوة ومنعة ، واستمر حكمه ثمانية عشر عاما ، وكان

---

(١٠٢) الديوان — طبعة الاحساء ، ص ٥٧ ، ثاج : قرية بالبحرين ، والرمل : رمل خارج بطريق عمان ورجل مصرم : صاحب عدد من الابل .

(١٠٣) المصدر السابق — ص ٥٨ — وانظر أيضـا الديوان طبعة دمشق ص ٣٣ ، منشورات المكتب الاسلامى .

له وزيرا خاصا يسمى الحاج على بن الفارس الكازرونى ، ومات أبو سنان ، مقتولا على يد عميه أبى المنصور وأبى على ، وبعد مقتله بايع أهل القطيف والجند الذى فيه غرير بن محمد ، وبايع أهل الاحساء والجند الذى فيه على بن عبد الله لأنه أكبر أفراد الأسرة المالكة ، فتجهز غرير بن محمد لغزو عمه بالاحساء بجيش كبير ، فاستعد الأمير على ويكنى أبا منصور للحرب ، وفتح خزائن الأطعمه ، وفرقها على السكان ، وأعطى كل أهل بيت ما يكفيهم سنة ، وخرج أبو منصور بمن معه من الجنود لصد الأمير غرير ، فالتقى الجمعان بموضع فى الاحساء يعرف (بالسليمات) واشتد القتال ، وأخيرا قتل أبو منصور ، وانهزم جنده وقتل منهم ثمانون رجلا وأسر خمسماية وعشرون ، وتحصن أهل الاحساء بها ، ورجع غرير الى القطيف ، وبايع أهل الاحساء شكر ابن على .

شكر بن على بن عبد الله بن على العيونى :

يكنى أبو مقدم ، وكان عالما ، ورعا وشاعرا مجيدا ، وفارسة شجاعا ، وضع المكوس عن جميع رعيته ، وحينما تولى الاحساء خرج رجل يسمى (حماد النائلى) وجمع جمعا كثيرا من البوادى ، وأقبل يريد الاحساء ، وحاصرها ثلاثين يوما ، ثم حمل هو ومن معه على المدينة حملة شديدة واقتحموا أبوابها ، وكاد يتم لهم الظفر ، فتلقاهم أبو مقدم ومن معه من الجند وأهل البلاد فردهم على أعقابهم ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، حتى أنتنت الأرض وسمى ذلك الموضع (الخائس) ، وفى عهد شكر بن على استقل آل على بن عبد الله بحكم الاحساء ونواحيه ، بينما اقتصر حكم آل فضل على القطيف ونواحيه ، ولكن سرعان ما استعاد آل فضل حكمهم لعموم البحرين .

ومع أن الشاعر لم يكن على وفاق تام مع آل فضل ، فان مدائحه لهم قد سببت زيادة التوتر أيضا فيما بينه وبين بنى عمه الآخرين ،

ويدل على ذلك ما جاء فى القصيدة التى عاتب بها الأمير مقدم ابن ماجد — وهو من آل فضل — ومطلعها :

أأســـكت عن مولى الورى أم أعاتبـــه
وأهمـــل وعـــدى عنـــده أم أعاتبـــه ؟؟

وفيها يقول :

فلولا هـــواكم ما شـــقيت ولا غـــــدا
يصـــك برجلى القيـــد من لا أشاغبه(١٠٤)

ونأخذ من هذا أن من أسباب العداء المستحكم بين ابن مقرب وبين حكام عهده ناشئا من كونه قد مدح آل فضل بن عبد الله الذين ظلوا فى صراع مستمر مع بنى عمه الآخرين .

ولا يعنى اقتصار النزاع بين هذين الفرعين من الأسرة أن الفرع الثالث الذى ينتمى اليه الشاعر لم يتول أحد منهم الحكم فى البحرين فقد كان منه أمراء من أشهرهم الأمير الحسن بن غرير بن ضبار وابناه المبارك (أبو شكر) ومقرب ، الذى هو الأب الثالث للشاعر ابن مقرب ، ومات شكر بن على رحمه الله بعد منتصف القرن السادس .

محمد بن أحمد المكنى بأبى الحسين بن عبد الله بن على :

وكان هذا الأمير عالى الهمة ، صلب الارادة وفى أيامه اســـتفحل ملك العيونيين ، وامتد نفوذهم الى نجد وبادية الشام ، وعهـــد اليهم الخليفة العباسى الناصر لدين الله بخفارة طريق الحجاج من بغداد حتى مكة ، وفى مقابل ذلك خصص الخليفة للأمير العيونى عونا ماديا يدفع له كل عام ، وقد قام الأمير محمد بن أبى الحسين بهذه المهمة خير قيام، وعمل على تأديب بادية الشام الذين اعتدوا على قوافل الحاج فأوقع

---

(١٠٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٥٩ — ٦١ .

بهم ايقاعا شديدا ، كما غـزا بنى مالك على مـاء الدجانى ــ فى غرب الدهناء ــ لخروجهم على طاعته سنة ٦٠١ هـ ، ويصف الشـاعر هذه الموقعة الأخيرة بقوله :

ألم يجـلب الجـود العتـاق شـوازيا
من « الخط » تتلوها المطـايا المراسـل
الى أن أناخـت « بالدجـانى » بعـدما
براهـا السـرى والأين فهـى نواحـل
فصـبحن حيـا لـم تصـبح حلالـه
قـديمـا ولا رامـت لقـاه الجحافـل
فـكم قـرم قـوم غادرتـه مجـدلا
تنقط شـواه الخامعات العواسـل
وكم من مـال نحام من القـوم أصبحت
تقسـم غصـبا جـله والعقائـل
وكـم عاتـق لم تترك الخـدر سـاعة
تقـايب كفيهـا لـه وهـى ثاكل [١٠٥]

وقد كان عهد محمد بن أبى الحسين عهد أمان واطمئنان نتيجـة حزمه وضربه على أيدى المفسدين ، وقد قتـل هذا الأمير على يد أحد أصهاره وهو راشد بن عميره بن غفيلة رئيس بنى عامر وبمساعدة ابن عمه غرير بن شكر بن على العيونى ، ورثاه ابن مقرب بقصيدة مطلعها :

ضننت حسـودى حـين غالت غوائله
يريـع الى البقيـا وتطوى حبائله [١٠٦]

---

(١٠٥) الديوان ــ طبعة الاحساء ، ص ٣٥٤ ، الشارب : الخشن ، الخط : موضع بالبحرين ، الابل المراسل : السهلة السريعة ، الدجانى : اسم ماء فى الجانب الغربى من الدهناء ، الشوى : أطراف الانسان ، الخامعات : الضباع والذئاب ، العواسل : المضطربة والنحام : البخيل .

(١٠٦) الديوان ــ طبعة الاحسـاء ــ ص ٣٢٦ ، أراع الى البقيا : رجع ، حبائله : ما ينصبه مكرا وخديعة .

وكان للأمير محمد ثلاثة من الأبناء : الفضل وهو أكبرهم وماجد وأحمد ، فكتب الفضل للخليفة الناصر بذلك وطلب منه النصرة حتى يأخذ بثأر أبيه ، فبادر الخليفة بانجادة وأرسل اليه الأموال والأسلحة ووعده بارسال الجنود اذا احتاج اليها ، فبذل الفضل الأموال لرؤساء العشائر وكثر جمعه ، فتتبع قتلة أبيه وأعدم أكثرهم ، ومنهم غرير الذى لم يتمتع بحكم القطيف غير سنة واحدة .

فضل بن محمد بن أحمد أبى الحسين بن عبد الله بن على :

فى سنة ٦٠٦ هـ ، عقد الأمير فضل بن محمد صلحا بينه وبين ملك جزيرة « قيس » غياث الدين شاه بن تاج جمشيد ، على أن يكون للملك قيس جزيرة « أكل » وجزيرة «الجارم» وجزيرة « الطيور » وجميع مساكر الأسماك ، مضافا اليها مقاسم تاردت «الحسينى» و «الحساس» ومقسم القصر ، وبستان القصر ، وبستان المشعرى ودالية الدار ، والفايدية ، ونصف طراز الغاصة ، من مقاسم القطيف ، وخمسة وثلاثون بهارا عوضا عن بستان المصفاة بالاحساء ، وخمسمائة دينار تدفع لـه كضريبة سنوية ، وأن تكون المقاسم والخراج والحلقة وطراز الغاصة والطيور والعشور، مناصفة بين ملك قيس وملك العرب محمد بن الفضل .

وعلى الرغم من أن هذه الشروط كانت مجحفة للغاية الا أنها كانت بمثابة هدنة أوقفت الغارات التى — تشن على جزيرة أوال وعلى الحدود واذا تأملنا فى هذه الاتفاقية نفسها نجدها مجحفة جدا بالنسبة لدولة عربية ذات سيادة ، ويخيل الينا أن السيطرة الأجنبية قد فرضت نفسها حتى فى الشؤون الداخلية كما تنص بنود تلك الاتفاقية .

وهنا يقف ابن المقرب منددا بهذه المعاهدة التى لمس فيها الضعف والهوان والتدخل المباشر فى أمور الدولة ، ويعاتب الأمير الفضل ويغلظ له القول حتى أدت النتيجة الى تردى العلاقات بينهما فأبعده عنه ، ومما قاله فى ذلك :

اذا خانــك الأدنــى الــذى أنت حزبــه
فواعجبــا ان ســـالمتك الأباعـــد

ومنهـــا :

وان وطــن ســائك أخـــلاق أهـــله
فدعــه فمــا يغضى عــلى الضــيم ماجد
فمــا (هجــر) أم غذتـــك لبانهـــا
ولا (الخط) ان فارقتهـــا لك والـــد

ومنهـــا :

فلا تتــكل يا فضــل فى الفضـــل والندى
على ســالف أســداه جـــد ووالـــد
فلا حمــد الا بالــذى يفعـــل الفتـــى
ولــو كثــرت فى أوليــاه المحامــد[١٠٧]

وبقى عمال ملك جزيرة قيس فى بلاد البحرين يجبون الضرائب حتى نهض على بن ماجد بن محمد بن الحسين ثائرا على الأوضاع السيئة التى انتهت اليها الدولة فى عهد عمه الفضل ، وبمساعدة قبيلة (العماير) ، استطاع تنحية عمه عن العرش ، وتولى مقاليد الحكم ، فاستتب الأمن فى البلاد وساد الاستقرار ، لاقت ثورة على بن ماجد صـــدى طيبا فى نفس ابن مقرب فمدحه بقصيدة منها :

للـــه درك يا عـــلى فلـــم يعـــد
الاك فى هـــذا الزمـــان مهـــذب
أضـــحت بـــك الاحســـاء ساكنة وقد
خفــت بمــن فيهـــا وكــادت تقــلب

---

(١٠٧) الديوان — طبعة الاحساء — ص ١٤٠ — ١٤٨ .

لــو لــم تــداركهــا وتراب صــدعهــا
لغــدت بهــا خيــل الهــلاك تــوثب
أحييتهــــا بعــد الممـــات وبعـــدما
قامت بواكيهــا تنــوح وتنــدب[١٠٨]

ثم ان ابراهيم بن عبد الله بن أبى جروان أحــد رؤساء بنــى عبد القيس قام بمؤامرة للقبض على الأمير على بن ماجد الذى اضطر بدوره للهرب خارج البلاد ، فتم تنصيب مقدم بن غرير العيونى ، الذى نشأ نشأة بدوية جاهلا بشؤون السياسة حيث استغله رؤساء العشائر لسوء ادارته ، فأطلق لأيديهم العنان يتحكمون فى مقــدرات الشعب ، وعند وصول ابن مقرب الى مدينة القطيف أطلقها صرخة مدوية ، وبعث بقصيدة الى ابن أبى جروان بالاحساء وهو الذى كان السبب فى تنصيب مقدم جاء فيهــا :

أرجــال عبــد القيس كــم أدعـــوكم
فى كـــل حـــين للعـــلا وأوان
لا تســـقطوا من هامــكم وأنوفـــكم
همــم الرجــال وغــيرة الفتيـــان
وذروا التحاســـد والتنـــافس بينكم
فـــكلاهما نـــزغ من الشـــيطان
لــم يبــق مــال تتقــون بــه العــدى
لربيعـــــة فيهـــا ولا قحطـــان

ثم خاطب ابن أبى جروان نفسه فى هذه القصيدة :

أتــراك ترضــى أن يحـــدث جاهـــل
أو عـــالم ، مــن نـــازح أو دان

(١٠٨) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٨٩ .

فيقــــول كــان خــراب دار ربيعـــة
بعــد العمـــار بنـــو أبـــى جـــروان
يأبـــى لـــك الطبـــع الـكريم ونخـــوة
عربيـــة شـــهدت لهـــا الثقـــلان (١٠٩)

ثم رأى أهل الحل والعقد من الوزراء والرؤساء أن يولوا الأمر : محمد بن ماجد بن محمد بن أبى الحسين فنودى به ملكا على البحرين، ومدحه ابن مقرب بقصيدة مطلعها :

خـــذوا عن يمـــين المنحنى أيهـــا الركب
لنسأل ذلك الحى ما صـــنع السرب (١١٠)

غير أن محمد بن ماجد لم يلبث فى الحكم طويلا ، اذ ثار عليه ابن عمه محمد بن مسعود وقتله ، واستولى على البلاد ، ثم أعقبه من بعده ابنه الفضل ، وفى عهد هذا الأخير زالت الدولة العيونية .

وتفصيل ذلك أن جلساء الأمير المذكور تواطئوا مع رؤساء قبيلة عقيل بن عامر على أن يشنوا على البلاد حربا ويحاصروها ، وهم بعد ذلك يشيرون على الأمير بطلب الصلح ، واذا طلب الصلح منهم يجيبونه الى ذلك بشرط أن يعطيهم جميع القصور والبساتين الخاصة بالأسرة المالكة ، واذا استشارهم أشاروا عليه بذلك ، فنفذ رؤساء بنى عقيل خطة المؤامرة ، وحاصروا الاحساء ، وأفسدوا ثمارها وزروعها ، وكان ذلك وقت الأرطاب ، فضاق الأمير بذلك ذرعا ، وجعل يتلمس الرأى من الجلساء والمستشارين ، فأشاروا عليه بطلب الصلح ، فأرسل الأمير الى رؤساء بنى عقيل وهم بنو عصفور يطلب منهم الصلح ، فأجابوه على شرط أن يسلم اليهم ما يرغبون فيه من القصور والبساتين الخاصـــة بالأسرة المالكة ، فثقل عليه الشرط ، وعرض الأمر على أولئك النفر الذين

(١٠٩) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٦٣٧ — ٦٤١ .
(١١٠) المصدر السابق — ص ٢٦ .

دبروا المؤامرة ، فأشاروا عليه بقبول الشروط ، وقالوا ان ذلك أيسر من ذهاب البـلاد كلها ، فقبض على جميـع ما أرادوا من البسـاتين والقصور ، وسلمه الى رؤساء بنى عقيل ، وفكوا الحصار ، ودخلوا البلاد دخول الفاتحين ، وأصبحت الأسرة المالكة فقراء معدمين •

وقال ابن مقرب يصف هذه الفاجعة :

بعض الـذى نالنـا يا دهـر يكفينـا
فامنـن ببقيـا وأودعهـا يدا فينـا
ان كـان شـأنك ارضـاء العـدو بنا
فـدون هـذا بـه يرضـى معادينـا
الحمـد للـه حمـدا لا نفـاد لـه
اذ لم يـكن ضعفنـا الا بأيدينا(١١١)

وهى قصيدة طويلة يظهر فيها كيف أن الأسرة المالكة قد حقـدت على الملك لأخذه قصورهم ، وبساتينهم وتسليمها لرؤساء بنى عقيل ، فنفضت يدها من مناصرته ، فتلاشت سلطته وتقلص نفوذ العيونيين منذ ذلك الحين ، وانتقلت السلطة الى بنى عصفور من رؤساء بنى عقيل ، وذلك فى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى •

هذا وقد دام حكم العيونيين على البحـرين قرابة القرنين من الزمان ، وكانوا يعترفون بسلطة بغداد الرمزية عليهم ، ولولا الخلافات بين أفراد هذه الأسرة العربية ، ولولا الشـقاق والنزاع بين بعضهم البعض الأمر الذى أدى الى الاستعانة بالأجانب والأعادى والطامعين ، لكان لهذه الدولة شأن وأى شأن،ولكن الدول ــ كما يقول ابن خلدون ــ تهرم وتقضى نحبها ، وهذه سنة الحياة فى كل شىء ، ولا يبقى الا وجه الله ذو الجلال والاكرام •

* * *

(١١١) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٦١١ .

الفصل الثالث

« مصادر شعره »

أهم مصدر لشعر ابن مقرب هو ديوانه الذى ضم أغلب شعره — وان لم يكن كله — أما ما ورد له من أشعار قليلة فى ثنايا التراجم التى أشرنا اليها فهذا لا يعول عليه كثيرا ، وديوانه المطبوع لا يقل ضخامة عن دواوين علية الشعراء ، وفيه ما يربو على المئة قصيدة ، ويحتوى على أكثر من ٥٣١٤ بيتا .

وقد حفل بمقدمات وايضاحات تاريخية لأكثر القصائد لا كلها ، وأغلب الظن أنها من عمل شراح الديوان القدماء ، وقصائد الديوان مرتبة حسب الحروف الأبجدية للقوافى ، هذا وللديوان عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة نستعرضها فيما يلى حسب ترتيبها الزمنى :

أولا : النسخ المخطوطة[١] :

(أ) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٢٦ — أدب) وعدد أوراقها ١٦٩ ورقة ، مكتوبة بخط واضح ، وقد كتبها بقلمه أمين حسن أبو القاسم وذلك فى سنة ١٠٦٧ هـ ، وسمى الناسخ شاعرنا محمد بن المقرب ، ولكنه فى آخر صفحة من المخطوطة يعود فيسميه على ابن محمد بن المقرب العيونى .

(ب) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٠٩١ — أدب) وفى صدرها : « ديوان الشيخ الرئيس السامى جمال الدين على ابن المقرب النعمانى ، كافاه الله بما هو أهله ، وقد دخل تحت تصرف ابراهيم بن عبد الله باشا بن ثنيان آل سعود ، والاعتماد على الرب » . وتاريخ كتابة هذه النسخة سنة ١١٣٠ هـ فى ٤١ ورقة ، وتكمن أهميتها فى تسجيل بعض حوادث الجزيرة والخليج العربى فى القرون الأخيرة على الصفحات الأولى منها .

---

(١) راجع مقدمة ديوان الشاعر طبعة الاحساء .

(ج) نسخة بالمكتبة الماجدية بمكة المكرمة ، وهى تطابق نسخة الديوان المطبوعة فى الهند من بعض الوجوه ، الا أن فى المخطوطة بعض الزيادات على ما طبع ، ومع ذلك فانها تنقص فى عدد أبياتها عن عدد أبيات الطبعة الهندية وقد سقطت المقدمة من هذه النسخة ، ومعظم القصيدة الأولى التى مطلعها فى الديوان :

كم أرجع الزفرات فى أحشائى
وآلام فى دار الهوان ثوائى

وهى تبدأ فى المخطوطة كالتالى :

فلكل شاوى وراعى هجصة
جاف حديث العرف كالكشحاء

وسقط منها حوالى (٢٥) بيتا الأولى ، كما سقط من آخر النسخة بعض ورقات ، وهذه النسخة بخط ناصر بن حمد بن لاحق من تلاميذ الشيخ صالح العتيقى — من أهالى مدينة (المجمعة) بنجد وقد نسخها ابن لاحق بالاجازة من شيخه العتيقى ، وتعد هذه النسخة من أتقن نسخ الديوان المخطوطة ، وتم نسخها سنة ١١٩٤ هـ .

(د) نسخة خطية محفوظة بمكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم (٢٠٢٨ — ج) وهى مكتوبة بقلم عادى سنة ١٢٨٤هـ،وبلغ مجموع أبياتها ٤٨٣٧ بيتا ، وقد أتلف السوس كثيرا من أبياتها ، وهى خالية من المقدمة، وكتب فى صدرها : « ديوان الامام ابن المقرب الحماسى اليمنى البغدادى رحمه الله تعالى » ، وكتب فى صدر الصفحة الأولى منها : « هذا ديوان الشاعر الأديب ، والفصيح اللبيب ابن معشوق البغدادى عليه رحمة الهادى ، وهو من كتب الأدب المعتبرة فى البلاغة وغيرها ، ولله دره . ونسبة الشاعر بهذا الشكل تجعلنا نجزم بأنه خطأ من الناسخ لا شك .

(هـ) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٢٢ — أدب) مكتوبة بخط واضح سنة ١٢٨٦ هـ ، فى ١٢٥ ورقة ، وهذه النسخة تعتبر أكثر النسخ شمولا لشعر ابن مقرب .

(و) نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٠١٧ — أدب) وكتابتها واضحة وعلى ورق جيد ، وكتبت سنة ١٢٩٣ هـ ، فى ١٢٢ ورقة، بقلم خليل الشبكشى ، وهى منقولة من النسخة (أ) .

أما باقى النسخ المخطوطة فهى غير مؤرخة ونذكرها فيما يلى :

(ز) ذكر الأستاذ محسن جمال الدين فى مجلة (الأديب) — البيروتية عدد يونيه سنة ١٩٥٥ ، أنه عثر على مخطوطة لديوان شعرى باسم ابن المقرب فى اسبانيا ، وهو من الحجم المتوسط ، وقد سقطت أوراقه الأولى ، وليس له مقدمة ، وذكر أن الديوان غير مبوب أو مرتب على الحروف الهجائية ، وتحتفظ به المكتبة الأهلية بمدريد تحت رقم ٥٢٤١ ، وأول القصائد فيه :

تجاف عن العتبى فما الذنب واحد
وهب لصروف الدهر ما أنت واجد(٢)

وآخر الديوان :

ما أنصف الطلل العافى بماوانا
لم نشجه يوم سلمنا وأشجانا

(ح) ذكر الدكتور داوود الحلبى فى (مخطوطات الموصل) ص ٤١ — أن فى مكتبة المدرسة الاسلامية التابعة للنادى العلمى فى الموصل نسخة من ديوان (ابن مقرب العبدلى الأمير جمال الدين أبو منصور على ابن عبد الله بن المقرب) .

---

(٢) القصيدة موجودة فى الديوان — طبعة الاحساء فى ص ١٤٠ .

(ط) توجد فى مكتبة الحرم المكى نسخة مخطوطة تضم طائفة من أشعار ابن مقرب تبلغ (١١٣١) بيتا .

(ى) نسخة بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، وفيها كثير من الأبيات وبعض قصائد لم ترد فى النسخة المطبوعة فى الهند ، ونسبة الخطأ فيها قليـــلة .

(ك) نسخة بمكتبة فيض الله باسطمبول — بتركيا .

(ل) نسخة بمكتبة المتحف البريطانى — بلندن .

(م) نسخة بمكتبة برلين — ألمانيا(٣) .

ثانيــا : طبعات الديوان :

الطبعــة الأولى :

طبع الديوان لأول مرة بمكة المكرمة فى أيام العثمانيين سنة ١٣٠٧هـ، وهذه الطبعة خالية من الشرح والضبط ، وهى رديئة وسقيمة وغـــير محققة ، ولذا جاءت مشحونة بكثير من الأخطاء المطبعية والاملائية وعدم الدقة والاتقان فى اخراجها ، ولايمكن الاعتماد عليها .

وقد كتب على صدرها : «هذا ديوان الشاعر اللبيب الفاضل الأديب أبو عبد الله محمد بن على بن المقرب بن المنصـــور بن مقرب بن على ابن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد القليونى الاحسائى بل الله ثراه » ، ومقدمة النسخة مبتورة ، وقد زيدت عليها اضافات تخرج بها عن موضوع الديوان ، وقام بطبعها على نفقته عبد الله بن سعيد باخطمة،

---

(٣) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب — ص ٣٣ .

الطبعة الثانية :

وكانت بالهند بمطبعة ديرت ساد سنة ١٣١٠ هـ ، وهى أوفى من الطبعة المكية ومشروحة ولكن شارحها مجهول ، ويقال أن الذى جمع قصائدها هو الشيخ حمد بن خليفة العيونى ، وليس من المؤكد ما اذا كان هذا الشخص ينتسب الى أسرة الشاعر أم انها مجرد نسبة الى بلدة العيون بالاحساء(٤) ، وهذه النسخة طبعت على نفقة الشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصى ، وكانت بخط رئيس المحررين بالهند يومذاك مـلا محمود بن الشيخ آدم المقدم الكوكينى الشافعي ، ورغم أن هذه الطبعة أيضا لم تخل من الأخطاء وعدم العناية الا أنها فى هذا الجانب أخف من الطبعة الأولى ، فهى مثلا لم تستكمل بعض قصائد الشاعر ، فالقصيدة البائية التى مطلعها :

خذوا عن يمـين المنحنى أيهـا الركـب
لنسأل ذاك الحـى ما صـنع السرب(٥)

ليس موجودا منها بطبعة الهند سوى (٥٨) بيتا ، بينما بلغت فى الطبعة المكية (٨٢٠) بيتا ، على أن مجموع أبيات الطبعة الهندية يبلغ (٤٥٧٠) والطبعة المكية نجوا من نصف هذا العدد ، وزيادة على ذلك فإن الطبعة الثانية تمتاز باجتوائها على مقدمة تاريخية تلقي بعض الضوء على حياة الشاعر وأخلاقه ورحلاته ، وعلى معلومات تاريخية عن منطقة البحرين عامة وأسرة الشاعر خاصـة ، فهى من هذه الناحيـة عظيمة الأهمية .

---

(٤) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ، ص ٣٠ .
(٥) موجود بالديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٦ .

الطبعة الثالثة :

وهى على نفقة الشيخ على بن عبد الله آل ثانى — حاكم قطر السابق — وذلك سنة ١٣٨١ هـ ، وبشرح الشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصى ، ونشرها المكتب الاسلامى بدمشق ، وهــذه الطبعة بدورها لا تخلو من الأخطاء اذ سقطت منها أبيات كثيرة ، الا أن الناشر أتبعها بملحق ضم أكثر ما سقط منها من أبيــات ، ووعد الناشر فى المقدمة أن يعيد طباعة الديوان مرة أخرى بصورة أكثر اتقانا من سابقتها ، ووفى بوعده ، وأعاد طباعة الديوان سنة ١٩٦٨ م ، ولكن للأسف لم يصدر منه الا الجزء الأول فقط وضم حوالى (٥٣) قصيدة فقط ، وقال الناشر فى آخر صفحة من هذا الجــزء : « انتهى الجزء الأول من ديــوان ابن المقرب ويليه الجزء الثانى وأوله قافية اللام » الا أن هذا الجزء لم يصدر حتى الآن •

الطبعــة الرابعة :

وهى بشرح وتحقيق الأستاذ محمد الحلو ، وطبع الديوان ونشره (مكتبة التعاون الثقافى) بالاحساء على نفقة صاحبها الشيخ عبد الله الملا ، سنة ١٩٦٣ م ، وهذه الطبعة جيده وبذل فيها المحقق جهدا ملحوظا، وقام بتحشية الديوان ببعض الشروح وعمل له مقدمة ، ولكنه اعتمد فى الشرح على النسخة المطبوعة فى الهند ، وأنا شخصيا اعتمدت فى دراستى لابن مقرب على هذه الطبعة اعتمادا كبيرا هى وسابقتها وعنــدما قمت بمقارنة الطبعتين ببعضهما اتضح لى بعض الفروق والاختلافات بينهما وهــى :

١ — احتوت طبعة دمشق على قصيدتين على قافية الحاء ، خلت منهما طبعة الاحساء احداهما مكونة من (١٠) أبيات ومطلعها :

شـــرف الديـــن خـــذين الســـماح

عـــلام ذا الاعـــراض والاطراح[٦]

والثانية مكونة من (٤٣) بيتا ومطلعها :

الام أروم الصـــبر والصـــبر نـــازح

وأرجـــو احتباس الدمع والدمع سافح[٧]

٢ ــ خلت طبعة دمشق من قصيدة عينيه مطلعها :

يـــا باكيـــــا لدمنـــــة وأربـــــع

ابـــــك عـــــلى آل النبـــــى أو دع[٨]

وهى موجودة فى طبعة الاحساء وعدد أبياتها (٧٦) بيتا •

وفيما عدا ذلك فان النســـختين تتفقان فى المقـــدمات التاريخيـــة والايضاحات لمناسبة بعض القصائد ، أما عن سقوط بعض الأبيات من نسخة أو تقديم بعضها على بعض فى النسخة الأخرى ، فأغلب الظن أن ذلك يرجع الى تعدد النسخ المخطوطة للديوان واختـــلاف الباحثين فى النقـــــل عنها •

وعلى كل حال فلا شك أن تعدد طبعات ديوان ابن مقرب بهـــذه الصورة وتوالى نسخه بهذه الكثرة ــ لا شك ــ أن ذلك يعتبر مؤشرا على قوة شعره وأصالة موهبته ، والا ما اهتم الناس به ، وما حرصوا

(٦ ، ٧) الديوان ، طبعة دمشق الأولى ، ص ٨٨٦ ــ ٨٨٧ •

(٨) القصيدة موجودة فى الديوان ص ٢٥٩ •

على تداول هذا الشعر وبسماعه من حين لآخر ، بل وحفظه فى الصدور حتى لا يبلى أو يضيع ، وعن هذه الناحية يقول أحد الذين كتبوا عن ابن مقرب : « ونظرا لما يمتاز به شعره من قوة وحيوية وصراحة ، فقد اهتم الناس بحفظ أشعاره وتناقلوها ، حتى أن ديوانه طبع فى العصر الحديث عدة طبعات .. وهذا ما لم يحظ به شاعر آخر فى الخليج من اهتمام ومكانة[٩] .

(٩) محمد جابر الأنصارى — لمحات من الخليج العربى — ص ٣٢ — الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

الفصل الرابع

« أغراض شعره وتحليلها »

« تمهيـــــد »

قصة الشعر لدى شاعرنا ابن مقرب قصة ولدت معه منذ نعومة أظفاره ، ونمت مع أيام عمره ، والرواة يؤكدون أنه بدأ قرض الشعر ولما يبلغ الحول العاشر من عمره[1] .

والواقع أن مثل ذلك ليس بغريب أو فريد فى تاريخ العرب الأدبى فقد حدثنا هذا التاريخ مرارا عن شعراء قالوا الشعر موهبة وفطرة فى مثل هذه السن المبكرة ، ومما يؤسف له ضياع شعر الطفولة هذا الذى قاله الشاعر فى سن مبكرة ، الا أن شعره الذى بين أيدينا ينبىء أن قائله تمرس بنطق الشعر منذ أمد بعيـــد ، وبأنه عالج فنونه ــ ولو بشـــكل ساذج ــ منذ أيام الشباب .

والقارىء لشعره يحس فى قرارة نفسه بأن وراء هذا الشعر رجلا عملاقا ، وشاعرا له خطره وأثره ، ويدرك لفوره بأن فى معانيه من البعد والاتقان وصدق الشعور ، ما لا يقل بحال عما فى معانى كثير من شعراء الضاد المبرزين .

ولعل مما يزيد من مكانة ابن مقرب الشعرية نشأته فى زمن تصدعت فيه دولة البيان وتداعى فيه صرح الشعر ، وأفل نجم الأدباء والشعراء، بالاضافة الى أن شاعرنا قد نشـــأ وعاش فى أرض الجزيرة العربية فى ربوع البحرين ، وهى أرض كان الشعر الجيد الرصين قد هجرها منذ أمد بعيد ، فلم تعد صعيدا لفحول الشعر ، ونستطيع القول أن عصر ابن مقـــرب ــ القرن الســـابع الهجرى ــ عصر أقفـــر من الشـــعراء الحقيقيين ، ولذا كان ابن مقرب فى وطنه وزمنه أمة فى عالم الشعر ،

---

(١) انظر مقدمة الطبعة الهندية للديوان سنة ١٣١٠ هـ .

فهو شاعر مجيد تتمثل فى شعره الأصالة والبراعة ومتانة الفكر وسمو الغاية ، كما تتمثل فيه قوة العزيمة ، وجبروت النفس وصدق التجربة ، كما أنه طويل النفس فى معظم قصائده ، وسنلاحظ من خلال استعراضنا لأقوال من ترجموا له ثناءهم على شعره ووصفهم له بالجود وحسن السبك .

فمنهم (ابن ماكولا) الذى وصف ابن مقرب بأنه : شاعر محسن[٢] ووصفه بعض متقدمى عصره بأنه : (فريد دهره المتقدم على متقدمى عصره حسن السبك فى شعره ، جزل الألفاظ فى كلمه ، كثير الأمثال فى نظمه) وأنه (لم يتسكسب بالشعر لعطايا ، ولم يمتدح ذى ثروة من البرايا ، وانما كان مديحه أكثره فى أهل بيته وعشيرته وهم ملوك البحرين وله فيهم المدائح والمعاتبات والنصائح)[٣] ، وقال عنه الحافظ المنذرى : (كان شاعرا مجيدا مليح الشعر)[٤] ، وقال عنه ابن الفوطى : (كان شاعرا مسترفدا جزل الألفاظ)[٥] ، وممن امتدحه كثيرا ابن الشعار الموصلى فقال عنه : (كان شاعرا مجددا منتجعا ، كثير المدح قليل الهجاء ، جيد القول متينه ، قوى اللفظ رصينه ، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهير فى عصرنا المعروفين ، أقر له الحذق أئمة العراق من ذوى الأدب والعلم ، ومذهبه فى الشعر مذهب الشعراء المتقدمين فى جزالة الألفاظ وابداع المعانى)[٦] .

وعلى أية حال فابن مقرب فى معظم قصائده — ينهج نهج متقدمى الشعراء ويسير على منوالهم ويترسم خطاهم وسننهم ، حيث يبدأ القصيدة بغرض خارجى بعيد عن غرضها الأساسى ، ثم ينتقل الى غرض

---

(٢) الاكمال — لابن ماكولا .
(٣) مخطوطة مجهولة المؤلف — دار الكتب — رقم ٦٣٧ تاريخ .
(٤) التكملة لوفيات النقلة .
(٥) ابن الفوطى — تلخيص مجمع الآداب .
(٦) ابن الشعار الموصلى — قلائد الجمان فى شعراء الزمان .

آخر وربمـــا الى أكثر ، حتى ينتهى به المطـياف الى التخلص فى براعة وحسن من تلك الأغراض الى الغرض الرئيسى فى القصيدة ، على أنه قد يستهل قصيدته بالغرض المنشود رأسا وبدون أية مقدمات ، ومن تحصيل الكلام أن نقول أن القصيدة عنده ليست وحدة قائمة ، وانما البيت فى الغالب هو الوحدة ، فهو يجىء مستقلا بذاته عما قبله وعما بعده ، وهذا هو شأن معظم الشعراء العرب .

وفيما يلى سندرس أهم الأغراض التى قال فيها ابن مقرب شعرا وسنحاول أن نبين قدر الامكان الظواهر التى تميز بها هذا الشعر مع ايراد الأمثلة بقدر المستطاع للتدليل على ما نقول .

١ ـــ المديح :

استنفد غرض المدح من شعر ابن مقرب أكثر من نصف قصائد الديوان ، وبالتحديد حوالى (٥٢ قصيدة) ــ من أصل مائة قصـــيدة موجودة بالديوان[٧] ، وقد صرف معظم هذه القصائد المدحية فى أبناء عمه الأمـــراء العيونيين وذلك بغرض استرداد أمـــلاكه وأمواله التى اغتصبوها منه جورا وظلما ، وباقى مدائحه قالها فى غيرهم من الأمراء والأعيان غير العيونيين الذين كانت تربطه بهم علاقات ود وصداقة ، وهو كما قال عن نفسه لم يمدح من لم يستحق المدح فهو لم يمدح فدما فى حيـــاته .

وليس فى الشـــعر من فضـــل يطول به
مثلى ولـــو فاق أعـــلى سبعها الطـــول
بـــل فضـــل مثـــلى أن يســـمو بهمتـــه
عن مدح فـــدم عن العليـــا فى شـــغل[٨]

(٧) الديوان ــ طبعة دمشق ــ الطبعة الأولى .
(٨) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٣٨٣ .

ويمكننا بعد ذلك تقسيم ممدوحى ابن مقــرب الى قسمين :

القســم الأول :

ويضم أبناء عمه الأمراء العيونيين ، وهؤلاء ــ كما قلنا ــ نالوا نصيب الأسد من مدائحه ، ونلاحظ على مدائحه فيهم أنها تمتزج غالبا بالفخر ، وهذا ليس بالغريب اذا علمنا أن ابن مقرب عندما يمدحهم فانما يمدح نفسه وانه عندما يفخر بهم ، فانه يفخر بماضى آبائه وأجداده لأنه منهم وبهم ، ومــا يصيبهم من قوة أو ضعف ســيعود عليه حتما وسيتأثر به • ومن الملاحظات الأخرى أيضا على مدائحه فى هذا القسم حرارة العاطفة وصــدق الشــعور وقوة الاندفاع فى الاشــادة بمآثر الممدوحين وصفاتهم من شجاعة وكرم وشبه ذلك •

القســم الثــانى :

ويشمل كل من مدحهم ابن مقرب من غير الأسرة العيونية وأهمهم الخليفة العباسى الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء ، والأمير شمس الدين باتكين أمير البصرة ، وقد تضمن الديوان حوالى (٧) قصائد قالها فى مدح هذا الأمير وحده مما يدل على قوة الصله التى كانت تربط بين الرجلين • كما مدح الشاعر كثير من الأعيان والولاة ولكن فى قصائد قليــــلة •

ومدائحه فى أصحاب هذه المجموعة ــ وان كان لا ينقصها الصدق ــ الا اننا نلاحظ عليها افتقاد الروح المندفعة التى نلاحظها على مدائحه فى القسم الأول ، كما نفتقد فيها حرارة الشعور وفيض العاطفة •

ومن أمثلة مدائحه فى أبناء عمه الأمراء العيونيين قوله يمدح الأمير

محمد بن ماجد بن محمد العيونى لما ملك الاحساء من البحرين فى قصيدة طويلة منها[٩] :

وانـــى بقـــومى للضــــــنين واننـــى
على بعـــد دارى والتنـــائى بهم حـــدب

ولـــى فيهم ســـيف اذا مـــا انتضيتـــه
على الدهر أضحى وهو من خيفـــة كلب

على أن حـــد الســـيف قـــد ربمـــا نبـــا
وفـــل ، وهـــذا لا يفـــــــل ولا ينبـــو

همـــــام علـــت همـــاته فـــــكأنمـــا
يحاول أمـــرا دونـــه الســـبعة الشـــهب

عـــــلا كـــل بـــاع باعـــــه وتواضـــعت
لعـــزته ، وانقـــادت العجـــم والعـــرب

ســـليل عـــلا من دوحـــة طـــاب فرعهـــا
وطـــالت ذرى أغصـــانها وزكى التـــرب

يبيـــت مناويـــــه يســـــاور همـــــه
ويقضـــــى عليه قبـــل أن يقضـــى له نحب

ســـما للعـــلا من قبـــل تبقيـــل وجهـــه
فأدركهـــا والمـــأثـــــرات لـــــه صـــحب

هـــو البـــدر لـــكن ليس يســـتر نـــوره
حجـــاب ونور البـــدر يســـتره الحجب

---

(٩) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٣٢ . ونبا السيف : لم يقطع ، فل : ثلم ، بقل وجه الغلام : خرج شعـــره ، القرب : ادخـــال السيف فى القـــراب .

هـو الليث لـكن غابـه البيض والقنـا
هـو النصـل لـكن كل متن لـه قـربه

هو المـوت لـكن ليس يقتـل غيـلة
هو البحـر الا أن مـورده عـذب

رمـا غالبتـه منـذ كان كتيبـة
لتظهـره الا وكـان لـه الغـلب

وما هابـت الأمـلاك بـكرا من العـلا
لعزتهـا الا وكـان لـه الخطب

أتـانى مـن الأبناء عنـه غرائـب
فلذت بهـا الأسـماع واسـتبشر القلب

بعطـف عـلى ود العشـيرة صـادق
ورفض عـداها لا محـال ولا كـذب

وتجمـيرها مـن كـل أوب حميـة
عليهـا فـزال الخـوف والتـأم الشعب

فنلاحظ فى هذه الأبيات ما سبق وقلناه من صدق العاطفة وحرارة الشعور نحو قومه فهو ضنين بهم على رغم الأقدار التى رمت به بعيدا عنهم والظروف التى اضطرته للابتعاد عن وطنه وهجران داره ، وهو يؤكد هذا الشعور مرة أخرى عندما يبين قوة صلته بالأمير الممدوح ويشبه هذه العلاقة ، بعلاقة السيف بحامله والتصاقه بيده ، وليس أقرب من هذه العلاقة ولا أقوى من هذا التصوير ، الذى ان دل على شىء فانما يدل على قوة وفائه لعشيرته على رغم ما أصابوه به من كوارث ونوازل وحرمـان •

ثم ان الشاعر يصف الممدوح بعلو الهمة ، حتى انه لعلو همته يبدو وكأنه يحاول الوصول الى أمر دونه كواكب السماء العالية البعيدة وأنه

لقوته وعزته واتساع ملكه الذى فاق كل الأملاك قد أذعنت له العرب والعجم ، وما ذاك الا لأنه سليل عزة تقوى الأصل ، طيب الأرومة ، من دوحة طاب فرعها ، ومن آباء كرام طالما رفعوا راية العزة ، وكان لهم النصر والغلبة ، وأنه من شدة هيبته يبيت عدوه خائفا منه يساور همومه، ومخاوفه ، فيقضى عليه من شدة الهم قبل أن يحين أجله !! ثم يقـول عنه بأنه (سما للعلا من قبل تبقيل وجهه) أى من قبل أن يخرج الشعر فى وجهه ، وهذا كناية عن تطلعه الى عظائم الأمور منذ حداثة سنه وهو لما يبلغ بعد مبلغ الرجال .

ثم يشبهه فى جمال وجهه بالبدر الذى لا يستره ساتر ولا يحجبه حجاب ، وفى شجاعته بالأسد وفى مضائه بالنصل المشرع دائما وليس له قراب ، وفى شدة فتكه بالأعداء بالموت ، الا أنه لا يقتل غيلة — بل يأتى أعداءه جهارا نهارا ، وهذا أدل على شجاعته ، ويشبهه فى كرمه بالبحر الذى عذب ماؤه . ثم يحكى الشاعر أنه سمع عن الممدوح أنباء لذ بها سمعه واستبشر بها قلبه ، وهى عطف الأمير على عشيرته التى هى عشيرة الشاعر ، وبأنه عمل على توحيد أمرها ، ولم يشملها ، ورأب صـدع تفرقها ، حتى زال الخوف ، وعاد الأمن والاجتماع بعد التفرق والتشتت، وكل هذه المعانى يرددها الشاعر فى أغلب مدائحه لأبناء عمه ، لأنه كما ذكرنا منهم وبهم ، وهذا يلاحظه بجهد بسيط كل من يقرأ مدائحه الكثيرة فيهـــم .

ومن أمثلة مدائحه فى القسم الثانى قوله يمدح الأمير شمس الدين باتكين أمير البصرة من قصيدة لامية طويلة ويكنيه بأبى شجاع(١٠) .

---

(١٠) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٠٩ . اتراك لا نظرا ولامعقولا اى لا نظر لديك ولا عقل ، مشكولا : مقيدا ، والشكال : حبل تشد به قوائم الدابة ، ابرم امره : قضاه او جمعه واحكمه ، تميل ميلا : اى منع الأعداء ان يميلوا عليها اى ميل فحصنها بذلك ، ند الجوامـع : اى فاقها بحسنـه وفخامته ، وغفا : الدثر .

يا عــاذلا بأبــى شــجاع غــيره
أتــراك لا نظـــزا ولا معقـــولا

تأبــى مــكارم باتــكين بــأن تــرى
أحـــدا لـــه فى ذا الزمـــان عديـــلا

جـرت الملـوك فلـم تشـق غبــاره
وجـرى فشـق غبــارها مشـــكولا

لــو لم يـكن بالبصـرة انقلبت بمـن
فيهــا وجـر بهــا الخـراب ذيــولا

كانت ســـوادا قبـــله فأعـــادها
مصـــرا تروقـك ممسـئا ومقيـــلا

بالتبــر والأنبــال والســور الـذى
منـــع الأعــادى أن تميـل ميـــلا

والربـط بـين مـدارس ومشـــاهد
شـرفت وفضـل أهلهـا تفضيـــلا

أحـى بهـا للشـــافعى ومالـــك
وأبى حنيفـــة أحرفـا وفصـــولا

وبجامـــع نـــد الجـوامع كلهـــا
حســنا وعرضـا فى البنـاء وطـــولا

لولا اتفـــاق حريقـــه فى عصـــره
لعفـــا وعطـل رسـمه تعطيـــلا

كـم مـن رواق زاد فيـــه وحصـره
زادت الـــى ترفيـــله ترفيـــلا

وبنـــى بـــه للمســـلمين مقرمـــدا
تـــرك الخورنـــق فى العيـــون ضيئـــلا

ولقــد مضــت حقــب بهــا وســراتها
نهــب فأنقــذ شــبلوها المأكــولا

أفعـــاله للـــــه خالصـــة فمـــا
تلقــى لمعتقـــد الريـــاء مثيـــلا

لـــو كـــان فى الأمـــم الخـــوالى مثله
ملـــك لمـــا بعـــث الالـــه رســـولا

فصفات الأمير الممدوح من الكرم والشجاعة تأبى أن تجد له نــدا أو مثيلا ، ومن يفكر أن يعدل به غيره فى خلاله الكريمة فهو لا نظر له ولا عقل ، ولو لم يتول أمر البصرة لتحولت الى خراب ، ولكنه بحسن سياسته أعادها بلدا جميلا تروق للناظر صباحا ومساء ، وحصنها من الأعداء فباتت آمنة ، وبات أهلها آمنين سعداء ، ولكنه لم يكتف بذلك بل بنى المدارس ومعاهد العلم يدرس فيها العلمــاء تلاميذهم مذاهب الأئمة الكبار كأبى حنيفة ومالك والشافعى وغيرهم فأحيى بذلك العمل سنن الاسلام وشرائعه ، ثم ان ابن مقرب يمدح الأمير باتكين بأنه بنى بالبصرة جامعا كبيرا بذ الجوامع كلها فى الحسن وفى ضــخامة البناء ، ويستطرد فى ذكر أوصاف هذا الجامع ويقارن بينه وبين قصر الخورنق الذى بناه النعمان الأكبر فيقول ان هذا الجامع ترك قصر النعمان ضئيلا بجانبه ، ثم يخلص من ذلك كله الى القول بأن أفعال الأمير باتكين خالصة للهوليس للرياء فيها نصيب ، ثم يقول مادحا له ومبالغا فى مدحه بأنه لو كان يوجد أحد يملك مثل صفاته ، وخلاله ومناقبه لما احتاج الاله الى ارسال رســول !!

وبالرغم من هذا الحشد الهائل من المدائح والمبالغات وذكر مآثر الممدوح وأعماله ، فاننا نفتقد فيها حرارة العاطفة وصدق المشاعر التى نجدها فى مدائحه لأبناء عمه ، على أننا من جهة أخرى نقف بمثل هــذا الشعر على مدى ما وصلت اليه البصرة فى عهد الأمير باتكين من الناحية التاريخية من تطور وازدهار ، وما أنشأه فيها هذا الأمير من اصلاحات

وأعمال عمرانية جعلت شاعرنا يلهج بمدحه والثناء عليه . وهذه ناحية سنعرض لها بشيء من التفصيل عندما نتحدث عن ظاهرة السرد التاريخي في مدائح ابن مقرب ان شاء الله .

ابن مقرب الشاعر التقليدي :

يمكن القول بأن أوصاف ابن مقرب لمدوحيه وتشبيهاته لهم ، تدور في معظمها — وكما رأينا في المثالين السابقين — حول المعاني التقليدية المتداولة من حيث وصف الممدوح بالشجاعة وتشبيهه بالأسد في الشجاعة وبالبحر في الكرم ، وبالبدر في جمال الوجه وبالسيف في مضائه وقوته ، الى آخر هذه المعاني التي صاغها ابن مقرب على طريقة الشعراء المتقدمين ، فهو يبدأ قصيدته بالغزل بالمحبوبة ثم يصف رحلته الى الممدوح ويذكر ماتكبدفيها من مشاق وما لقى من عنت . وينتقل بعد ذلك الى غرض آخر من الأغراض وهكذا حتى يخلص الى مدح الممدوح وذكر مآثره والاشادة بمناقبه الحميدة وخصاله العظيمة .

هذا من ناحية المعاني ، ومن ناحيـة الألفاظ فهو كما رأينا تتميز بقوة الألفاظ ورصانتها وجزالة اللغة وفخامتها ، وهـذا ما يدفعنا إلى القول بأنه درج على نهج الشـعراء العرب الأقدمين سـواء من ناحية الألفاظ أو المعاني .

هذا وقد صنفه أحـد النقاد المحدثين[١١] تحت قائمة الشـعراء التقليـديين ، وقارن بينـه وبين شـاعر آخر من عصره هو الشـاعر (الأبيوردي) فقال أولا عن الأبيوردي : (والأبيوردي الشاعر العربي ، عاش بأصبهان وكان ينتسب الى بني أميـة وعبد شمس ، وكان كثير الاعتزاز بنسبه هذا في شعره ، كما كان دائم الفخـر بعروبته ، وكان

---

(١١) انظر الأدب في العصر الأيوبي — د. محمد زغلول سـلام — ص ٢٥٢ .

ينهج منهج الشعر العربى القديم فى الصياغة والمعانى جميعا) ، ثم يقول عن ابن مقـــرب : (وقريب من روح الأبيوردى وطريقتـــه ابن مقرب الاحسائى ، وهو شاعر بدوى وطنا وروحا ، وهو صاحب نفس طموح كصاحبه ، يسعى الى المجد وبلوغ أمل بعيد يظـــل طول حياته يعمـــل لبلوغه)[١٢] .

ومن نماذج شعر ابن مقرب التقليدى الذى يظهر فيه اتباعه لمناهج الأقدمين فى الصياغة والوقوف على الدمن والآثار فى مستهل قصـــيدة المدح قولـــه : [١٣]

أمـــن دمنـــة بـــين اللـــوى والدكـــادك
شـــغفت بتـــذارف الدمـــــوع السوافك

عفـــت غـــــير آرى وأورق حائـــــــل
وأشـــعث مشـــجوج وســـفع روامـــك

ونـــؤى كجـــذم الحـــوض غـــير رسمه
وجيـــف الحصـــى بالموجفـــات الحواشك

كـــأن فـــــؤادى ناطـــــه ذو ســـخيمة
قايـــل التنحـــى فى صـــدور النيـــــازك

ثم ينتقل من وصف الديـــار الى الحديث عن أهلها المزمعون على الرحيل ومن بينهم صاحبته التى يتغزل بها فيقول :[١٤]

وفى الجـــيرة الغـــادين لا عـــن مـــلالة
ظبـــاء عـــلى تلـــك الهجـــان البوائـــك

---

(١٢) انظر الأدب فى العصر الايوبى — د. محمد زغلول ســـلام — ص ٢٥٢ .

(١٣ ، ١٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٠٥ — ٣٠٧ .

خمــاص الحشــا حم الشــفاه كأنمــا
يلثن مــروط العصــب فــوق العــوانك
ويســمن عــن نــور الأقاحى لم يــزل
يغــذى بــدرات الذهــاب الركائــك
وفيهــن من ذهــل بــن شــيبان غــادة
يطيــب رياهــا عبــير المــداوك
كــأن عــلى فيهــا ســلافة قرقــف
وقــد غــورت أم النجــوم الشــوابك

وبعدها ينتقل الى الفخر بنفسه وعلو همته ومضاء عزمه :(١٥)

فــوا للــه مــا أدرى أأعــراض بغضــة
لنــا أو دلال فافصــحى عن مقــالك
فــلى همــة عليــا ونفــس أبيــة
تمــج وصــال اللاويــات المــواعك
ولــى عزمــة ان ســاعد الحظ أشــرفت
ونافــت على شــم الرعــان الســوامك

ثم بعد عدة أبيات يخلص الى المقصود بالمدح فيقول :(١٦)

يضــىء ســناها بالدجــى متنمــر
عــلى الدهــر مودى البرك رحب المبارك

(١٥ ، ١٦) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٣٠٨ — ٣٠٩ — ومج الشىء : كرهه ، والمعك : المكال ، نافت : اشرفت ، والرعان : جمع رعن وهو أنف الجبل ، والسوامك : الطوال . البرك : الابل الكثيرة ، موديها : ناحرها ، المستأثرات : السيوف المأثورة ، البواتك : القواطع ، العبد ليون : نسبة الى عبد القيس ، الأواب : الكثير الرجوع الى الحق. والباعك : الاحمق. البين : الفراق ، والخط : مرفأ بالبحرين قديما .

أغـر نمـــاه كـل حـــام ممانـــع
عــن المجـد بالمســتأثرات البــوانك
مــن العبــدليين الألــى فى أكفهــم
حيـــاة لأواب ومـــوت لبـــاعك

ومثال آخر من قصيدة يبدؤها بالحماســة ، ويحث نفســه على النهوض فى طلب العلا :(١٧)

بينــى فمــا أنت من جــدى ولا لعبــى
مــالى بشــىء ســوى العليــاء من أرب
لا تكثــرى مــن مقــالات تزيــد ضنى
ما الخط أمــى ولا وادى الحســاء أبى
فى كـــل أرض اذا يممتهـــا وطـــن
مــا بــين حــر وبــين الدار من نســب

ثم ينعى على القاعدين من قومه الراضين بالذل والمهانة :(١٨)

يا ســاكنى الخط والأجــزاع من هجــر
هل انتظــاركم شــيئا ســـوى العطب
بححــت ممــا أناديـــكم وأندبـــكم
لخـــير منقـــلب عن شـــر منقـلب

---

(١٧) المصدر السابق ص ٧٤ .

(١٨) الديوان ــ طبعة الاحساء ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ .
الاجزاع : جمع جزع وهو منعطف الوادى ، والعطب : التلف ، بح صوته : خشن وغلظ ، فرس ذيال : طويل الذيل ، سابغة:واسعة . سيف ذو شطب: حاد ، والناقة العيدية : من كرام الابل ، ناجية : سريعة ، والشد : العدو ، والجنب : ضرب من العدو ، والخمس (بالكسر) : أن ترعى الابل ثلاثة أيام وترد الرابع ، والدوية : الفلاة : والرالة : ولد النعام ، وذى نجب : موضع .

فســــكوتى بقــيول لا يتفــــون بـــه
قـــد صـبرت أرضـــى بوعد منكم كـــذب

ثم ينتقل الى الافتخار بنفسه وبطموحه ويصـــف ناقته بالسرعة وقوة التحمل :(١٩)

اذا الديـــار تغشـــاك الهـــوان بهـــا
فخلهـــا لضـــعيف العـــزم واغـــترب
حســبى من المـــال ذيـــال وســـابغة
وصـــارم مرهـــف الجـــدين ذو شـــطب
وحـــرة من بنـــات العيـــد ناجيـــة
لا تعـــرف الســير غير الشـــد والخبب
تخالها بعـــد خمس الركـــب رائجـــة
دويـــة فقـــدت رألا بـــذى نجـــب

ويخلص من كل ذلك الى وصف الممدوح :(٢٠)

تقـــول لى هممـــى خـــل المقـــام وقـــم
فانمـــا راحـــة الأبـــدان فى التعـــب
وارغـــب بمـــدحك الا فى ســـبيل عـــلا
ينمـــى الى الغـــر من آبائـــك النجـــب
متـــوج عبـــدلى حـــين تنســـبه
لخـــير جـــد اذا يدعـــى وخـــير أب

ولا يعنى ما قلناه عن الروح البدوية فى شعر ابن مقرب أن الصفة الحضارية منفية عنه وعن شعره ، بل ان شعره يزخر عموما وأماديحه

(١٩ ، ٢٠) المرجع السابق .

بشكل خاص بالصور الحضارية ، التى يسبغها على ممدوحيه ، والولاة منهم بالذات لما أحدثوه فى أمصارهم من عمران وازدهار وتطور، كمدائحه للأمير باتكين مثلا ، وقد مر بنا شيئا منها فيما سبق •

مقدمة قصيدة المدح :

نهج ابن المقرب فى قصيدة المدح نهج الشعراء الجاهليين والمتقدمين ، وذلك فى أغلب قصائد المدح ان لم يكن كلها ، فهو يبدأ القصيدة — كما رأينا — بغرض خارجى عن الغرض الأساسى ، ثم ينتقل الى غرض آخر وهكذا حتى يصل الى الغرض الأساسى من القصيدة • على أنه ربما استهل قصائده بالدخول الى الغرض المنشود مباشرة ودون مقدمات كقوله :

بمعاديك لا بك الأسواء
ولحسادك الثرى لا الثراء(٢١)

وقوله :

رماح الأعادى عن حماك قصار
وفى حدها عما تروم عثار(٢٢)

وقوله :

رويدك يا هذا المليك الحلاحل
فما المجد الا بعض ما أنت فاعل(٢٣)

الا أن هذا قليل فى شعره •

---

(٢١) الديوان — طبعة الاحساء ص ٢٣ .
(٢٢) المصدر السابق ص ٢٠٧ •
(٢٣) نفس المصدر ص ٣٤١ .

على أنه يمكننا تصــنيف مقدماته فى قصيدة المـدح الى الأنواع المكررة المعروفة وهى اما مقدمات غزلية أو حماسية أو مقدمات يقف بها على الديار ، والدمن ، ويبكى الطلول ومنازل الأحبة أو مزيجا من كل ذلك ، وكل ذلك تطرق اليه الشعراء المتقدمون وهو معاد ومكرر ، يقول ابن رشيق عن عادة الشعراء فى ذلك :

« والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفــاوز ، وما أنضى من الركائب ، وما تجشم من هول الليل وسهده ، وطول النهار وهجــيره ، وقلة المــاء وغؤوره ، ثم يخرج الى مــدح المقصود ، ليوجب عليه حق القصد وذمام القاصد ، ويستحق منه المكافأة »[٢٤] .

وتتجلى عناية ابن مقرب بمقدمات قصائده وتمهيده بها للغرض الأساسى فى تطويل بعض هذه المقدمات حتى يصل بعضها الى (٥٩) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٨٠)[٢٥] بيتا ، وأخرى الى (٣٣) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٥٨) بيتا[٢٦] ، وأخرى الى (٢٩) بيتا من قصيدة عدد أبياتها (٦٤) بيتا[٢٧] ، وغير ذلك .

كما عنى ابن مقرب بتجويد مطالعه لأنها أول ما يقرع أذن السامع وبها يستدل على بضاعة الشاعر من أول لحظة ، فجاء مطلع قصيدته كما طالب به ابن رشيق الشعراء أن يكون « حلوا سهلا وفخما جزلا »[٢٨] .

---

(٢٤) ابن رشيق — العمدة — ص ٢٢٦ .

(٢٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٦٠١ ..

(٢٦) المصدر السابق ص ٥٨٥ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٤٥٠ .

(٢٨) العمدة — لابن رشيق — ص ٢١٨ .

ومن أمثلة مطالع ابن مقرب الفخمة الجزلة قوله فى الحماس :

سـقها ولو ذهب السـرى بسـراتها
كـم ذا تـرد النفس عن عزماتهـا(٢٩)

وقولـه :

أقيمـا على حـر المـدى أو ترحـلا
فلسـت براض منزل الهـون منزلا(٣٠)

وقولـه :

عنـى اليـك حـوداث الأيـام
مـا كل يـوم يسـطاع خصـامى(٣١)

ومن مطالعه الغزلية قوله :

أرتهـا المـآقى مـا تـكن الجوانـح
فبح فالمعنـى بالصـبابة بائـح(٣٢)

وقولـه :

تخفـى الصـبابة والألحـاظ تبـديها
وتظهر الزهـد بـين الناس تمويهـا(٣٣)

---

(٢٩) الديوان طبعة الاحساء — ص ١٠٥ ، والسرى : سير عامة الليل ، والسراة : اعلى كل شىء .
(٣٠) المصدر السابق ص ٣٦٤ .
(٣١) نفس المصدر ص ٤٩٨ .
(٣٢) نفس المصدر ص ١٢٠ .
(٣٣) نفس المصدر ص ٦٠٩ .

حسن التخلص :

على أن براعة ابن مقرب حقا تظهر فى حسن تخلصه وانتقاله من غرض الى غرض بطريقة تبقي الكلام على سلاسته وانسيابه فلا يحس القارىء بأى انقطاع أو طفرة قد تغير من مجرى الكلام أو تحول أثره فى النفس .

ومن نماذج حسن تخلصه قوله يمدح الخليفة العباسى المستنصر بالله :

فكم لذا اليوم من دوية قذف
قطعت والقلب فى أهوالها يجب
تبدو بها الجن لى حينا وآونة
تبث أصوائها حولى وتنتحب
فحين أكثرت التهويل قلت لها :
هذا التهول جد منك أو لعب ؟
حسبى أبو جعفر مما يدل على
وجه البسيطة أو يعتر أو يثب (٣٤)

وقوله من قصيدة يمدح بها الأمير حسن بن مسعود : (٣٥)

رعى الله أيام الشباب فانها
هى العمر يا طول الأسى باستلابه
وجاد ديار الحى من أيمن الحما
مرب يوارى الهضب دانى ربابه

---

(٣٤) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٩٣ ، الدوية : البرية ، القذف : المضلة ، يجب : يخفق ، المعتر من الرجال : الشرير .
(٣٥) المصدر السابق ص ١٠١ ، [illegible] : السحاب الأبيض ، واللها : الكثير من العطاء .

كجـود ابن مسـعود الفتـى الواهـب
اللها ، ومخجل منهـل الحيا فى انسكابه

وقوله من قصيدة يمدح بها الأمير محمد بن عبد الله بن سنان:[٣٦]

أمـالنـا لعبت أهـل الفسـاد بهـا
فدمروهـا بـلا فـكر ولا نظـر
لم يبـق فى خـيرها فضـل ولا سـعة
عن العـدو لذى نفـع ولا ضـرر
أمـا ولـولا ابن عبـد اللـه لا كذبـا
لاسـتهلكت بـين نـاب الشـر والظفر

وقوله يمدح فخر الدين بن هبة الله الدوامى ببغداد وكان أسدى له معروفا :

يقـولون مات الأكرمـون وأصـبحت
بحـار النـدى قاعـا من الخير صفصفا
ولـم يبـق فى هـذا البـرية ماجـد
يـلاذ بـه ان ريـب دهـر تعجـرفا
فقـلت لهـم أخطـأتم ان للنـدى
وللجـود بحـرا يقـذف الـدر مردفا
فمـا دام فخـر الدين يبقـى ونسـله
فلا تسـألوا عمـن مضى أو تخلفـا[٣٧]

ومن قصيدة له يستنجز الأمير أبا ماجد محمد بن على ما كان وعده من رد أملاكه قوله :

---

(٣٦) الديوان ص ٢٤٢ .
(٣٧) الديوان — طبعة الاحساء ص ٢٨٥ .

فقـلت لهـم مـا ذاك نجـم ترونــه
بناحيــة الخضــراء ذات الحبائــك
فقالوا : فمـاذا ؟ قلت : نـار بربـوة
تشـب لأبنـــاء الهمـــوم الضرابــك
يضــئ ســـناها بالدجــى متنمــر
على الدهر مـودى البرك رحب المبــارك
أغـــر نمــــاه كل حـــام ممــانع
عن المجـد بالمســتأثرات البواتــك(٣٨)

ومن شعره فى الأمير باتكين قوله :(٣٩)

فثم تلاقـــوا الملـوك بنــــى أبــــى
ويكثــر عنــى حينـــذاك ســـؤال
فقــولوا لهـم انــا تركنـــا أخاكــم
بحيث مـــال الراغبـــين مـــآل
لـــدى ملـك لا يبلــغ الوصـف مدحه
وان أطنــب المـــداح فيـــه وقــالوا

الى آخر ما قاله من حسن انتقال وبراعة فى التخلص ، رأينا أن نقتصر على ما ذكرناه ففيه الكفاية ، وفى ديوان الشاعر مزيدا لمن شاء أن يستزيد •

(٣٨) المصدر السابق ص ٣٠٩ والخضراء ذات الحبائك : السماء المتشابكة ، الضرابك : الفقراء ، المستأثرات : السيوف، البواتك : التواطع.
(٣٩) الديوان ص ٤٣٦ .

محتوى قصيدة المــدح :

درسنا فيما سبق قصيدة المدح عند ابن مقرب من ناحية المطالع والمقدمات ومثلنا لذلك ببعض الأمثلة ، ثم رأينا ـــ بالأمثلة أيضا ـــ كيف أن الشاعر يجيد حســن التخلص ، والانتقال من المقدمة الى غرضــه الرئيسى وهو المدح ، وعندما يصل الى هذه المرحلة يحرص على الاجادة فيها حرصه على مطالعه ومقدماته ، فيبــدأ أولا بذكر مناقب الممدوح وصفاته من شجاعة وكرم ، ويوضح شخصيته وما تتميز به من خلال عظيمة ، ثم يتبع ذلك بمقاطع يشيد فيها بآباء الممدوح وأمجادهم ، وقد يذكر بين ذلك أو ما قبله صلته بالممدوح اذا كان من بنى عمه وقرابته ، ويفرع من ذلك بعض المقاطع فى الفخر بالعشيرة العيونية، مادام الممدوح يمت اليه بصلة القرابة اذ الفخر فى النهاية راجع لكليهما ، ولكن بدون أن يطغى ذلك على مدح الممدوح ، وقد يستطرد بعد ذلك فى وصف موقعة أبلى فيها الممدوح بلاء حسنا فيصف شجاعته وما ألحقه بأعــدائه من الرعب والفزع والهزيمة والتشتت ، أما اذا كان للممدوح يدا عليه فيذكر كرمه ويشيد بسخائه ويعلو نداه على من سواه ، وقد يمدح الممدوح بعد ذلك بطريقة غير مباشرة من خلال رثاء والده فيستطرد فى ذكر مناقب هذا الوالد الراحل ومناقبه ويخلص من ذلك الى القول بأن هذا الشبل من ذاك الأسد • وربما مدح الممدوح بهجاء أعدائه وبأنهم قصروا عن الوصول الى صفاته النادرة وعجزوا عن مثل أعماله العظيمة •

وهذا الكلام يجرنا الى ملاحظة ظاهرة هامة على قصيدة المــدح عند ابن مقرب أيضا وهى :

ملاءمة القصيدة للممدوح :

فبالاضافة الى الأمراء العيونيين مدح ابن مقرب أصنافا من الناس منهم الخلفاء والأمراء والولاة وغيرهم من الأعيان المعروفين فى زمنه ، ومدح كل طائفة بما يلائمها وذكر لكل شخصية ما يناسبها من صفات وخلال تعرف بها •

فهو حين يمدح بنى عمه نراه يكرر معان بعينها • فيفخر بطيب أصلهم وأرومتهم وشجاعتهم وكرمهم واقدامهم فى الحروب ، كل ذلك فى معان قوية وألفاظ جزلة رنانة تناسب مقامهم ومكانتهم كملوك لبلاد البحرين وحين يمدح الخليفة العباسى يمدحه بلغة فخمة تناسب مكانته فى مركز الخلافة ، وغالبا ما يميل الى المبالغة والغلو فى ذلك مع الاشادة به فى حفظ أمن البلاد وصلاح الأمة وفى تقواه وحسن اسلامه •

من ذلك مدحه بأنه امام هدى ينتسب الى آل هاشم ، وبأن الملوك تطوف بفنائه كما يطوف المحرم بالركن اليمانى :

ففى شاطىء الزوراء من آل هاشم
امام هدى يؤوى اليه فيعصم[٤٠]
تطوف الملوك الصيد حول فنائه
كما طاف بالركن اليمانى محرم
ترجى به دنيا ودينا لأنه
الى الله فى الدنيا وفى الدين سلم

وهو ينتسب الى رهط النبى صلى الله عليه وسلم الذى سيشفع للناس يوم الميعاد :

---

(٤٠) الديوان — طبعة ... ـاء — ص ٤٥١ .

وهـل مثـلـه يـوم المعـاد وسـيـلة
الى الإلـه الا رهطـه المتقـدم
أبوتـه امـا نبـى معظـم
الى اللـه يدعـو أو امـام مـكرم[٤١]

وبأنه الذى ألقت اليه الناس مقاليد أمورها من عرب وعجم وصار الناس والأملاك عبيدا له :

وألقـت اليـه بالمقـادير بلغـر
وعـرب وأكـراد وتـرك وديلـم
ومـا النـاس والأمـلاك الا عبيـده
صـريحهم ان ينسـبوا والمخضرم[٤٢]

وبه قوى الاسـلام وأنه حرت أعداؤه وذلك بسـبب قوة جيش الخليفة :

وأضـحى به الاسـلام غضـا وأصبحت
عيـون الأذى عـن سـربه وهـى نوم
وقـد حفقـت راياتـه وبنـوده
فوجـه بلاد الشـرك بالضيم يلطم[٤٣]

وعندما يمدح الأمير بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل يمدحه بما يناسبه كوال من ولاة الخليفة ، ويذكر الناس برضا الخليفة عليه :

وحسـبه مفخـرا أن الامـام بـه
بـر وأن لـديه شـأنه جـال

(٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٤٥١ — ٤٥٢ .
بلغر : مدينة الصقالبة . والديلم : اهل قزوين . صريح النسب : خالصه . والمخضرم : المختلط النسب .

أمـامنـا الناصر الهـادى فما اختلفت
فيـه العبـاد وما جـاءت به الرسـل
خليفـة قسـما لـولا محبتـه
لـما تقبـل من ذى طاعـة عمـل
هـو الـذى افترض الرحمـن طاعتـه
ومن سـواه فـلا فرض ولا نفـل(٤٤)

وعندما يمدح الشيخ محب الدين الواسطى وهو من علماء واسط المشهورين بالورع والزهد يمدحه بعبارات تلائم مكانته هذه ويقارن بينه وبين أمثاله من الزهاد المشهورين ، فيقول مادحا له بأن القلم علا شرفا على الرمح الدال على الشجاعة بسببه وبسبب مكانته العلمية :

بـك يا محـب الدين طالـت فاعتـلت
شرفا عـلى الخطيـة الأقـلام(٤٥)

وبأنه أحيا زهد بشرا والجنيد وعامر وكلهم أئمة فى الزهد والعلم:

أحييـت بشـرا والجنيـد وعامـرا
زهـدا وكـل اذ يعـد امـام(٤٦)

وأقام للامام الشافعى القرشى حججا فى آرائه :

وأقمـت للقرشـى فى آرائـه
حججـا يقصـر دونهـا النظـام(٤٧)

---

(٤٤) الديوان ص ٤٤٦ .

(٤٥ ، ٤٦) المصدر السابق ص ٥٦٩ .

(٤٧) المصدر السابق .

ولو جحد العظماء فضله فان المساكين والأيتام يقرون بفضله عليهم واكرامه لهم ، فهو يتصدق على الأرامل فى الخفاء بعدا عن الرياء :

ان يجحــد العظمــاء فضــلك فيهـــم
فبنــو الســبيل تقــر والأيتـــام
لــك حــين يعتــكر الظــلام صــنائع
تغشــى الأرامــل والعيــون نيــام(٤٨)

واذا اعتبرنا الرثاء نوعا من المدح كما يقول بعض النقــاد فلابن مقرب شعرا رثى به القاضى محمــد بن ابراهيم المستورى ، وذكر من خلاله مناقبه وما يناسبه كقاض اتصف بالورع والعــدل والاغضاء عن الهفوات :(٤٩)

ولــو شــاء جــازى بالعقــوبة قــدرة
ولــكن لــه من خشــية اللـــه رادع
يصــد عــن العــوراء حتــى كأنمــا
بــه صــمم عمــا يقــول المقــاذع

وله الحكم المأثورة فى مجالس الملــوك واذا تحدث غلب غيره من الخطباء المشهورين :

لــه حــكم مأثــورة حــين تلتقــى
بآرائهــا عنــد الملــوك المجامــع

(٤٨ ، ٤٩) المصدر السابق ص ٥٧٠ ، ص ٢٨٠ . المقاذع : الرامى بالفحش وسوء القول .

يقول فلا يخطى اذا ما تأخرت
عن القول سادات الرجال المصاقع(٥٠)

ويتسم بالتواضع والعدل فلا يفرق فى أحكامه بين قريب وبعيد :(٥١)

جميل السجايا كلما ازداد رفعة
تواضع حتى قيل ماذا التواضع ؟
سواء عليه فى القضية من دنت
به الرحم القربى ومن هو شاسع

ومنذ نشأته لم يعرف الجهالة ولا ملاحاة الناس وسبابهم :(٥٢)

نشأ مذ نشا لم يدر ما الجهل والخنا
وساد بنى أيامه وهو يافع
ولا عرف العوراء يوما ولا انتحى
الى خطة يبغى بها من يقاذع

وحينما يمدح ابن مقرب أحد آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو النقيب تاج الدين اسماعيل العلوى الحسنى يشيد بالبيت النبوى الذى ينتسب له الممدوح ، ويذكر مآثرهم فى الجاهلية والاسلام :(٥٣)

(٥٠ ، ٥١) المصدر السابق ص ٢٨١ . الرجل المصقع : البليغ . السجايا : الطبائع . والشاسع : البعيد .

(٥٢) نفس المصدر السابق ص ٢٨٠ . والجهل : ضد الحلم . والخنا : الفسوق . واليافع : من ناهز البلوغ .

(٥٣) الديوان ص ٦٥٥ .

سادوا قريشا علا فى جاهليتها
ومن يسامى قريشا أو يباريها
وكل علياء فى الاسلام فهى بهم
تبنى وقطب الرحى منهم وهاديها

ولا يسمو الى مجد بن حسن أحد من الناس مادام عنصرهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الامام على رضى الله عنه فأياديهم لا تحصى ولو أحصى تراب الأرض :(٥٤)

يا من يسامى الى مجد بنى حسن
عدمت رشدك هل خلق يساميها
قبيلة من رسول الله عنصرها
ومن على فتى الدنيا ومفتيها
ان القروم السوامى من بنى حسن
يحصى التراب ولا يحصى أياديها

وهكذا فابن مقرب أعطى كل ممدوح ما يناسبه ويلائمه من معانى المدح والافتخار .

ظاهرة العرض التاريخى فى مدائح ابن مقرب :

أكثر ابن مقرب من ذكر الأحداث التاريخية فى مدائحه للاشادة بالممدوح وأمجاده وأمجاد آبائه وقبيلته ، فأعطى نفسه بذلك مجالا أوسع فى المديح ، وزخرف قصيدته المدحية بألفاظ فخمة ضخمة زادت هذه الحوادث روعة وجلالا ، على أن أكثر ما تتبدى هذه الناحية فى مدائحه لبنى عمه الأمراء العيونيين ، ولا غرو فى ذلك ، فكون الشاعر

---

(٥٤) الديوان ص ٦٥ .

فرد من الأسرة العيونية حتم عليه أن يدرس ماضيها ويطلع على أمجادها ووقائعها التاريخية منذ نعومة أظفاره عن ظهر قلب • ومن ثم صاغها فى شعره وترجمها الى صور فنية تحييها فى النفوس ، وتخلدها فى الأذهان ، ويتذاكرها الأحفاد جيلا بعد جيل •

نرى مثال ذلك فى مدحه للأمير محمد بن أحمد بن أبى الحسين فقد ذكر بعض وقائعه التاريخية حين تجمعت على حربه قبائل أهل القطيف وآل حجاف وآل شبانه ، فهزمهم وشتت شملهم :

يا سائلى عنه رويدك هل ترى
يخفى الصباح على ذوى الأذهان
سائل به يخبرك كل مقلص
نهد وكل مثقف ويمانى
لما أتت أهل القطيف بجحفل
متوقد كتوقد النيران
فى آل حجاف وآل شبانة
مثل الأسود بحافتى خفان
نزلوا على صفواء صبحا وابتنوا
فيها القباب وأيقنوا بأمان
وتسربلوا حلق الحديد وأقبلوا
بالخيل والرايات كالعقبان
فغدت فوارسهم لما قد عاينت
هربا ولم تعطف على النسوان
فرمى الأمير جموعهم فتمزقت
كالشاء اذ جفلت من السرحان
وتحكمت فيهم حدود سيوفه
ضربا ، فويق معاقد التيجان

وحـوى ضـغائنهم وأحـرز مـا لهـم
غصـبا وأنزلهـم بشـر مـكان(٥٥)

وغير هذا كثير مما يزخر به شـعر ابن مقرب فى بنى عمـه على الخصوص وفى غيرهم عموما ، وسنعرض مرة أخرى عندما نتحدث عن غرض الفخر عند الشاعر لهذه الناحية التى تميز بها شعره والتى خلد فيها قومه ومآثرهم على مر الزمن ، ولولا ذلك لما عرفنا قليلا أو كثيرا عن هذه الدولة العربية الأصيلة ولاندثرت أخبارها كغيرها من الأمم الغابرة.

ومن الناحية الفنية تميز هـذا العرض التاريخى بذكر الأحداث العامة دون الدخول فى التفاصيل التى قد تخل من روعة شعره وفخامته.

ظاهرة الفخر بالقصيدة :

يرى ابن رشيق أن من آداب الشاعر ألا يكون معجبا بنفسه مثنيا على شعره « وان كان جيدا فى ذاته حسنا عند سامعه ، فكيف ان كان دون ما يظن » على أنه — ابن رشيق — جوز هذا الفخر اذ أراد الشاعر وترغيب الممدوح أو ترهيبه ، فيثنى على نفسه ويذكر فضل قصيدته(٥٦) وفخر الشعراء بشعرهم قديم متداول ، وقد خصص الجرجانى فى كتابه دلائل الاعجاز فصلا واسعا لوصف الشعر والادلال به لعدد من الشعراء أمثال كعب بن زهير وحسان بن ثابت وبشار والفرزدق ، وأكثر من ذكر الأوصاف التى وصف بها أبو تمام شعره وتشبيهه القلادة والبرد المنمنم،

---

(٥٥) الديـوان — ص ٦٢٠ ، قلص : وثب ، فرس نهـد : ارتفعت مراكله ، المثقف : الرمح ، اليمانى : السيف ، خفان : مأسدة ، الصفداء : الحجارة الصلدة . والصفا : نهر بالبحرين قديما ، تسربل : لبس السربال ، والعقاب : طائر جارح ، جفلت من السرحان : خافت من الذئب ، والضعينة: المرأة على الهودج .

(٥٦) العمدة ، لابن رشيق ص ٢٠١ .

أو أنها منقوشـــة كنقش الدنانير وأن صاحبها سهر الليـــل الطويل فى ابداعها ، ويذكر ابن رشيق فى العمدة أن أبا تمام كان أكثر الشـــعراء وصفا لقصيدته وروعتها وفخامتها ، كما عرف البحترى فخورا بشعره ينتظر مشـــاركة الآخرين اعجـــابه بقصيدته(٥٧) • وكان المتنبى يعتبر قصيدته جـــزءا من مفاخره الشخصية يدل بها ويفخر ويعلن توحده فى دنيا الشعر ، فالدهر من رواه قصائده ومن يقول بعده لن يأتى الا بالمعنى المـــكرر :

أجـــزنى اذا أنشـــدت شـــعرا فانمـــا
بشـــعرى أتـــاك المادحـــون مـــرددا
ودع كـــل صـــوت بعـــد صـــوتى فانني
أنا الصائح المحكى والآخر الصـــدى(٥٨)

وظاهرة الفخر بالقصيدة نراها كثيرا فى نهاية القصيدة المدحية عند ابن مقرب ، وهو عندما يعجب بشعره فهو لا يفعل ذلك لينال به الفخر مثل غيره من الشعراء ، وانما هو الرجل الماجد الذى يكفيه فخرا مكانته ومكانة قومه بين الناس :

اليـــك يـــا ابن رســـول اللـــه شـــاردة
بـــكرا يطـــول رواة الشـــعر روايهـــا
من ماجـــد لا يـــرى فخـــرا بقافيـــة
اذ كـــان فخر رجـــال من قوافيهـــا(٥٩)

وكثيرا ما يشبه ابن مقرب قصيدته بعقد الجواهر التى يضن بها

---

(٥٧) المصدر السابق ص ٢٠٤ ج ١ .
(٥٨) ديوان المتنبى ص ١٤ ج ٢ شرح البرقوقى .
(٥٩) الديوان ص ٦٥٦ .

على غير الممدوح ، والتى يقصر عن ترصيعها كبار الشعراء كالفرزدق والاعشيان والحطيئة :

اليك كمال الدين عقد جواهر
أضن بها عمن سواك وأبخل
يقصر عن ترصيعها فى عقودها
أخو دارم والأعشيان وجرول[٦٠]

وفى قصيدة أخرى يقول :

اليك عماد الدين عقد جواهر
تناهى فما يؤتى بعقد يشاكله[٦١]

ويذكر أحد ممدوحيه من بنى عمه بقيمة قصائده فى الاشادة بأمجادهم ، واعلاء كلمتهم :[٦٢]

فكم لى فى علياكم من غريبة
يظل مساميكم لها متضائلا
نتائج فكر غادرت كل فكرة
تنوح لما يحلو من الشعر حائلا

ويفخر بأنه خلد قومه فى شعره وكساهم به ثوبا من المجد يبقى جديدا على مدى الأيام :

كسوت قومى والبحرين ثوب علا
يبقى جديدا بقاء الحوت والحمل[٦٣]

---

(٦٠) المصدر السابق ص ٤٣٣ .
(٦١) نفس المصدر ص ٣٤٠ .
(٦٢) نفسه ص ٤٠٤ .
(٦٣) الديوان ص ٣٨٢ .

وعنده لهم من قصائد المدح ما يعجز عنه جرير وفحول الشعراء الأوائل :[٦٤]

وعنـــدى من المدح الذى ما اهتدى لـــه
جـــرير ولا تلـــك الفحـــول الأوائـــل

ويصف قصيدته وعذوبة ألفاظها بالنور الذى يغشى البلاد فتضىء سطورها كالدرر ، ولو سمعها جرير لقام لها جلالا واستعادها :[٦٥]

فـــدونك عـــذبة الألفـــاظ جـــاءت
بنـــور ســـاطع يغشـــى البـــلادا
تريـــك ســـطورها والليـــل داج
مزيـــد الـــدر مثنـــى أو فـــرادى
لـــو اجتـــازت بســـامعتى جـــرير
لقـــام لهـــا جـــلالا واســـتعادا

الدعـــاء للممـــدوح :

وغالبا ما يختم شاعرنا قصيدته بالدعاء للممدوح داعيا له بالبقاء وطول العمر وعلو المجد ، وعلى عدوه بالخمول وسوء الذكر ، وهـــذا الختام يأتى منسجما مع باقى أجزاء قصيدة المدح عند ابن مقرب كما استعرضناها جزءا جزءا فيما سبق .

يقول فى نهاية قصيدة يمدح بها أحد أبناء عمه ، داعيا له بدوام السعادة :[٦٦]

---

(٦٤) المصدر السابق ص ٣٤٨ .
(٦٥) نفس المصدر ص ١٩٠ .
(٦٦) الديوان ص ٦٣ .

وأكـرم أبنـاء الملوك سـجية
كـريم متـى عاتبتـه لان جانبـه
بقيـت وأعطيـت السـعادة ماشـدا
حمـام ، ومـا لاحـت بليـل كواكبـه

ويدعو للخليفة العباسى المستنصر بالله بأن يبارك الله فى أيام دولته ويبقيها على الدوام :

فبـارك اللـه فى أيـام دولتـه
وجـادها كـل رجـاس لـه لجـب
فـان أيامهـا طـرز الزمـان اذا
عـدت ، وتـاج بـه الأعيـاد تعتصب
ولا أرانـا امـاما غـيره أبـدا
فمالنـا فى امـام غـيره أرب(٦٧)

وللأمير حسن بن مسعود بقتل أعدائه وأن يعتز الاسلام به وتحوطه رعاية الله :

فـلا زالـت الأعـداء قتـلى سـيوفه
وأقـلامه فى أرضـها وحـرابه
عـز بـه الـدين الحنيـف وحللـت
محـارم دار الشـرك حمـر قبـابه
ولا برحـت عـين الالـه تحـوطه
وتحفظـه فى مـكثه وذهـابه(٦٨)

---

(٦٧) المصدر السابق ص ٩٩ .
(٦٨) الديوان ص ١٠٤ .

ويدعو للأمير باتكين بطيب العيش ولمن يكيده بالبؤس والذل وسوء المعاد :

عشت يا باتكين المجد ما غرد
حاد وما ترنم شاد
فى نعيم وخفض عيش وفى عز
عزيز باق على الآباد
ورمى الله من يكيدك بالبؤس
وذل المحيا وسوء المعاد(٦٩)

وقبل أن نختم حديثنا عن غرض المدح عند ابن مقرب يلزمنا هنا أن نجيب على سؤال يتوارد الى الذهن وهو : هل كان ابن مقرب يمدح للرفد وطلب النوال ؟ أم كان مدحه لسبب آخر ؟ ان معظم من كتبوا عنه أجابوا بالنفى ، وقالوا بأن مدحه فى معظمه أنصب فى أمراء قومه وعشيرته عله يظفر باسترجاع حقوقه المغتصبة ، وهى مادامت حقوقه فلا ضير عليه بعد ذلك أن يتملقهم ويشيد بهم فى سبيل استردادها واعادة الحق الى نصابه ، كما أنهم أهله وقرابته ، قوته بقوتهم ، وعزته بعزتهم ، فلو هجاهم لهجا نفسه ، ولو عاداهم لانفرد بين الناس وسقط نجمه ، وأحسب أننا نستطيع الوقوف على دوافع المدح الحقيقية عنده من مثل قوله :(٧٠)

ولست بمهد للرجال مدائحى
وان قل مال أو تغير حال
ولكن نعمى حركتنى وصحبة
وود ، وهذا للكرام صقال

---

(٦٩) المصدر السابق ص ١٩٦ .
(٧٠) نفس المصدر ص ٤٣٨ .

اذا فاعترافه بالجميل والصحبة الحسنة والصداقة وحفظ الوداد ، هى التى دفعته لمدح من مدح ، وليس السؤال أو طلب الرفد ، وهذا ليس غريبا على أمثاله ، فهو كما علمنا ذو نفس أبية تأبى الذل والخنوع وصاحب همة يجاوز مداها أنجم السماء العالية ، وهذا واضح من شعره الذى يظهر عليه فى معظمه عزة النفس وقوة الشكيمة ، والشعور بجليل المكانة بين الناس ، أليس هو القائل :

ولســت وان أودى الزمـــان بثــروتى
وزاحمنــى منــه بخصــم مماحــك

بمهــد ثنـــائى والمنـاديح جمـــة
الى حــوتــكى أبشــع اللــؤم راعــك

يــرى مــورد الآمــال حــول فنـــائه
بعــين نــوار تلحــظ الشــيب فــارك

ولا ضــارع طــوع المنــى يســتفزنى
الى مقــرف رجــم الظنــون الأوافــك

ولســت بمفــراح بمـــال أفيـــده
لعمـــرى ولا آس عــلى آثــر هــالك

ولا مــادح الا ســـراة بنـــى أبـــى
جمــال المعالى بل ليــوث المعــارك(٧١)

---

(٧١) الديــوان — ص ٣١٤ . اودى الزمــان بثروتى : ذهب بها ، والماحك : اللجوج الحسن الخلق ، والمندوحة: السعة ، والحونكى : القصير الضاوى .النوار : المراة النفور من الريبة ، والفارك : المبغضة لزوجها ، المقرف فى النسب : الهجين ، والافك : الكذب ، والآس : الحزين .

الفخـــر والحمـــاس :

يأتى غرض الفخر بعد المديح مباشرة ضمن أغراض الشاعر من حيث كثرة الشعر الذى قيل فيه ، فقد أكثر ابن مقرب من الافتخار بقومه وبنفسه وبطيب أهله ومحتده وأرومته ، ولا غرابة فى ذلك فهو أمير ابن أمراء حكموا البحرين فترة ليست بالقصيرة ، وهو من قبيلة عبد القيس التى تتفرع من ربيعة ، والتى ترجع بدورها الى معد بن عدنان أصـــل العرب جميعا [٧٢] .

فالمواد (الخام) التى يستمد منها الشاعر — أى شاعر — فخره وحماسته متوفرة فى عشيرة ابن مقـــرب ، ويزخر بها تاريخها المجيد ، وتفيض بها أيامها، فالسيادة فى شرق الجزيرة العربية كانت لها ، انتزعتها انتزاعا من أيدى خصومها بعد معارك وصولات حاصدة طاحنة .

واستطاعت الأسرة العيونيـــة أن تفرض هيبتها على الآخرين ، فوقفت سدا منيعا ضد عبث البادية وهجمات قطـــاع الطرق ، ويكفى الدولة العيونية فخرا أن يكون انهاء دولة القرامطة على يديها ، هذا الى ما عرف به أمراؤها من أصالة فى الفضل ، وعلو فى الخلق ، وغيرة على المحارم والمصالح[٧٣] ، الأمر الذى أنطق لسان شاعرها ، وجعله يلهج ويشيد بكل هذه المناقب ويعدد تلك الصفات والمآثر .

وقد اتجه ابن مقرب فى افتخاره اتجاهين رئيسيين :

أحدهما : الافتخار بالأسرة العيونية وبأمجادها وماضيها التليد .

الثانى : الافتخار بنفسه وبصفاته من شجاعة وكرم وغير ذلك ، كما افتخر بشعره فى قصائد غير قليلة أوردنا شـــيئا منها عندما حللنا قصيدته المدحية .

---

(٧٢) ابراهيم الابيارى — الموسوعة القرآنية الميسرة جـ ١ .
(٧٣) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ص ١٠٣ .

(أ) الفخر بالأسرة العيونية :

افتخر الشاعر بقومه فأكثر من ذلك ، وأضفى عليهم من الصفات ما يجعلهم سادة الأرض وحدهم ، وأن من عداهم فضله ، ليس له من صفات الخير شيئا ، وقد بالغ فى كثير من الأحيان فى ذلك ، الا أن الخط الذى سار عليه هو نفس الخط الذى سار عليه الشعراء قبله فى الفخر بأمجاد قبائلهم وآبائهم من ناحية المبالغات والتهويل ، فلم لا يفخر هو أيضا بآبائه على نفس المنوال ، ما داموا يملكون من المجد والسؤدد ما يؤهلهم لذلك ؟ لنسمع اليه وهو يقول فيهم :(٧٤)

هـــم الناس ، كل الناس ، والناس فضلة
اذا نـــاب أمـــرأط من حمـــله الصـــلب
بهم يدرك الشـــأو البعيـــد وعنـــــدهم
للتمســـى المعـــروف ذو مربـــع خصـــب
وفيهـــم ربـــاط المـــكرمات وراثـــة
يـــورثها المـــولود والـــده النـــــدب
ولـــولا أياديهـــم وفضـــل حـــلومهم
لزلزلت الأرضـــون وانقضـــت الشـــهب!
خفاف الى داعـــى الوغـــى غـــير أنهـــم
ثقـــال ، اذا خفـــت مصـــاعيبها الهـــلب

---

(٧٤) الديوان — ص ٢٩ ، أط : صوت ، المصاعيب : الفحول من الابل والهلب : الكثيرة الشعر ، القنا : موضع باليمن ، والشحر : ساحل البحرين بين عمان وعدن ، والنقب : بلدة اليمامة ، السقب : ولد الناقة ، درع دلاص : ملساء لينة ، والتبعيات : نسبة الى تبع ، والعصب : ما يشد الى الجسم ، الصلاء : الشواء والوقود . قطنا : اسم فعل بمعنى كفانا ، العدان : جمع العتود ، وهو الحولى من اولاد المعز . والسديف : سنام الابل ، المتالى : الابل لم تنتج ، الوطب : وعاء اللبن . شمارخة : جمع شمراخ وهو أعلى الجبل ، والغلب : جمع الأغلب وهو الغليظ العنق .

اذا الجـار أمسـى نهبـة عنـد جـاره
فأمـوالهم للجـار مـا بينهـم نهـب
أطاعـت لهـم مـا بين مصـر الى القنا
الى حيث تلقـى دارهـا الشحر والنقب
وجاشـت نفـوس الـروم حتى ملوكها
اذا ذكـرت أمـلاكها هزهـا الـرعـب
تحـن الى ذات النـوال أكفهـم
حنينـا كذات السـقب فارقهـا السقب
فأكثـر مـا تلقاهمـوا وابـاسـهم
حبيـك الدلاص التبعيـات لا العصـب
لهـم أبـدا ناران : نـار بهـا الصـلا
تـلذ ، ونـار لا يقاومهـا الهضـب
وأيامهـم يومـان : يـوم لنائـل
يقول ذوو الحاجات من فيضة حسـب !
ويـوم تقـول الخيـل والهيض والقنا
به والعـدى : قطنا فـلا كانت الحـرب
وان ضـن بالعـدان كـان قـراهم
سـديف المتـالى لا عتـود ولا وطـب
أولئـك قـومى حين أدعـو وأسـرنى
وينجبنـى منهـم شـمارخة غلـب !

فقوم ابن مقرب هم الناس كل الناس ، ورباط المـكرمات فيهم وراثة ، ولولا كرمهم وحملهم لزلزلت الأرض وانقضت الشهب ! وأموالهم مسـتباحة لجارهم ولذوى الحاجات ، وقـد هابتهم العـرب والروم لشجاعتهم وقوتهم ، وامتد نفوذهم من مصر الى اليمن .

وانظر الى قول الشاعر مصورا كرم قومه وكثرة عطائهم فى صورة اليد التى تحن الى البذل والنوال بصوت يشبه صوت الناقة التى تحن الى ولدها ، وهذه الصورة فيها كثير من البراعة .

وأطول قصيدة فى ديوان الشاعر مكونة من (١٥٠) بيتا قالها فى الافتخار بقومه وتعداد مفاخرهم ومآثرهم ، وهى تعد بحق سجلاً تاريخيا للدولة العيونية وأعمالها ، ورصد مفاخرها وبطولات رجالها ، ومطلع هذه القصيدة :(٧٥)

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما

ومنها يقول :

أنا ابن أركان بيت المجد لا كذبا
والنازلين ذرى العلياء والقمما

قومى هم القوم فى بأس وفى كرم
ان ادعى غيرهم ما فيهم وهما

فى الجاهلية سدنا كل ذى شرف
بالمأثرات وسدنا العرب والعجما

وصار كل معدى لنا تبعا
يرعى بأسيافنا الوسمى حيث هما

حطنا نزارا وذدنا عن محارمها
ولم ندع لمناوى عزها حرما

---

(٧٥) الديوان — ص ٥٣٠ .
الوسمى : اول مطر الربيع ، همى المطر : سال لا يثنيه شىء ، ومعدى نسبه الى معد بن عدنان ، ارم : والد عاد الاولى ، شظى جماجمهم :كسرها .

حتى أتى الله بالاسلام وافتتحت
كل البلاد وأضحت للأنام سما

وفضل آخرنا عن فضل أولنا
يغنى ولكن بحرا هاج فالتطما

شدنا من المجد بيتا لا تقاس به
ذات العماد ولكن لم نكن ارما

سل (القرامط) من شظى جماجمهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما

وبعد أن افتخر ابن مقرب بآبائه وأجداده وسيادتهم على العرب والعجم فى الجاهلية ، مضى فى باقى القصيدة يشرح ما فعله القرامطة ببلاده من تقتيل للأنفس البريئة وتعطيل للشعائر الدينية ، مبينا أفضال قومه العيونيين فى مناهضة هذه الطائفة وبلاءهم البلاء الحسن فى محاربتها • حتى تحقق على أيديهم ، ما كان أهل البلاد يصبون اليه من عزة وكرامة واستقلال ، ثم عطف بعد ذلك — فى نفس القصيدة — معددا مفاخر بعض أفراد عشيرته البارزين بأسلوب قوى جزل جذاب جارى به فخر كبار الشعراء العرب •

فمن افتخاره بالأمير فضل بن عبد الله بن على العيونى قوله :

منا الذى قام سلطان العراق له
جلالة والمدى والبعد بينهما

يشير بهذا البيت الى حكاية تاريخية طريفة تشهد بكرم الأمير فضل ، وتتلخص فى أن جماعة من التجار كانوا على ظهر سفينة بقرب شواطىء البحرين ، فهبت عليهم ريح شديدة حطمت السفينة ، ففر هؤلاء بأنفسهم من شبح الموت الى البر ، تاركين بضاعتهم للغرق ، وما أن سمع الأمير الفضل بالأمر حتى بعث من يغوص على الأموال لاستخراجها

من قاع البحر ، وقد تم العثور على معظمها ، وحينئذ أحضر الأمير التجار لديه وسألهم عن أموالهم المفقودة وعن علامتها وصفتها فأخبروه بذلك فدفعها اليهم • ثم ان أحدهم سافر الى العراق ، وهناك فى سوق الجواهر عرض بعض جواهره مما كان مستخرجا من ساحل البحرين فما أن علم سلطان العراق يومذاك بأمر الجواهر المعروضة فى السوق حتى استولى عليها ، ودفع لصاحبها ثمنا بخسا ، فلم يأبه التاجر بالأمر ولم يعره مزيد اهتمام ، بل زاد قائلا للسلطان : خذ ما تشاء بلا قيمة ، فان هذا كله هبة من عربى كريم ، وانتبه السلطان وقال : ويلك ! ومن هو هذا العربى ؟ فقال التاجر : انه الأمير العيونى الفضل بن عبد الله سيد البحرين وقص عليه القصة ، وهنا وقف السلطان ، وطلب كأسا من شراب — كما تقول الرواية — وقال : انما احتسى هذا واقفا من باب الاقرار بفضل سيد البحرين وبفضل اريحيته ، وبعد ذلك أمر بدفع قيمة تلك الجواهر كاملة من غير نقصان •

ومن افتخاره بالأمير أبى سنان محمد بن الفضل بن عبد الله ابن على قوله :

منا الذى حين عد الألف خازنه
لضيفه قال ضاعفها أرى أمما(٧٦)

وذلك أن أبا سنان وفد عليه وافد ، فأمر صاحب خزانته باحضار ألف دينار فلما أحضرها الخازن وألقى عليها أبو سنان نظرته تحرك عامل الكرم فى نفسه وقال للخازن : زد عليها ألفا آخر ، وسلم الألفين للرجل•

وافتخر أيضا بالأمير أبى شبيب جعفر بن الفضل بن عبد الله ابن على العيونى فقال :

---

(٧٦) الأمم : الشىء اليسير •

منـا الـذى أنهـب اصـطبلاته كـرما
وهى الجيـاد اللـواتى فاقـت القيمـا
وكـان ان سـار فالعقيـان تتبعـه
لسـائل رد أو مسـترفد حـرما(٧٧)

وذلك أن الأمير أبا مقدم مات له جواد ، فبلغ الخبر أبا شـبيب فأمر له بأربعين جوادا خلفا فى جواده ، فلما جاء بها الرسـول أخـذ أبو مقدم واحـدا منها فقط ، فأعادها أبو شـبيب ثانيا — الى ثلاث مرات — وأخيرا نادى أبو شبيب فيمن حـوله بنهبها وبنهب كل ما فى الاصطبل ، ومن حاز شيئا فهو له • أما البيت الثانى فيشير به الى أن أبا شبيب هذا كان — كما يحكى — اذا أزمع الركوب أمر أحد غلمانه بأخذ شىء من الذهب من لدن الخازن وجعـله فى أوراق على مقادير مختلفة ، فكان وهو فى الطريق يوزعها على السائلين والمسترفدين ، واذا تبقى منها شىء أمر بدفعه لمن على الباب من العيونيين ، فان لم يوجدوا كان من نصيب الخدم •

وأشاد بانسانية الأمير أبى منصـور على بن عبد اللـه بن على العيونى وحدبه وعطفه على الرعية عند حلول النكبات الجائحة فقال :

منـا الذى فض أمـوال الخزائن فى
غـوث الرعيـة لا قرضـا ولا سـلما
وأهمـل الدخـل ذاك العام فانتعشـت
بـه الرعيـة حتـى جـازت القحمـا

وقصة ذلك أن جموعا كبيرة من البدو هجمت على الاحساء ، فنهض أهل البلاد لصدهم ، وفى موضع قريب من (السـليمات) وقعت بين

---

(٧٧) العقيان : الذهب الخالص .

الطرفين واقعة عظيمة انتهت بهزيمة أهل البلد هزيمة منكرة ، حيث قتل ثمانون رجلا وأسر خمسمائة وعشرون ، وقبيل هذه الواقعة أصيبت الزروع والثمار بمرض وارتفعت أسعار المعيشة ، فتوالت على الاحساء المصائب والنكبات فنهض الأمير أبو منصور وفتح أبواب خزائنه وفرقها على الناس تخفيفا للكرب ، كما أعلن أن الزكاة مطروحة عنهم ذلك العام، وما زال حادبا عليهم حتى كثرت معائشهم ، وصلحت ثمارهم وعادت الحياة العامة كما كانت •

وأشاد بمؤازرة الأمير أبى الحسن بن عبد الله بن على — أمير القطيف — لقوم التجأوا بحماه فهون من مصابهم وهدأ من روعهم فكان لهم فيه خير عزاء فقال :

منا الذى جعل الاقطاع من كرم
ارثا توزعه الوراث مقتسما

وجاد فى بعض يوم وهو مرتفق
بأربعين جوادا تعلك اللجما

وهؤلاء القوم هم (الرياشمة) — وهم فخذ من عبد القيس — ومن المناوئين للأمير أبى المنصور ، وعندما حكم الاحساء خشوا من بطشه بهم فخرجوا هاربين صوب القطيف وكانوا سبعين فارسا ، وهناك احتموا بأميرها أبى الحسن ، فاستقبلهم أحسن استقبال ، وأمر لكل واحد منهم بدار ومتاع وزاد وأوان وخدم وكل ما يكفل لهم الراحة ، كما وهبهم الكثير من النخيل والبساتين ، فتوارثها أبناؤهم من بعدهم ، ومن أخبار هذا الأمير أيضا أنه حضر فى مجلسه ذات يوم أربعون فارسا فأمر لكل شاعر بفرس •

وتصيب نواحى الاحساء سنة ممحلة لم ير أشد منها قحطا ، حتى هجرت الطيور القفار الى المدن ، وكان أمير الاحساء آنذاك أبا مقدم

شكر ابن أبى المنصور على بن عبد الله على العيونى ، وقد بلغ من كرمه — كما يقول الراوى — أن جعل لكل جنس من الطير شيئا من طعامه ، فللغراب مثلا — التمر — ، وللفواخت وغيرها القمح وشتى الحبوب وجعل ينثر طعامها فى مواضع تجمعها ، ومنع هواة الصيد من اقتناصها ، وقد سجل شاعر القبيلة ذلك فى سجل الشرف فقال :

ومطعم الطير عام المحل فاسم به
منا اذا صر خلف الغيث فانصرما

وعندما حمل عبد الله بن على العيونى لواء الكفاح ضد القرامطة وأحلافهم ، احتاج الى مزيد من المال ، وخوفا من ضعف مركزه وانتقاص الأمر عليه ، أمده الأمير أبو يوسف على بن يوسف بن ضبار — وكان ثريا — بأموال طائلة ، وحكى أن الذهب كان يحمل اليه فى مسوك — وهى رقاب من جلود الابل — فكان ذلك من أسباب انتصار عبد الله ، فقال شاعرنا فى ذلك :

منا الذى انفق الأموال عن عرض
حتى رأى شعب شمل العز ملتئما

ملء المسوك قناطيرا مقنطرة
ما خاف فى جمعها حوبا ولا أثما

كما يروى أن الأمير محمدا بن أبى الحسين بن أحمد بن محمد ابن الفضل بن عبد الله بن على كان شجاعا فارسا ، مشهورا بالكرم والعطف على المحتاجين ، وله فى كل يوم من ينادى على سطح قصره كل مسكين وجائع الى الطعام ، وقد سجل ابن مقرب هذه المفخرة الانسانية بقوله :

منا الذى كل يوم شوق دارته
داع ينادى اليه الجائع الضرما

وأشاد بالأمير أبى على الحسن أمير القطيف ، الذى ما كاد يطرق سمعه نبأ قدوم الأمير أبى منصور عليه حتى استقبله ماشيا ، وأقطعه بلدا تسمى « الظهران »(٧٨) ، فنزل بقصرها ، وحرم أن توقد بها أى نار للضيافة غير ناره هو حتى توفى فسجل الشاعر ذلك مفتخرا :

منـا الذى لـم يـدع نـارا بسـاحته
تذكـى سـوى ناره للضـيف أن قدما

وأراد مرة عقيلة بن شبانة زعيم بنى عامر ، المقيض فى القطيف ، فصده عن ذلك أميرها أبو سنان محمد بن الفضل ، فتطور الأمر الى القتال فتشتت جموع عقيلة ، وأخذت حلته ، واقتعلت أطناب بيته ، ورمى به فوق الأرض ، وانتهز عقيلة فرصة انشغال جند أبى سنان بالسلب والنهب ، فأحاط مع جماعته بأبى سنان ، غير أن هذا استطاع تفريقهم ، وشق طريقه الى البلاد دون أن يجرؤ أحد على متابعته ، ونزح عقيلة عن القطيف فورا وفى هذا كله قال ابن مقرب :

وصـاحب البيت منـا حـين تنسـبه
لـو لـم نجـد غـيره سـدنا به الأمما

وافتخر كذلك بالأمير أبا مقدم شكر بن على بن عبد الله بن على العيونى فقال :

منـا الذى عام حرب (النائلى) جـلا
يوم (السبيع) ويوم (الخائس) الغمما

ويعنى بذلك ما جرى من حماد النائلى الذى طمع فى ملك الاحساء، فسار اليها مغيرا ، وكان ملكها أبو سـنان نازلا ، القطيف ومواليا على

---

(٧٨) وهى المدينة المشهورة اليوم بانتاج الزيت .

الاحساء أبا مقدم ، وقد تمكن حماد من دخول الاحساء بعد حربها ثلاثين يوما وفى حالة انشغاله مع قومه بالنهب حمل عليهم أبو مقدم مع بنى عمه وعشيرته وجنده ، وعادت الهزيمة على حماد النائلى ، وقتل عدد كبير من جموعه ، و « الخائس » موقع كثر به تقتيل جماعة النائلى، فأنتن من شدة العفن ، و «السبيع» هو ولد غفيلة ، وقد قتل فى الخائس•

وقال عن الأمير أبى ماجد بن منصور بن على بن عبد الله بن على العيـــونى :

منـــا الذى منـــع الأعـــداء هيبتـــه
حرب البـــلاد فمـــا شـــدوا لهم حزمـــا

ومـــات يطلـــب يومـــا يســـتلذ بـــه
يطبـــق الأرض نقعـــا والحضيض دمـــا

وذلك أن لأعراب المناوئين للاحساء ، التفوا حول أمير عقيل شبانة ابن عقيلة ، وشكوا اليه شدة الأمير أبى منصور وجبروته ، وأغروا شبانة بالحرب ، فحدد لهم ميعادا يراجعونه فيه ، فلما اجتمعوا ورأى ميلهم للحرب سألهم : كم فى الاحساء من فارس مبرز ؟ فعدوا له أربعين فارسا لا يطاق لهم النزال ، فقال : وأبو ماجد عن أربعين فاصبروا •

وطول حياة الأمير أبى ماجد لم يجرؤ هؤلاء على حرب الاحساء ، وكان أبو ماجد يقول : وددت أننى أطارد خيل عامر الى الليـــل يوما كاملا ، فمات قبل ذلك ، فقد كانوا يذلون عن حربه •

وافتخر كذلك بالأمير محمد بن أبى الحسين بن أحمد بن أبى الفضل ابن عبد الله بن على فقال :

منـــا الذى ضـــربت حمـــر القبـــاب له
بالمشـــهدين وأعطـــى الأمن وانتقمـــا

لـولا عيـاذ بنـى الجـراح منه بـه
لصاحبت (دهمشا) أو ألحقت (درمـا)

ويتلخص موضوع البيتين فى أن أمراء ربيعة وهم بنو الجراح جمعوا قبائل طىء وزبيد والخلط وعرب الشـام مع دهمش بن سـند ابن أجود سيد عربه ، وقصدوا بنى عقيلة ، وهم عامر وعائذ وخفاجة ومن خالطهم من قيس ، وكان الأمير ابن أبى الحسين رئيسا على قبائل الاحساء ، فلما سمعت خفاجة ومن معها بأمر الغزو بعثوا الى الأمير يخبرونه ، وهم على خوف فما فعلت تلك الحشود بطريق مكة من غصب الحاج على ما أرادت ، وشكا الحاج الى الخليفة الذى حث الأمير على النهوض للتنكيل بدهمش ومن معه غصب الحاج ، فاستنهض الأمير عرب البحرين ، وقصد العراق، فانضمت اليه عربها ، فلقى بنى ربيعة وأتباعهم قرب الكوفة ، فأوقع بهم الهزيمة وطلب بنو ربيعة الصلح مع الأمير ، فصفح عنهم وأجارهم ، ولكنه لم يجر دهمشا ، فدخل هذا مشهد على مستجيرا ، فأقام الأمير الحراس على أبواب المشهد ، وبعث الى الخليفة يسأله الرأى ، فطلب منه الخليفة ارسال دهمشا اليه ، وهناك استتابه ، فتاب فخلى سبيله وأكرمه .

ومن مآثر الأمير محمد بن أبى الحسين أيضا فى هذه المعركة يقول الشـــاعر :

منـا الذى ركـز الرمحـين ضـاحية
وجـوز العـرب العـرباء بينهمـا

حتى احتوى مـا اصطفـاه من عقـائلها
غصـبا وهـان عليه رغـم من رغمـا

وقصة ذلك أن الأمير محمد بن أبى الحسين بعد أن نكل بربيعة وبأصحاب دهمش ، اجتمعت القبائل التى كانت معه لاقتسام الغنيمة ،

فأمر الأمير غلمانه أن يركزوا رمحين وقال : لا يجوز أحد لمغنمه الا من بين الرمحين غاديا ورائحا ، ووقف على فرسه وصار كل من مر به أخذ بما حصل له من المغنم ، فاذا استحسن شيئا أمر غلمانه بضمه اليهم ، فيضمونه عندهم له ، حتى جازت تلك القبائل كلها من بين الرمحين ، ومن لا يجوز أخذه أصلا ، فجمع يومئذ من الابل والخيل والخدم والأمتعة ما لا يحصى عدده ، وغنم من أراد ، وخيب من أراد ، لأنه صار يأخذ من كسب هذا ويعطيه هذا فلا يقدر أحد على الانكار .

وعن حروب العيونيين مع ملوك الفرس الطامعين فى البحرين سجل لنا ابن مقرب فى الفخر قوله :

ويوم (سترة) منا كان صاحبه
لاقت به شامة والحاشك الرقما

الفين غادر منهم مع ثمان ماى
صرعى ، فكم مرضع من بعدها يتما

ويعنى بذلك الأمير أبا على الحسن بن عبد الله بن على العيونى وذلك أن الملك أبا كرزاز بن سعد بن قيصر صاحب جزيرة (كيش) كان قد حارب البحرين ، فسار اليها فى المراكب حتى بلغ جزيرة أوال من البحرين ، فأنحدرت من مراكبه الجموع بسترة — فى ناحية من جزيرة أوال — وكان الأمير أبا على قد بعث أخاه الأمير أبا مقدم شكر بن أبى على حين سمع بتجهيز الملك أبى كرزاز العساكر الى جزيرة أوال ، وبعث عنده عسكرا الى القطيف ، وأمره عليهم ، فحين انحدرت جموع الملك وخلصوا بسترة ، مشى عليهم الأمير الحسن بن عبد الله بمن معه فاقتتلوا ، وحمل عليهم الأمير حملة مهواة صبروا فيها ساعة ثم انكشفوا ، فضرب فيهم بالسيف حتى جمد الدم على كفه وعلى ذراعه وعلى قائم سيفه ، فما تخلصت يده حتى سخن لها ماء وصب عليها فذاب الدم وانحل وتخلصت يده ، ولم يسلم منهم الا عدة يسيرة شردت الى المراكب ،

فكان عدة القتلى من أصحاب المذكور أبى كرزاز ألفين وثمانمائة قتيل ، وأسر يومئذ (نام سار) أخو الملك أبى كرزاز ، فأطلقه الأمير وأعاده الى كيش •

وافتخر بالأمير أبا الفضل محمد بن حوارى وشجاعته فقال :

منـــا الأمير أبو فضـــل متـــى اختصمت
بنـــو الوغى كان فى أرواحهـــا الحـــكما

مـــا قابـــل الألـــف الا وانثنـــت هـــربا
كأنهـــا الوحـــش لاقـــت ضيغمـــا قرما

وكان هذا الأمير فارسا جوادا يعد عن ألف فارس ، وكان سبب قتله أنه لحق رجلا فى قتال عامر ، فحقره فكف عنه وعف عن سلاحه ، فلما تقدمه على فرسه زرقه ذلك الرجل برمحه فقضى عليه بتلك الزرقة•

ويكثر افتخاره بشجاعة العيونيين كقوله أيضا :

منـــا الثـــلاثة والفـــرد الذيـــن لقـــوا
كتـــائبا كأبـــى الســـيال حـــين طمـــا

تدعـــو عجيبـــة أحيانـــا وآونـــة
أم العجـــرش والحجـــاف بينهمـــا

يوم الجريعـــاء ما خامـــوا وما جبنـــوا
بـــل كلهم يصـــطلى نـــيرانها قـــدما

وهؤلاء الرجال الأربعة المذكورين كلهم أولاد أبى مقرب الحسن ابن عزيز ، وعجيب وأم العجرش والحجاف مجموعة قبائل أغارت على البلاد فى مكان يسمى الجريعاء ، فلقيهم هؤلاء الأربعة فقاتلوهم حتى دفعوهم عنه ، وأقام بينهم القتال نهارا ، وامتنعوا منه بعد أن ترجات

الفرسان مع الرجالة ، وزحفوا لهم فلم يقدروا أن يدفعوا الأربعة عن مكانهم ، وبعد مدة طويلة خرجت اليهم النجدة من البلد •

ويستمر الشاعر على هذا المنوال معددا أفضال عشيرته ومناقب قومه فردا فردا،حتى ليخيل اليك أن الأسرة العيونية — لم تخلق الخلال والمزايا الخلقية والانسانية الا لتتحلى بها ، وكأن من عداها من الناس باتوا صفرا من الشيم والمروءات ، خلوا من الرجولة المكتملة والخلق السامي وذلك بلا شك يعد براعة واقتدار من الشاعر امتلك ناصيتها بكل جدارة • وقد تعمدت التطويل بعض الشيء فى ايراد هـذه الأمثلة ، لأبرهن على ما قلته سابقا من أن هذه القصيدة تعد سجلا ضخما خلد الشاعر فيه مآثر قبيلته وأمجادها على مر التاريخ ، والدارس لهـذه القصيدة دراسة عميقة يستطيع أن يستخلص منها صفات وصـفحات طوتها الحقب وعفت عليها السنون من تاريخ الاحساء خاصة والبحرين عامة فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، لذلك فهى تعتبر مصدرا هاما من مصادر التاريخ السياسى لهذه الناحية من جزيرة العرب •

والشاعر يخبرنا فى نهاية قصيدته أنه مع هذه المآثر والأعمال التى عددها ، فان ما عده لا يبلغ عشر مفاخر قومه ومآثرهم ، اذ أن هذه المفاخر تفوق فى كثرتها عدد تراب واحة (يبرين) — الموجودة فى الربع الخالى من جزيرة العرب — فقال فى ختام القصيدة :

أبياتنـا لـذوى الآمـال منتجـع
اذا الزمـان يـرى كالعـير أو عـرما

ومـا عـددت عشـيرا من مناقبنـا
ومـن يعـد ثـرى (يبرين) مرتـكما

ترى ماذا كان سيقول ابن مقرب لو عدها كاملة ؟ •

الفخـــر الذاتـــى :

أكثر ابن مقرب من الافتخار بنفسه بأبيات قوية ، وأطرى شجاعته وقوته وبأسه على الأعداء ، وكرمه ونخوته ، وعدد الكثير من صفاته الذاتية التى ورثهـا عن آبائه الكرام الانجاد وأظهرها الهمـة العالية والطموح الذى ليس له حـد ، وأنفته من دار الذل والهـوان وحب المخاطرة والأسفار ولنسمع اليه وهو يقول :(٧٩)

أتدرى الليـــالى أى خصـم تشـاغبه
وأى همـــام بالرزايـــا تواثبـه
تجاهـــل هـذا الدهـر بـى فنكتبت
على بأنـــواع البـــلايا كتائبـــه
وظـن محـــالا أن أديـن لحـــكمه
لتبـك علـى عقـــل المعنـى نوادبـه
وانـــى وان أبـدى اصـعرارا بخـده
وأوجـف بـى وازور للبغـض جانبـه
لأغضـى علـى بغضـائه وازوراره
وأعجـب من حـــر كـريم يعاتبـــه
وأسـقبل الخطـب الجليـــل بثاقـب
من العزم يعـلو لاهب النـار لاهبـه

فهو خصم عنيد لا يأبه بنوازل الدهر وكوارثه . بل يستقبلها باسما غاضا عنها جانبه ويعجب للحر الكريم الذى يعاتب الدهر على حوادثه

---

(٧٩) الديوان — ص ٥٢ ، تكتبت : تهيأت ، صعر خده : اماله تكبرا ، واليهفوف : الجبان .

وقوارعه مع علمه أنها شىء مكتوب على الانسان ، ثم انه ذو عزم ثاقب يستقبل به الخطب الجليل فيعلو به عليه .

ثم يفتخر ابن مقرب بسداد رأيه وقوة شخصيته :(٨٠)

ورأى متــى جردتــه وانتضيتـــه
وجـدت حســاما لم تفــل مضــاربه

ولســت بيهفوف يــرى رأى عرســـه
متى أركبتـــه مركبــا فهــو راكبـــه

يظــل اذا مــا نابــه الأمــر محجــرا
يخاطبهـــا فى شــأنه وتخاطبـــه

وفى أبيات أخرى يذكر همته العالية التى يستعين بها على ركوب الخطـــر :(٨١)

عـــلى م وفى م ظلمـــا تلحيـــانى
ذرانـــى لا أبـــا لـــكما ذرانـــى

وحســبكما فمـــا ســمعى بمصــغ
ولا واع لمـــــا تتحــــــدثان

فلــى همــم اذا جاشـــت أرتنـــى
قــرى عمـــان ميـــلا من عمـــان

اذا ســــولتمـــا فتنـــاســـيانـى
وان أســـــلمتنا فتــذكـــرانـى

---

(٨٠) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٨١) نفس المصدر — ص ٦٢٣ ، لجاه : لامه ، عمان (بالتشديد) : عاصمة الأردن ، وعمان امارة بالخليج العربى ، صفا : مال ، ونوب الزمان: حوادثه ، ثنى عنانة عن الأمر : رجع عنه .

فمثلى من يقيم صغى الأعادى
ويستعدى على نوب الزمان

وما ذكر المنية عند أمر
أحاوله بثان من عنانى

فهمته تقرب له الأمور البعيدة وتسهل عليه الصعاب ، ثم انه لا يبالى بالموت لايمانه بالقدر ولعلمه أن للانسان يوم اذا حان فلا مفر منه وهذا ما يشجعه على المخاطرة :

اذا يومى أظل فما أبالى
بسيف كان حتفى أو سنان

ومن يك عمره المكتوب تسعا
فلا يخشى المنية فى الثمان(٨٢)

ثم انه يحقر من حقره ولو كان عظيما ، ويعامل الناس بالمثل ولا يواصل من جفاه وعاداه :

عظيم الناس فى عينى حقير
اذا بالمقلة الخوصا رآنى

محال أو أواصل من جفانى
وأسمح بالوداد لمن قلانى(٨٣)

ويقول معتدا بكرامته :

ولست اذا تشاجرت العوالى
بغمر فى اللقاء ولا جبان

---

(٨٢) الديوان — ص ٦٢٤ .
(٨٣) الخوص : غؤور العين ، والقلى : البغض .

ولـــكنى حـــديا كـــل يـــوم
تلاقـــى عنـــده حـــلق البطـــان

أخـــو الـــكرم العتيـــد وذو المقـــال
السديد ومـــدره الحـــرب العوان(٨٤)

والتعبير بجملة (أخو الكرم) يفيد أن الكرم يلازمه ملازمة الأخ لأخيه ، فهو معه حيثما حل وارتحل ، وعزز هذا المعنى بكلمة (عتيد) ليبين أن هذا الكرم من طبعه ومن شيمه .

ومن أصالته وكرمه أنه يأنف الاقامة بأرض لا يكون فيها كالسم للأعداء والغيث للأصدقاء :

فـــلا رعى اللـــه أرضـــا لا أكـــون بهـــا
ســـما لمســـتنكف عيشـــا لمنتجـــع(٨٥)

وهو صبور صبر الكهول وقد عاين الدهر منه ذلك لطول تجاربه معـــه :

كـــم عايـــن الدهـــر منى صـــبر مكتهل
اذ ليس يوجـــد صبر العود فى الجـــذع
وكـــم ســـقانى من كأس عـــلى ظمـــأ
أمـــر فى الطعم من صـــاب ومن ســـلع
ومـــا رمتنـــى بـــكر من نوائبـــه
الا صـــككت بصـــبرى هامة الجزع(٨٦)

---

(٨٤) الحديا : المنازعة والمباراة ، الحرب العوان : التى قوتل فيهـــا مرة بعد اخرى ، ودره عنهم : دفع ، والمدره : المقدم فى القتال .
(٨٥) الديوان — ص ٢٧٤ ، المنتجع : طالب الكلأ والمعروف .
(٨٦) المكتهل : المتناهى فى الشيب ، العود : المن من الابل والشاء ، والجذع : صغيرها ، الصاب : شجر مر والسلع كذلك ، الجزع : ضد الصبر .

وهو وفى لخلانه اذا صحبهم ، ويلقى مسيئهم بالبشر ، حتى ولو نقض عهد الصداقة وضيع حقها :

سـل الأخـلاء عنى هـل صحبتهم
يوما من الدهـر الا والوفـاء معـى
ألقـى مسيئهم بالبشـر مبتسـما
حتى كأن لـم يخـن عهـدا ولم يضـع
وسـلهم هـل وفى لـى من ثقاتهـم
حـر ولـم يشـر فى نقضـى ولم يبع

وكل ذنبه عندهم أنه انسان ورع عما يخوضوا فيه فلذلك حنقوا عليه :

لقـد تفـكرت فى شـأنى وشـأنهم
فبان لـى أن ذنبـى عنـدهم ورعـى

ويفتخر بأنه الانسان العالم الذى سبق بعلمه من تتقدمه سنا وشهد له بذلك العلماء :

لقـد تقـدمت سـبقا من تقـدمنى
سـنا وأدرك شـأوى فـارط الأول
بذاك قـدوة أهـل العـلم قاطبـة
أبو البقـاء محب الديـن يشـهد لـى
هـو الامـام الـذى كـل اـه تبـع
من كـل حـاف عـلى الدنيـا ومنتعـل
ولـم يقـل وحـده ما قـال بل شهدت
بـه الأفاضـل من بغـداد عن كمل(٨٧)

---

(٨٧) الديوان ص ٣٨٣ . الشأو : المدى والغاية ، فارط الأول : بعيده .

ويخاطب قومه مفتخرا بجملة من صفاته :

ألســت أوفاكـــم عهــدا وأحلمـــكم
عقــدا وأقومــكم بالفــرض والنفـــل

أليس بيتـــكم فى العـــز مركـــزه
بيتى فمــا كــان من فخــر فمن قبـلى

ألســت أطولـــكم فى كــل مـــكرمة
باعــا وأحملــكم للحــادث الجــلل

ويفخر أخيرا بأنه لم يرد وردا يعاب به ولم يقف موقفا يخجل منه:

هــل جــاء قــومى واخوانى الذين هم
ان أرم مــن قبــل الرامــين لا قبــلى

بأننـــى لــم أرد وردا أعــاب بـــه
ولــم أقف ذات يــوم مــوقف الخجــل

الفخــر بشـــعره :

افتخر ابن مقرب بشعره كثيرا ، وقد أوردنا بعض الأمثلة على ذلك عند تحليلنا لقصيدة المدح ، ولا بأس أن نورد هنا مزيدا من الأمثـلة للتدليل على كثرة هذا الافتخار من ناحية ،.ومن ناحية أخرى فاننا هنا نتناول هذا الفخر لغرض مستقل وغــير مرتبط بغرض آخر • يقــول ابن مقرب معاتبا نفسه لأنه أهدى شعره من لا يستحقه :

لــكن عــلى درر تزهــو جــواهــرها
فى عقــد كــل نظــام غــير منقطـــع

توجتهــا معشــرا لا أبتغــى عوضـــا
عنهـــا وانـــى فى قــومى لذو قنـــع

وكنــت أولــى بهــا منهــم وكــم مثن
ضــاعت ، ومــا فائت يمضــى بمرتجع

فلــو تــكون الى الأصــداف نسبتهــا
لــكان لى كـــرم ينهــى عــن الهلــع

لــكنها الجــوهر الطبعــى قــد أمنــت
من التشــظى مــدى الأيام والطبع[٨٨]

فابن مقرب لا يكتفى بأن تكون قصائده لآلىء منظومة مما حوت الأصداف ، وهى لو كانت كذلك فقط لكفاه حسبا وكرما ، ولكنه يصر على أنها جواهر طبيعية ، وصلبة غير قابلة للتشظى والتناثر ، وهذا كناية عن أن قصائده خالدة على مدى الزمن وكرور الأيام .

وقال فى موضع آخر :

اليــك جــوهرة مــن طبــع قائلهــا
تبقى عــلى غابر الأزمــان والحقب[٨٩]

وقد يبالغ فى الفخر بقصيدته فيجعلها تحوى جميع أنواع الأحجار الكريمة ، بل يزيد عليها المسك فيقول :

فهاكهــا يــا عمـــاد الديــن حــاوية
درا ومســـكا وياقوتا ومرجانا[٩٠]

وهذه الجواهر يعجز عن نظمها كبار الشعراء كالفرزدق ومزردا فيقول :

---

(٨٨) الديوان — ص ٢٧٦ ، التشظى : الانشقاق ، والطبع (بالتحريك): الوسخ الشديد من الصدأ .
(٨٩) المصدر السابق ص ٨٤ .
(٩٠) الديوان — ص ٦١٠ .

واليـك مـن در الـكلام جـواهرا
يعيـى الفرزدق نظمهـا ومزردا[٩١]

ومن صوره الجميلة فى الفخر تشبيهه لها بالجواهر التى صـدره بحرها وفكره هو الغواص الذى غاص عليها فاستخرجها من ذلك البحر ، وهذا من براعة الشاعر واقتداره فى التصوير والتمثيل :

اليـك أبـا المنصـور عقـد جـواهـر
قلمهـا صـدرى وغواصـها فكرى
نفسـت بهـا عمـن سـواك وسـقتها
اليـك لعـلمى أنهـا أنفس الذخـر[٩٢]

وقد يصور عمل الفكر فى انتاج القصيدة بأنه مثل النساج ، والقصيدة بالسرابيل المنسوجة التى لا تبلى على مر الزمن :

وعنـدى ممـا ينسـخ الفـكر والحجا
سرابيـل تبقـى ما ترادفت الحقب[٩٣]

وفى موضع آخر هجا أناسا كان قد مدحهم وهم لا يستحقون المدح فقـال :

وأنـكح أبـكار المعـانى أراذلا
أحـق يخصـى من يسـار الكواعـب
وأكسو ثيـاب الحمـد من حـق جسمه
ملابس حمى أفـكل بعـد صـالب[٩٤]

---

(٩١) ص ٧٥ ، مزرد : شاعر فارسى .
(٩٢) الديوان ص ٢٠٤ . القلمس : البحر .
(٩٣) ص ٣٤ .
(٩٤) ص ٧٠ ، يسار الكواعب : عبد لبنى عذانه ، والافكل : الرعدة ، وحمى صالب : فيها الرعدة .

فتارة يشبه قصيدته فى جمال معانيها بالفتاة الحسناء البكر التى أنكحت لمن لا يستحقها ، وتارة يشبهها بثياب كست أجسادا من حقها أن تكسى بحمى مصحوبة برعدة لنذالة أصحابها •

وقال فى موضع آخر مفتخرا بقوة شاعريته :

ودونـــك من تيـــــار بحـــر اذا طمـــى
أراك بحـــار الأرض جمعـــا صلاصـــلا

وأنفذتهـــــا فى حـــــكمة وبلاغـــــة
كست حـــلة من بعد عهـــدك عاقـــلا(٩٥)

فشاعريته اذا هاجت واندفعت زادت على شاعرية باقى الشعراء وتركتهم لا شىء بعـــدها ، كالبحر الذى يطغى فيترك جميع البحـــار كالغدران الصغيرة ، والقصيدة بعد ذلك تخرج فى حكمة وبلاغة لتكون كالحلة التى تزين العاقل فيكون جميلا بين الناس •

وهذه البلاغة والفصاحة يشهد ويقر بها بلغاء وشـــعراء العرب المشهورين :

ولــــى بفصـــاحة الألفـــــاظ قس
يقـــــر ، ودغفـــل ، والأعشـــــيان(٩٦)

وشعره يحتوى على المعانى والحكم النادرة وهذا يعلو به ويرفعه:

فـــكم ســـاد لـــى فى مدحـــكم من غريبة
تروق وأغلى الشـــعر مهـــرا غرائبه(٩٧)

---

(٩٥) ص ٤٠٥ ، الصلصل : بقية الماء فى الغدير .

(٩٦) ص ٦٢٧ ، والمذكورون فى البيت كلهم بين خطيب او شـــاعر مشهور .

(٩٧) ص ٦١ .

وقصيدته جمعت سحر الكلام الذي اختفى وانقرض منذ زمن بعيد فلم ينفث به شاعر قبله :

فدونـكها يـا ابـن النبـى غريبـة
تخـبر أن العائبيهـا هـلابـث

جمعت بهـا سـحر الكلام الذى اختفى
قديمـا ، فلم ينفث بـه قبل نافث(٩٨)

ولا عجب فى ذلك فقصيدته نسيج وحدها فى عصرها يحسد عليها قائلها :

واليـكها يـا باعـلى مدحـه
من فضـلها أنـى عليهـا أحسـد

جـاءت نسـيجة وحـدها فى عصـرها
اذ أنـت فى هـذى البـرية أوحـد(٩٩)

***

هذا هو فخر ابن مقرب وقد تميز كما رأينا بأسلوب قوى متماسك وكلمات فخمة رنانة تناسب غرض الافتخار ، وذكر الأمجاد ، وقد تطرق من ناحية المعانى الى الفخر بمعانى الشجاعة والقوة والـكرم ، وهى الشيم التى طالما افتخر بها معظم الشعراء العرب ، ولكن ابن مقرب زاد على ذلك أنه من بيت أمارة ، فافتخر بأمجاد آبائه وأجداده ، وعـدد بعضهم فردا فردا كما رأينـا فى استعراضنا لبعضه تلك الأبيـات فى (مطولته الميمية) وتسامى بهممهم الى السماء ، وجاوز بشجاعتهم حدود الجوزاء فخلد تاريخهم بشعره ، وأثبت أعمالهم وبطولاتهم فى سجل التاريخ بسطور مضيئة ، فكان بحق كما قال :

---

(٩٨) الديوان — ص ١١٩ ، والهلبوث : الأحمق ، النافث : الساحر .
(٩٩) ص ١٦٧ .

كسـوت قومـى والبحـرين ثـوب علا
يبقـى جديدا بقـاء الحوت والحمل(١٠٠)

هذا وقد حفل فخره بكثير من الصور الجميلة والتشبيهات الرائعة التى ذكرنا بعضها آنفا ، وقد استمد عناصر هذه الصور والتشبيهات من صفات قومه الأفذاذ ، فنراهم فى شجاعتهم يطيحون بسيوفهم هام الأعداء • حتى أن هؤلاء الأعداء وخيلهم وسلاحهم يكتفون عن الحرب ولا يعاودون التفكير فيها لشدة فزعهم ، ثم نرى قوم الشاعر فى كرمهم وبذلهم كأنما تحن أكفهم الى الأعطاء والنوال حنين الابل الى وليدها وفى هذا ما فيه من الدلالة على كثرة كرمهم وشهامة نفوسهم •

الشـكوى والأنـين :

لا غرو أن نجد لابن مقرب شعرا كثيرا فى الشكوى ، فقد ابتلى فى حياته كثيرا وامتحن من عدة جهات ، لكنه صبر صبر الرجال ، وخرج من كل هذه المحن قويا مجربا ، فقد جاءته النكبات والمصائب من قبل دهره وزمانه ، فتشرد وتغرب كثيرا عن وطنه وأهله ، وجاءته المحن من قبل أهله وبنو عمه ، فحرم من أمواله وممتلكاته ، وجاءته المصائب من قبل أصـدقائه وخلانه ، فذاق مرارة الغدر وسـوء الصحبة ، واكتوى بنار الوشايات والسعى بالنميمة ، ولذلك فقد قال شعرا فى كل هـذه المجالات وعبر عن مرارته وسوء حظه بشـعر يفيض بالحسرة والألم ويصطبغ بالأنين والشكوى • فمن شكواه من أحداث زمانه ومن الرزايا والمنون التى تحالفت عليه قوله :(١٠١)

أفى كـل يـوم للخطـوب أصـالى
ألا مـا لأحـداث الزمـان ومـالى

---

(١٠٠) الديوان — ص ٣٨٢ — والحوت والحمل : من أبراج النجوم.
(١٠١) الديوان — ص ٣٧٠ .

يفجعنى فى كل يوم يمر بى
بأنفس مال أو بأشرف آل
أرى الشر قداما وخلفا وأتقى
نبال الأذى عن يمنة وشمال
اذا قلت جلى بعض همى أتت له
نوائب أمضى من حدود نصال
كأن الرزايا والمنايا تحالفا
على عكس آمالى وبت مآلى
لحى الله هذا الدهر كم يستفزنى
لخوض بحار أو لشق جبال
يكافنى جرى الجواد وقد لوى
شكالا على ساقى خلف شكال
وقد مص مخ العظم حتى ازاره
وبدله من نيه بهزال(١٠٢)

فابن مقرب يشكو سوء حظه فى هذه الحياة ويتبرم من أحداث الزمان ، الذى ابتلاه بأنواع الهموم والمصائب ، ويعبر عن كل ذلك فى صورة بليغة وعبارة شاملة ، فيقول ان الشر يأتى من أمامه ومن خلفه ، ويتقى نبال الأذى من اليمين والشمال ، وهذه هى الجهات الأربع ، فلم تبق جهة لم يؤت منها ، فتأمل كيف أنه لم يترك لنفسه منفذا للنجاة وانظر المناسبة الرزايا والمنايا لعكس الآمال وبث المآل على الترتيب ثم ان كل ذلك يستفز الشاعر للنهوض والنضال لخوض البحار وشق الجبال ، الا أن الدهر ابتلاه ببلوى أخرى ، وهى أنه سلب منه القوة والقدرة على مجابهة الحوادث والنوازل ، وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى

---

(١٠٢) صاوله : واثبة ، صلى النار : مكث فيها وذاق حرها ، بت مآلى : قطع مرجعى .
الشكال : الحبل الذى تشد به قوائم الدابة ، الأزار : الاصل ، النى : السمن .

أجمل تعبير ، فقال ان الدهر حينما يستفزه مع عجزه ، فكأنه شخص يستحث جوادا على الجرى بعد أن قيد رجله بقيود ثقيلة لا يستطيع معها حراكا ، وفوق كل ذلك فان عظامه هزيلة وضعيفة لا تقوى على الحركة والقيام ، وكل هذا كناية من الشاعر على قلة المساعد والنصير فى هذه الحيـــاة .

وفى أبيات أخرى نراه يلقى باللـــوم على نوازل الدهر حيث انها عجلت بظهور الشيب فى رأسه وغيرت شكله مما حدا بالربع أن ينكره ، واللوم فى ذلك ليس على الربع ولكنها نوازل الدهر :

أقـــول والدمـــع قـــد بلـــت بـــوادره
منـــا خـــدودا وأذقـــانا وأردانـــا

وقـــد ملئت بمـــا عاينتـــه عجبـــا
ما ضـــر سهم الرزايـــا لـــو تخطـــانا

مـــا الذنـــب للربـــع فى هـــذا فتلزمـــه
عتبـــا ، ولـــكن هـــذا الدهـــر لا كانـــا

لـــو لـــم تحـــل بنـــادينـــا زلازلـــه
لـــكان ذلـــكم الانـــكار عرفانـــا(١٠٣)

ويشكو ويئن من شقوته بأحداث الليالى بصورة حزينة تستـــدر العطـــف :

أبـــت نـــوب الأيـــام الا تمـــاديا
فيـــا شـــقوتا مـــا الليـــالى وماليـــا
اذا قلـــت يـــوما حـــان منهـــا تعطـــف
رأيـــت رزايـــاها تبـــامى كما هيا(١٠٤)

---

(١٠٣) الديوان — ص ٦٠٢ ، الأردان : اكمام القميص .
(١٠٤) ص ٦٥٧ ، ندب الأيام وصروفها .

ومن أصدقاء السوء والخلان الذين ادخرهم لأيام الشدة ويتمنى ان لم يكونوا له أو عليه :

فليـت أخـلائى الذيـن ادخـرتهم
جـلاء لهمـى لا عـلى ولا ليـا
وأعجـب مـا يأتـى بـه الدهـر أننى
أرى القوم ترمينى بأيـدى رجاليـا(١٠٥)

وأكثر ابن مقرب الشكوى من أمثال هؤلاء اللئام الذين ابتلاه الدهر بهم ، وقد انخدع بهم فى البداية ، ولكن بعد مدة من الزمن انكشفوا على حقيقتهم وتبين زيف حالهم ، فهم ضعاف القلوب ، صغار النفوس ، لا يراعون للود حقا ، ولا للصداقة وفاء :

فلـم أر منهـم غـير خـب يمـد لـى
لسـان محـب مـن طـوية قـال

لـه شـيمة السـنور فى لطـف خـدعة
ولـكنه فى اللمس حيـة ضـال

اذا جئـت فـدانـى وأبـدى بشـاشة
ولا حظنـى منـه بعـين جـلال

وان غبـت أدنـى سـاعة من لحـاظه
تمحـل فى غيبـى بـكل محـال

الى اللـه أشـكو منجمـى فى معاشر
همـو شـر مـاض فى الزمـان وتـال

صحبتهمـوا مسـتصغيا فوجـدتهم
أليـم عـذاب فى أشـد نـكال

---

(١٠٥) ص ٦٥٧ ، ندب الأيام وصروفها .

اذا قلـت حـل الدهـر غـل صدورهم
أبت سـوء أخـلاق وقبح وصـال[١٠٦]

فما ترك لهم صفة حسـنة الا وسلبهم اياها ، ولا صفة سـيئة الا وألصقها بهم ، ثم انه مدح أناسا لمجرد كف أذاهم ، وآخرين لمراعاة ودهم ليس الا ، ولكن لا هؤلاء كفوا أذاهم عنه ولا هؤلاء راعوا فيه حق الوداد ، فشكاهم الى الله وأسف على مدحهم :

الى اللـه أشـكو عثـرة لـو تذوركت
بتمزيـق جـلدى ما أسـفت على جلدى

مديحـى رجـالا بعضـهم أتقـى بـه
أذاه ، وبعضـا للمـراعاة والـود

فـلا الـود كـاف ذا ولا ذا كفى الأذى
ولا نظـروا فى بـاب ذم ولا حمـد

فـكيف بهـم لـو جئتهـم متشـكيا
خصـاصة أيامـى وسـمتهم رفـدى

فـكنت واهـدائى المـديح اليهـم
كخابط أذنـاب المهلبـة العقـد[١٠٧]

والبيت الأول نتبين منه شدة غيظ الشـاعر وحنقه عليهم لأنهم تناسوا مدحه لهم وأنكروا جميله ، ولو أنه استطاع تدارك هذه العثرة بتمزيق جلده وتقطيع لحمه لفعل وما أسف على ذلك ، وانظر الى كلمة

---

(١٠٦) ص ٣٧٢ ، الخب : المخادع ، والطوبة : ما تخبئه النفس ، والقالى : المبغض ، المحال : الكيد .

(١٠٧) الديوان — ص ١٣٤ ، الخصاصة : الفقر ، سمتهم رفدى : كلفتهم عطائى ، مبط الكبشى : جس اليته ، والمهلبة : الابل التى نتف هلبها وهو شعرها ، والعقد : جمع الاعقد وهو الكلب او الذئب الملتوى الذنب .

(تمزيق) وما تدل عليه من شدة حنق الشاعر على هؤلاء وتألمه منهم ، والبيت الأخير كناية عن رجوعه منهم بخفى حنين •

ومن شكواه من أبناء عمه وأفعالهم معه من مضايقة وحرمان من الممتلكات قوله فى هذا المعنى :

وقـــد كنت ذا مـــال حـــلال وثـــروة
يضـــاعف اكرامـــى وترجـــى ومـــكارمى
فمـــال عـــلى مـــالى وحـــالى وثروتى
وجـــاهى ، وأصغـــى لاختـــلاق النمائم
فظلت أعـــانى القيـــد فى قعـــر هـــوة
سماعى وألحانى غنـــاء (الأداهم)(١٠٨)

وقال فى موضع آخر :

فأغـــرى بى الواشى المشـــوم وخاننـــى
لمـــا حـــزته مـــن ضـــيعة ودراهـــم
وبـــت عـــزائى الســـجن فى مدلهمـــة
يجـــاوبنى فيهـــا ثقـــال الأداهـــم
وأخـــرجنى مـــن بعـــد يأس وقـــد أتى
على نشبى أشـــكو الى غـــير راحم(١٠٩)

وهذه الأبيات الآنفة الذكر تلخص مصيبة ابن مقرب التى جرت وراءها نكباته الأخرى من تشرد ، وتغرب ، وعدم استقرار ، فلقد كان ذو مال حلال وثروة وجاه وغنى مكرما عزيزا بين قومه حتى وشى به الواشون لدى أحد أبناء عمه القابض على السلطة آنذاك ، فسطا على

---

(١٠٨) ص ٥١٩ .
(١٠٩) ص ٤٩٦ ، المدلهمة : الداهية ، والأداهم : القيود ، النشب : المـــال الأصـــيل .

ثروته ، وصادر أملاكه ، واستولى على بساتينه ، فأمسى فقيرا مشردا خاويا من كل شيء . ولم يكتف هذا الأمير بذلك بل وضعه فى السجن ، حيث يعانى القيود الثقيلة فى مكان مظلم ، ويعبر الشاعر فى سخرية ممزوجة بالألم الممض عن صوت القيود بأنه ألحان وغناء .

ويوضح لنا فى أبيات أخرى أن ضيم الأقربين دونه كل ضيم ، فهو أشد وقعا على النفوس وأمض وأحر فى الأحشاء لهبا فقال :

بلى ان ضيم الأقربين وجدته
أشد على الأحشاء حرا ولاهبا
ألا انه الداء العياء وانه
الشجا فى التراقى والمزيل المراتبا(١١٠)

والانسان حينما يرميه الدهر بنوائبه يستعين بقومه لا الأجانب :

ألا يا لقومى والفتى حين يرتمى
به الدهر يدعو قومه الا الأجانبا
كفى حزنا أننى ببغداد مفرد
عن الأهل ألقى كل يوم عجائبا(١١١)

وهكذا فان ابن مقرب عبر فى شكواه عن المحن والنكبات التى واجهها فى حياته من خلال كلمات تحمل فى فحواها كثير من الألم والحسرة نظرا لما لقيه من جفوة أقاربه ، وغدر أصدقائه ، وتخليهم عنه فى الشدائد ، وكل ذلك فى رأيه مرده الى سوء حظه فى هذه الحياة وعدم رحمة الدهر به ، عبر الشاعر عن كل ذلك فى ألفاظ مناسبة لمعانى الألم والأنين والشكوى واستطاع بهذه الاجادة الشعرية أن يستدر منا الدمع والعطف والمشاركة الوجدانية معه رغم البعد الزمنى والمكانى بيننا وبينه ، الا أن

---

(١١٠) الديوان ص ٣٩ .
(١١١) ص ٣٨ .

أصالته الشعرية كما قلت جعلتنا نشاطره أحزانه وتغربه وكأننا معه فى غربته ومحنته ، ورأينا أيضا كيف عبر الشاعر عن شديد ألمه وغيظه من غدر خلانه بألفاظ وتشبيهات ، صورت لنا هذه الأحاسيس النفسية بكل واقعية وصدق تعبير ، وحسن أداء ، وكما يقال رب ضارة نافعة ، فهذه المحن والكوارث التى توالت على الشاعر من ناحية أنتجت لنا من ناحية أخرى شعرا قويا جزلا نقرأه ونستمتع به ونعجب بقوة تحمل صاحبه وطول صبره وجلده ، فلله دره من شاعر تحمل كل هذه الشدائد والزلازل فلم يهن ولم يتزلزل .

العتـــاب والنصـــح :

عاتب الشاعر قومه ونصحهم لما رأى كثرة اختلافهم ، وحذرهم عاقبة الفرقة وسماع أقوال الأعداء والوشاة والساعين الى ازالة الدولة العيونية ولكن الأمراء العيونيين فى غالب الأحيان لم يأخذوا بنصائحه، بل ضربوا بأقواله عرض الحائط ، وزاد الأمر على ذلك عندما تبرمـوا بكثرة انتقاده لهم ، أخذوه وسجنوه وصادروا ممتلـكاته ، فكان من الطبيعى بعد خروجه من السجن أن يكثر من لومهم والعتب عليهم والتنبؤ بمصيرهم المحتوم نتيجة هذه السياسات المشؤومة ، وسنرى أن عتاب ابن مقرب يمتزج باللين تارة، وبالشدة والعنف تارة أخرى ، وقد استنجز بشعره بعض أمراء الدولة من بنى عمه ، ما وعدوه ، فلما طال عليه الأمد ولم يفوا بوعودهم عاتبهم على ذلك الاخلاف ، هذا ويرى بعض النقاد أن العتاب والاستنجاز متداخلان[١١٢] .

فمن عتبه على قومه مرتفقا بهم ومتشوقا اليهم يخاطبهم بقوله :

ويشـــتاقكم قلبـــى فأذكـــر دونـــكم
مهـــامه لا اشـــتاقها وســـباسبا

---

(١١٢) راجع العمدة لابن رشيق ص ١٥٨ جـ ٢ .

فيسهل عندى خوضها فيعز لى
تذكر حالات أشبن الذوائبا
ولا عار فى ضيم الملوك على الفتى
وما زال حكم السيف فى الأرض غالبا[١١٣]

وبعد هذا العتاب الخفيف الذى جاء على شكل تعريض ينتقل الى نصح الأمير القائم بولاية الأمر فى ذلك الوقت ، ويوصيه بالرفق بالعشيرة وبأسرة الشاعر على وجه الخصوص :

فيا ابن أبى رفقا بهن وكن أبا
مديما على اكرامهن مواظبا
وصل واحتمل واخفض جناحك رحمة
لهن ولا تقطب عليهن حاجبا
وحاذر عليهن الجفاء فانني
أرى الموت أن يمشين شعثا سواغبا[١١٤]

وفى موضع آخر نراه يعتب على قومه لأنهم أخروه وقدموا غيره من أذناب الناس ، مما أدى فى النهاية الى ضعف الدولة وطمع الأعادى فيها بسبب عدم كفاءة هؤلاء الناس فقال :

ولكن لأمر أخرونى وقدموا
زعانف لا ينهى العدو احتسابها
تصيب وما تدرى وتخطى وما درت
وتعدو وفى حبل العدو احتطابها
فيا صفقة الخسران فيما تبدلوا
وهل يتساوى تبرها وترابها

---

(١١٣) الديوان ص ٣٨ .
(١١٤) الديوان — ص ٤٠ — سواغب : جوعى .

وهــل قيســت الخيــل العــراب بعانة
كداديــة لا يلحــق الضــب جابهــا
لذا طمعــت فينــا البــلايا وأصــبحت
تهــر علينـــا كالشـــراة كلابهــا
وشــالت لنــا أذنابهــا مقذحـــرة
وعهــدى بهــا تســطو عليها ذئابها(١١٥)

وكما لاحظنا فان هذا العتاب قد امتزج بالحسرة والكمد والألم ، لأن الذين عاتبهم هم أهله وأسرته ، ومما زاد فى عبرته وأشجانه أنهم ما سمعوا له كلاما ولا أخذوا له بنصح :

ومن عتبه الشديد فى قومه قصيدته الدالية التى مطلعها :

تجــاف عن العتبى فمــا الذنب واحــد
وهــب لصــروف الدهــر ما أنت واجد
اذا خانــك الأدنـــى الذى أنــت حزبـــه
فـــلا عجبــا ان أســلمتك الأباعـــد

وفيها يعتب على الأمير فضل بن محمد بن أحمد بن أبى الحسين ، ويشتد عليه باللوم لجفائه له وتطيعنته لحق القرابة والاستهانة بحقوق الأسرة ، ثم يذكره بما مضى ، ضاربا له على ذلك الأمثال الموجعة الأليمة ومظهرا آيات الندم على مدحه له فى السابق ، ويقال أنه أنشد الأمير فضلا هذه القصيدة ، وبعد ذلك رحل لتوه من البلاد ، ومن أبياتها قوله:

أيــا فضــل قد طــال انتظارى ولم يقم
شــتاء ، وقيظــا ، عنــد مثــلك وافد

---

(١١٥) ص ٤٦ — العانة : الأتان ، والكدادية : نسبة الى كداد كثام: فحل تنســب اليه الحمر ، الجأب : الحمــار الغليظ ، الشراة : فريق من الخوارج ، تقذحر : تهيأ للشر .

وقد زالت الأعــذار ، لا الغــوص بائــر
ولا البحر ممنوع ، ولا الدخل فاســد

ولا أنــت محجــور التصــرف فى الندى
عليــك رقيـــب فى نــوالك راصـــد

ولا فى (بنى فضــل) بخيــل ، وانهــم
اذا اغبــرت الآفــاق غــر أماجــد

فمــن أيــن يأتــى اللــؤم يا ابن محمد
ومجــدك فى بيت (العيونى) زائد(١١٦)

أترضــى بأن تغــدو تســامى ركائبــى
حمــولاتها ، كيــرانها والمقــاود

لحــق مــديحى ، أم لحــق مــودتى
لــكم ، أم لأن البيــت والجــد واحــد

فــلا تقطعــن مــا بيننــا مــن مــودة
وقــربى ، وخــل الشعر فالشعر كاســد

ولا تنســين مــا نالنــى فى هــواكــم
وقــد ظفــر الســاعى وقــل المســاعد

يقوم بــه حيــا (نــزار) و (تغــلب)
شــهود ، وفى الدعــوى يمــين وشاهد

لقــد كنــت أرجــو فى جنابــك حــالة
يمــوت لهــا غيظــا غيــور وحاســد

---

(١١٦) ص ١٤٦ — الغوص : على اللؤلؤ ، وشواطىء الخليج العربى حقول خصبة لحبات اللؤلؤ .

الكيران : جمع الكور ، وهو الرحل ، والمقاود : ما يقاد به الفرس .

والأبيات السابقة كما نرى تتراوح شدة ولينا ، وتختلف بين العنف والاستعطاف ، فبينما يخاطب الأمير فى أحد الأبيات بمثل قوله : (فمن أين يأتى اللؤم يا ابن محمد ••) نراه فى موضع آخر يقول : (فــلا تقطعن ما بيننا من مودة ••) ويذكره فى بيت آخر بتضحياته فى هواهم بقوله : (ولا تنسين ما نالنى فى هواكم ••) •

بينما نراه فى قصيدة أخرى يخاطب قومه بلغة أشد من هذه اللغة، وينعى عليهم تخاذلهم عن الحرب واستسلامهم لمطالب الطامعين فى البلد ويحرضهم على النهوض وقتال الأعداء فيقول :

الى كـم مـداراة العـدى واحترامهـا
وكـم يعترينـا ضـيمها واهتضامها
أمـا حـان يا فرعـى ربيعـة أن أرى
بنـات الوغـى يعـلو الروابـى قتامها
ردوا الحـرب ورد الظامئـات حياضـها
خوامس يغتـال الفصـال ازدحامهـا
وخوضـوا لظاهـا باقتحـام فانمـا
يكشـف غمـاء الحـروب اقتحامهـا
ولـوذوا ببيـض المشـرفيـة انهـا
لهـا عـزة قعسـاء واف ذمامهـا(١١٧)

لغة قوية وألفاظ جزلة ، وأسلوب متين عبر بها الشاعر عما يعتمل فى صدره من عوامل الغيظ والحنق لتخاذل قومه عن مجابهة الأعـداء ويحرضهم بهذه اللهجة الشديدة على النهـوض والمجابهة ، فانها خير وسيلة لنيل العزة والكرامة حسب رأيه •

---

(١١٧) ص ٤٥٦ ، الضيم : الظلم ، الاهتضام : الانتقاص من الحق ، بنات الوغى : الخيل ، القتام : الغبار الأسود تثيره الحرب ، الخمس : ارواء الابل بعد خمسة ايام . الفيصل : ولد الناقة ، عزة قعساء : ثابتة .

ثم انه يتوجع من أحوال قومه بدموع تعبر عن حميته لا عن ضعفه خيقـــول :

أفي كـل يـــوم يــا لقـــومي بليــــة
وخطـة خسـف مـن عـدو تسـامها
أمـا وأبيـــكم ان قلبـــي لمـوجـع
لـذاك ، وعينـي لا يجـف انسـجامها
ومـا عبـرت بـي ليـلة منـذ مـدة
كمـــا قـــال الا ليـلة لا أنامهـــا
ومـا ذاك ذلا بـــل بقـايـا حميـــة
على حدثان الدهـر بـاق عـرامها(١١٨)

ويحاول استثارتهم بذكر شرفهم بين الناس وأمجاد آبائهم :

ألا يـا لقـومي من علـي بـن عبـدل
وللخطـب يدعـى أسـدها لا نعامهـا
ألسـتم بنـي الغـر الألى عرفـت لهم
نفـوس نفيسـات المعـالي مرامهـا
فـان نزلـوا أرضـا فمنهـم مليـــكها
وان جمحـت قـوم فمنهم شـكامها
أترضـون ذا النقص الـذي مـا وراءه
وأنتم اذا صـالت معـد سـطامها(١١٩)

---

(١١٨) ص ٤٥٩ ، سامه خطة خسف : أذله ، حدثان الدهر : صروفه، عرام الشيء : صولته .

(١١٩) الديوان — ص ٤٦٠ — الجموح : الذي لم يذلل ، والشكيمة في اللجام : الحديدة المعترضة في فم الفرس . السطام : حد السيف .

وفى النهاية يقول ناصحا قومه ان أنتم لم تصبروا على الحرب فلا أقل من مفارقة ديار الذل فان فى أرض الله الواسعة مكان لكم بعيدا عن ديار الذل والضيم فحياة الذل هى الموت سواء بسواء .

والا فشــدوا للجــلاء فلم يعــد
سـواه ، فعنـد الضيم تجـلى كرامها
فان كـان فى البحرين ضـيق فلم تضق
منـازل بـكر عنــكم وشـسآمها
ولا خــير فى دار يعيش بهـا الفتـى
مهينـا ، ولـو جادته درا غمامهـا[١٢٠]

واستنجز الأمير مقدم بن ماجد تحقيق وعد وعده اياه بأن يخلع عليه خلعه ، فلما طال الأمد كتب اليه يقول :

أأسـكت عن مـولى الورى أم أعاتبـه
وأهمـل وعـدى عنــده أم أطالبـه
أرانــى بأدنــى مطـلب هنـت عنـده
وقـد غرقـت من ليس مثـلى مواهبـه
أترضــى أبـا شـكر بسـحب غمامـة
لمثـلى وأنت البحـر جاشـت غواربـه

ومنهــــا :

أتخشـــى هجوم الفقر أم تطلب الرضـا
بـه من عــدو أنت ان شـئت غالبـه
فــلا تبخلن عنــى بمــا أنــا أهلـه
فـكل نفيـس أنت لابـــد واهبـــه

---

(١٢٠) ص ٤٦٥ — أجلى القوم : تفرقوا ، منازل بكر : ديار بكر وهى تجمع مدائن كثيرة .

فأجمل ثوبيك الذى أنا لابس
وخير جواديك الذى أنا راكبه[١٢١]

ويقول إن العتاب دليل المودة ، وأن شر الناس من لا تعاتبه ولا تهتم به :

ولا تنكرن عتبى عليك فانه
جميل وشر الناس من لا تعاتبه

أعاتب من أهوى على قدر وده
ولا ود عندى للذى لا أعاتبه

وأكرم أبناء الملوك سجية
كريم متى عاتبته لان جانبه[١٢٢]

وهكذا نرى ابن مقرب فى عتابه واقتضائه ، جميل العبارة ، قوى الألفاظ ، وأسلوبه يصطبغ باللين تارة ، وبالعنف والشدة تارة أخرى حسب المقف ، ولكل مقام مقال ، ولأنه لا يؤمن بسياسة مسالمة العدو فقد حض قومه فى عبارات قوية على النهوض والحرب ومسك زمام الأمور بالشدة والعنف حتى لا يطمع الطامعون فى البلاد ، ونرى هذا الأسلوب يلين ويضعف عندما يستعطف الشاعر أمراء قومه ، ناصحا لهم بالرفق بالعشيرة والحدب عليها واغضاء الطرف عن أخطائها وهفواتها ، حتى لا تصاب بالتفكك والفرقة فتصبح لقمة سائغة فى فم الأعداء المتربصين .

---

(١٢١) الديوان — ص ٥٩ .
(١٢٢) ص٦٣ .

الرثـــــاء :

كتب ابن مقرب فى هذا الغرض شـــعرا قليلا ، وكل ماله فى هذا المجال أربع قصائد ضمها الديوان(١٢٣) ، اثنتان منها فى ابن عـــم له ، وثالثة قالها فى صديقه الرئيس الحسن بن عبد الله ، والرابعة فى رثاء القاضى محمد بن ابراهيم المستورى ، وكانت تربطهما صلة مودة ، وتميز رثاء ابن مقرب عموما بصدق العاطفة نحو الفقيد ، واصطبغ بالحزن واللوعة واستدرار الدمع فكان هذا الشعر منسجما مع الموقف الذى قيل فيـــــه •

ومع ذلك فلابد أن يكون فقدان ابن مقرب لأحد أبناء عمومته أشد وقعا على نفسه من غيرهم • ومن ثم كان رثـــاءه فيهم انعكاسا لهذه المشاعر ، وكان فيه من تصوير اللوعة وبيان الفاجعة أكثر مما فى غيره ، وذلك على الرغم من عدم اســـتقرار علاقته بهم ، ولكنها صلة القربى ووشائج الرحم التى لا تنقطع ، وهو غالبا ما يبدأ قصيدة الرثاء بتمهيد مناسب يذكر فيه أحوال الدنيا وتقلباتها ، وأن مصير كل حى الى فناء ، وعلى العاقل ألا يغتر بزينتها ولو أغدقت عليه من النعم الشىء الكثير ، لأن مرجع هذه الملذات فى النهاية الى الزوال ، ونراه اذا رثى أحد أقاربه يذكر عظم الفاجعة وفداحة الخطب ، ومن ثم يتطرق الى صلته بالفقيد وأنه فقد به درعا كان يتقى بها نوائب الدهر وعوادى الأيام • نرى مثل ذلك فى قصيدته التى رثى بها ابن عمه مذكور بن عبد الله بن منصور ، وقد مات مقتولا ، فقال وقد كان غائبا :

أظنـــك خلت الشـــوق والنـــأى أبـــكانى
فأقبلت نحـــــوى يابس الدمـــع تلحانى

---

(١٢٣) استبعدنا قصيدته فى رثاء الحسين عليه السلام لأننا نشك فى نسبتها اليه ، راجع ص ٦٤ من هذا البحث .

فقـــم فالتمس خـــلا ســـواى فما أرى
صـــحابة من لـــم يتبـــع شـــأنه شـــانى
كأنــك مـــا شـــاهدت مـــا قد أصـــابنى
به الدهر من صياب قومى واخوانى(١٢٤)

فهو يلوم صاحبه الذى عاتبه على بكائه ظنا منه أن هـــذا البكاء بسبب الشوق والنأى عن الأهل والدار ، وما علم أنه بسبب مصابه فى فقيد عزيز ، ثم انتقل الشاعر الى ذكر مكانة قومه وقرابته وأنه كان يرمى بهم أعداءه ، ويتقى بهم نوائب الدهر :

رزئـــت مـــلوكا لـــو بـــكيت لفقـــدهم
دمـــا مـــا كفانـــى عمـــر نـــوح ولقمان
بهـــم كنـــت أرمـــى من رمـــانى وأتقى
بهـــم نائبات الدهر من حيث تلقانى(١٢٥)

ويعاتبهم عتابا خفيفا ثم يعود فيلتمس لهم الأعذار :

بأســـيافهم ذاقـــوا الـــردى وتجرعـــوا
حســـا الموت لا أســـياف قيس وغيلان
وليس عقـــــوقا منهـــم بـــل تعاليـــــا
الى خـــير غايـــات وأشـــرف بنيان(١٢٦)

ولقد شمت الأعداء فيهم وانتهز الأذلاء فرصة غيابهم :

لعمـــرى لقـــد ســـر العـــدو وأظهـــرت
دفـــانات أحقـــاد ســـترن وأضغـــان
ومـــدت غضـــــاريط الرجـــال أكفهـــــا
لتلمس عـــزا بعـــد ذل واذعـــــان(١٢٧)

---

(١٢٤) ص ٥٩٤ — وصياب القوم : لبابهم .
(١٢٥) ص ٥٩٥ .
(١٢٦ ، ١٢٧) ص ٥٩٥ — قيس وغيلان : خصومهم ، والغضرط : الأجير اللئيم .

وبعد أبيات قليلة يذكر فيها صلته بالمرثى وفجيعته به ويستدر الدموع لفقده ، ينتقل لذكر صفاته ومآثره ، فقد كان درءا للعشيرة ، وغيظا للأعداء ، وفاديا للأسرى :

ألا شقيت قومى لقد غالها الردى
بمقدام غارات وفلال أقران

بماذا أصيبت ويلها يوم سددت
اليه المنايا سهم صفراء مرنان

لقد كان غيظا للأعادى وباذخا
يلوذ به جان ويأمله عان

فمن بعده من للرماح يعلها
وينهلها من كل أشوس مطعان

ومن لتوالى المرهقين اذا غدت
تعاطى ، وأبدى الشر صفحة عريان

ومن لجليل الخطب يوما اذا أتت
هوازن تردى بين بيض وأبدان

ومن لمضيم مضه الضيم والتوى
به ذو ظلامات تعد وعدوان

ومن لأسير غارم فل ماله
وآب من المولى الشقيق بحرمان(١٢٨)

---

(١٢٨) الديوان ص ٥٩٧ — فلال اقران : من يقتل شبيهه ، المرنان : القوس والمران : رماح القنا ، العانى : الأسير ، المرهق : من ادرك فى الحرب ، أبدى الشر : كشف عن نفسه ، ردى الفرس : رجمت الأرض بحوافرها ، البيض : جمع بيضة وهى الخوذة لحماية الراس فى الحرب والبدن : الدرع القصيرة ، المضيم : المظلوم ، آب : رجع .

ثم يستحث أهل بيت القتيل على النهوض للأخذ بثأره ، فهم قادرون على ذلك ، وماضيهم وأمجاد آبائهم تشهد لهم :

فيا آل ابراهيم بكوا ليومه
دما وأقيموا سوق نوح وارنان
وقوموا لأخذ الثأر جد ولا تنوا
قيام أبى لا خرون ولا وانى
فعندكم للطعن سمر عواسل
وللضرب بيض لا تقر بأجفان
يخبرن عن أيام مرة وابنه
أبيكم وعن أيام ذهل بن شيبان
بها ضربت آباءكم وجدودكم
جماجم أهل البغى من قبل ساسان(١٢٩)

ومما يزيد النفس حسرة وكمدا أن قاتل الفقيد من توافه الناس ، لا يعرف من هو ، ولا يعرف أبوه ، وليس له من فضل يذكر به ، ولو كان قاتله ندا له أو مساويا لمكانته لخفف ذلك من المصاب :

فلو أن فى الحى الشبانى ثاره
لكنت أمنى النفس منه بسلوان
وان كان لا يوفى به من دمائهم
قتيل ، ولو أوفى على رب علهان
ولكنه أمسى قتيلا لمعشر
اذا قيل من هم قيل هى بن بيان(١٣٠)

(١٢٩ ، ١٣٠) ص ٥٩٨ — الارنان : صوت الثكلى ، ونى : فتر ، الدابة الحرون : الممتنعة عن السير ، عسل الرمح : اشتد اهتزازه ، الحى الشبانى : أولاد شبانه بن عقيلة بن سنان ، علهان : اسم فرس ، هى بن بيان : كناية عمن لا يعرف ولا يعرف ابوه .

ويعزى أبا الفقيد بقلب مكلوم ، ويذكره بأن الأحياء مصيرهم الى فناء وأن من لم يمت بالسيف مات بمثله من علل وغيرها ، ويضرب له أمثلة من التاريخ لأبطال قتلوا على يد أناس حقيرى الشأن من عبيد أو رعيـــان :

فمـن مبلـغ عنـى أبـــاه رســـالة
مغلغـــلة عن موجـع القـــلب حـران
أيـا عـم لا تجـزع فـكل الى البـلى
يصـــير ولا خـلد لانس ولا جـــان
فلـو لم يمـت قتــــلا لمـات بعـــلة
وليس بمنـج من ردى رأس غمـــدان
ومـا قتـله ممـا يعـاب بـه الفتـى
اذا عـد يومـا بـين شـيب وشـبان
فقـد مـات بسـطام بطعنـة عاصـم
وكـان المرجـى فى معـد بـن عدنـان
وحمـزة عـم المصـطفى ذاق حتفـــه
بطعنـــة عبـد من ســلالة عبـــدان
كـذا ابن حـوارى الأمـــير محمـــد
أتـــاه الـردى من كف راع لرعيان(١٣١)

وفى نهاية القصيدة يدعو لقبر الفقيد بالسقيا وله بالجنة :

سـقى الجدث الثاوى بـه كـل رائـح
من المـزن أو غـاد مسـح بتهتـــان
وحيتـه أمـــلاك الســماء بجنـــة
وظـل ظليـل بين روح وريحـان(١٣٢)

---

(١٣١) ص ٥٩٩ — غمدان : قصر باليمن .
(١٣٢) ص ٦٠٠ — الجدث : القبر ، الثاوى : المقيم ، هتنت السماء: هطلت بضعف .

ونلاحظ على الأمثلة السابقة التى استشهد بها الشاعر من التاريخ مناسبتها لحالة المرثى ، فجميع من ذكرهم الشاعر قتلوا على يد أناس أقل منهم شأنا ، وكذلك هذا الأمير قتله رجل تافه ليس له أو لأهله مكانة معروفة بين الناس •

على أن ظاهرة التعزية بذكر الأمثلة التاريخية تتبدى أكثر وضوحا فى القصيدة التى رثى بها ابن مقرب صديقه الرئيس الحسن بن عبد الله ومنهـــا : (١٣٣)

أين المـــلوك وأرداف المـــلوك ومـــن
ســـاد القبـــائل من عـــاد ومن ارم
وأيـــن طســـم وأولاد التبـــايع ممـــن
أولاد خمـــير والســـادات من عمـــم
وأيـــن آل مضـــاض فى قبـــائلهـــا
من جـــرهم ، ســـاكنى بحبـــوحة الحـــرم
أفنـــاهم وأدار الـــكأس مترعة
فى وائـــل فســـقاها غـــير محتشـــم
أردى ابـــن مـــرة همـــاما وكـــان لـــه
عنـــد الرئاســـة عـــن آبائـــه القـــدم
ومـــانع الجـــار جســـاسا أتيح لـــه
ســـهم المنـــون على عمـــد فلـــم يرم
والحوفـــزان الـــذى كانت تنـــوء بـــه
بـــكر ســـقاه بكاســـات من النقـــم

(١٣٣) الديوان ص ٤٨٥ — عم : قبيلة من لخم ، بحبوحة الحرم : وسطه ومتسعه ، لم يرم : لم يتحرك من مكانه ، تنوء به بكر : تتحمل الأثقال والمغارم ، اخترمته المنية : مات وقضى ، ابتزه ملكه : نزعه منه ، القسم بالكسر : الأنف أو ناحيتاه .

وفارس العرب العرباء ان ذكرت
بسطام مد اليه كف مخترم

فابتزه ملكه غصبا وأنزله
فوق التراب عفير الخد والقسم

وعاقر الفيل يوم القادسية قد
سقاه كأس الردى صرفا بغير فم

وقد أذاق شبيبا فى شبيبته
كأس الحتوف بلا سيف ولا سقم

والمزيديين غالتهم غوائله
واجتاحهم مزيد من سيله العرم

ولم تدع هانئا وهو الذى انتصفت
به الأعاريب واستولت على العجم

والحارث بن عباد غاله وسطا
بجحدر فارس التحلاق للمم

والحارث بن سدوس لم يهب عددا
فيهم بنوه ولما يكثرت بهم

والجعد مسلمة لم يحميه فدن
بناه والده اذا كان ذا همم

وهوذة بن على حط منتزعا
عن رأسه التاج عمدا غير محتشم

وشيخ عجل أبا معدان عاجله
منه الحمام فلم يطلب له بدم

وفارس العرب العربا وسيدها
أعنى كليبا قريع العرب والعجم

لم يحمه عدد يوما ولا دفعت
عنه المنية اذ جاءت بنو جشم

ولم يكن لعدى بعده عصم
منه وكان عدى أى معتصم

وآل كلثوم سادات الأراقم لم
يترك لهم من حمى حام ولا حرم

أولئك الغر من سادات قومكما
أهل النهى واللهى والعهد والذمم(١٣٤)

وبعد هذه الأمثلة الكثيرة التى سردها الشاعر يخرج فى نهاية القصيدة بهذه الحكمة وهى كالخلاصة لما قال :

وهذه شيم الدنيا وعادتها
فيمن مضى أو بقى من سائر الأمم

ونحن نقف من ناحية أخرى من خلال هذه الأمثلة التاريخية على مدى احاطة ابن مقرب بحوادث الأمم الغابرة وعمق ثقافته والمامه بسيرة من مضى من الأبطال والقادة العرب والمسلمين ، هذه الثقافة التى أسعفت ابن مقرب بمدد لا ينضب من المعلومات التى أضفت على مراثيه الشىء الكثير من الحيوية والتنويع .

---

(١٣٤) الفدن : القصر المشيد ، غير محتشم : غير مستح ، الحمام : الموت ، المجر : الجيش العظيم ، وجشم : أحياء من تغلب ، العصم : ما يعتصم به المرء فيمنعه ، والأراقم : حى من تغلب ، النهى : العقول ، واللهى : العطايا الكثيرة .

ومن قصيدته التى رثى بها القاضى المستورى يخاطب ابنه عبد الله معزيا له ، طالبا منه الصبر والثبات فقال :

وقيت الردى والسوء يا با محمد
وحلت بمن يهوى رداك القوارع

تعز فكل سالك لسبيله
وكل امرىء من خشية الموت جازع

ونحن سواء فى المصاب وان نأت
بنا الدار فالارحام منا جوامع

ولا شك منا فى التأسى وانما
نعزيك اذ جاءت بذاك الشرائع(١٣٥)

ولعلنا من خلال البيت الأخير نستطيع الوقوف على دوافع الرثاء عند ابن مقرب ، ونستطيع أيضا من خلال الأبيات عموما أن نستشف الفرق بين هذا الرثاء الذى يكاد البرود أن يطغى عليه ، وبين رثائه لابن عمه المتقدم ، وما تميز به من حسرة واحساس بالفجيعة والألم .

الحكم والأمثال :

الحكمة وليدة التجربة ، والتجربة تعنى التمرس بأحداث الحياة وصروف الزمان ، وتعتبر خلاصة اجتماعية مركزة لواقع مر بالانسان ، فكان له فيه عبرة ودرس ، وكما كان متوقعا فقد برع شاعرنا ابن مقرب فى هذا اللون من الشعر نظرا لتمرسه بصعاب الحياة ومشاقها ، وما فرضته عليه الظروف من مواقف كان عليه أن يجتازها بحنكة وصبر وأناة الى بر الأمان بالاضافة الى ما حباه الله من انتقاد ذهن وبراعة شعرية

(١٣٥) ص ٢٨٢ — يهوى رداك : يحب مهلكك ، نأت : بعدت .

وسرعة خاطر ، فقد انثالت أبيات الحكمة على لسانه شعرا سيالا مليئا بخلاصة تجاربه وعصارة تفكيره ، معبرة عن رأيه فى الحياة والناس ، وما ينبغى للعاقل أن يتخذه من مواقف بازائهم ، وما ينبغى للأريب أن يعاملهم به ، ومن ذلك قوله :

من سالم الناس لم تسلم مقاتله
منهم ومن عاث فيهم بالأذى سلما

لا يقبل الضيم الا عاجز ضرع
اذا رأى الشر يغلى قدره وجما

وذو النباهة لا يرضى بمنقصة
لو لم يجد غير أطراف القنا عصما

وذو الدناءة لو مزقت جلدته
بشفرة الضيم لم يحسس لها ألما

ومن رأى الضيم عارا لم تمر به
شرارة منه الا خالها أطما

وكل مجد اذا لم يبن محتده
بالبأس نقرة الأعداء فانهدما

لا يضبط الأمر من فى عوده خور
ليس البغاث يساوى أجدلا قطما(١٣٦)

فمن خلال هذه الأبيات نستطيع استخلاص رأيه فى كيفية معاملة الناس من خلال تجاربه معهم :

١ — فهو لا يؤمن بسياسة اللين والمسالمة ، وانما بسياسة العنف

(١٣٦) الديوان ص ٥٢٧ — عاث : أفسد ، الضرع : العاجز ، ووجم : خرس ، الأطم : الحصن ، الاطيمة : موقدة النار ، الخور : الضعف ، البغاث : ضعاف الطير ، الاجدل : الصقر ، القطم : مشتهى اللحم .

والقوة ومبادرة الآخرين بالأذى والظلم ، فذلك فى رأيه هو الطريق الأمثل للعيش بسلام فى هذه الدنيا .

٢ — يرى أن الرضا بالهوان والسكوت على المذلة انما هو من شيمة العاجزين وذوى الدناءة ، أما الأقوياء والمتطلعون الى معالى الأمور فان أنفتهم تأبى ذاك وترفضه فى اباء واصرار ، وتبعا لذلك فهو يرى أن كل مجد أو ملك لا تقوم أعمدته على قوة البأس والسيف سيكون سهل الانهيار سريع السقوط ، ولعل قوله : (وذو الدناءة لو مزقت جلدته ... البيت) يذكرنا بقول أبى الطيب المتنبى :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام

ولا شك أن الانسان اذا دعا غيره الى شىء ، فيجب أن يبدأ بنفسه أولا ، ولكن ابن مقرب وهو يعطى خلاصة تجاربه للناس لم يشأ أن يطبقها على نفسه نظرا لأن من عاداهم هم أبناء عمه وأهل قرابته ، وحق القرابة عنده فوق كل شىء ، لذلك نراه يقول بعد ذلك :

ولا يعز الفتى الا بأسرته
لو كان فى البأس (عمروا) والندى (هرما)

ويترك نصيحة من يطلب منه فراق قومه وقطع علاقاته معهم ، فهم كالغصون من جسمه وحقهم عليه كبير :

وكم قائل لى عد عنهم فانه
مع الألم المضاض قد يقطع الأرب

فقلت : رويدك قد صدقت وذلكم
اذا لم يكن فيه لحامله طب

اذا لـــم أداو العضـــو الا بقطعـــه
فـــلا قصـــب يبقـــى لعمـــرى ولا قصب

وانـــى بقـــومى للضـــنين واننـــى
على بعـــد دارى والتنائى بهم حدب(١٣٧)

وطريق المجد هو طريق القوة والبأس ، ولا ينال المجد من كان همه سماع الأغانى وعناق الحسان ، ولا يبلغ المعالى الا من نحى جانبا التفكير فى عواقب الأمور :

منـــال العـــلى بالمرهفـــات القـــواضـــب
وســـمر العـــوالى والعتـــاق الشـــوازب

وطعـــن اذا مـــا النقـــع ثـــار وأقبـــلت
بنـــو الحـــرب أمثـــال الجمـــال المصاعب

وضـــرب يـــزل الهـــام عن كـــل ماجـــد
على الهـــول مقـــدام كريـــم المناســـب

وليس ينـــال المجـــد من كـــان همـــه
طـــروق الأغـــانى واعتنـــاق الحبـــائب

ولا بلـــغ العليـــاء الا ابـــن حـــرة
قليـــل افتكار فى وقـــوع العواقب(١٣٨)

وهذا يتطلب النأى عن دار الهـوان والذل والاغتراب فى طلب المجـــد :

---

(١٣٧) ص ٣٢ ــ الارب : الحاجة ، القصب بالفتح : عظام الاصابع ، والبضم الظهر والمعى .

(١٣٨) ص ٤٧ ــ الشوازب : جمع شازب وهو الخشن ، والضامر : اليابس ، والمصاعب : جمع المصعب وهو الجمل الصعب ، ويزل الهام : يذهب بالراس .

اذا الديار تغشاك الهوان بها
فخلها لضعيف العزم واغترب[١٣٩]

وكل تعب فى هذا السبيل يهون ، لأن الأعضاء اذا تعنت لأجل راحة الانسان ارتاح قلبه وزالت همومه ، اما اذا كان الانسان يرزح تحت الذل والمهانة فان الجسم يصيبه السقم :

وفى تعب الأعضاء للقلب راحة
ولا تصلح الأعضاء والقلب رازح[١٤٠]

والخوف ومداراة الموت لا تغنى عن ملاقاته ، وكل انسان له يوم لابد لاقيه :

ولا عاش من يرضى الدنايا أهل رأى
جبانا على مر الليالى مخلدا ؟
وهل مات من خوض الردى قبل يومه
فتى لوطيس الحرب مازال مفئدا[١٤١]

ويظهر أن شاعرنا قد يئس من استقامة عادات الناس واصلاح أحوالهم فدعا الى عدم الركون اليهم ، أو اعطائهم أى ثقة ، وعصيانهم فى كل مشورة ، فلقد جربهم بنفسه ووجد أن صحيح الود منهم عقرب :

لا تركنن الى العدو ولا تطع
آراء من فى حبل غيرك يحطب
واعص الذليل اذا أشار ولا تثق
فى الكائنت بكل من تستصحب

---

(١٣٩) ص ٧٦ .
(١٤٠) ص ١٢٤ .
(١٤١) ص ١٤٩ — وطيس الحرب : أشدتها ، المفئد : خشبية يحرك بها التنور .

واعـلم بـأن النــاس قـد جربتهـم
فاذا صـحيح الـود منهم عقــرب[١٤٢]

وانظر الى قوله (ولا نثق فى الكائنات) لكى تقف على مبلغ ما عاناه ابن مقرب من الناس ومن مكائدهم .

وفى موضع آخر يشبه مودة الناس ، وتبخرها عند الحاجة كالبرق الذى يلوح ثم يختفى :

ولقـد حلبـت الدهـر أشـطر نابـه
وعرفت مـا يبـدى ، ومـا يتغيـب
فاذا مـؤدة كـل مـن أصـفيتـه
ودى ، لـدى الحـاجات برق خاب[١٤٣]

والمال عصب الحياة وبه يعتز الانسان ويتقوى فى الملمات ، فاذا بات الانسان خاوى الوفاض من المال ، استهان به الناس ، وجفاه الأقـارب ، والعجز أعدى أعداء الغنى ، فمن اتخذه مطية فى درب الحياة لم يكن له للجاه سبيلا أبد الدهر :

ألسـت تـرى أن المقـل يمجـه
أخـو الرحـم القـربى وتبدو مهايبـه
اذا المـرء لـم يملـك من المـال ثـروة
رمتـه عـداه واجتـوته أقاربـه
ومن يجعـل العجـز المطيـة لـم يزل
يمـر عليـه الدهـر والفقـر صـاحبه

---

(١٤٢) ص ٩٠ .
(١٤٣) ص ٨٦ — حلب الدهر أشطره : اختبره خيره وشره ، برق خلب : لامطر وراءه .

فقم وأركب الأهوال جـــدا فطالمـا
أفــاد الغنى بالمركب الصعب راكبه[١٤٤]

وأخيرا فان ابن مقرب يلخص لنا رأيه فى مبادىء حسب تجربته التى خاضها بنفسه ، وذلك على شكل تعريفات فى أبيات متوالية فيقول :

العــز مــا خضـعت لهيبتــه العــدى
وأقــام بالفــكر المــلوك وأقعـــدا
والمــال مـــا وقــاك ذمـــا أو بنـــى
عليــاك أو أبقـــى لقــومك ســــؤددا
والجــود مــا بلــت بــه رحــم ومــا
أوليــت ذا أمــل أعـــدك مقصـــدا
واللــؤم اكـــرام اللئيــم لأنـــه
كالذئب ، لــم يــر عــدوة الا عـــدا
والعــزم مــا تــرك الحـديد مفـــللا
والخيــل حســرى والوشيج مقصــدا
والنبــل فتــكك بالمعـــادى غــادرا
أو وافيـــا ، مســتنجدا أو منجـــدا
والحــلم فى بعــض المـــواطن ذلـــة
فاصفح ، وعــاقب واعجلن وتأيدا[١٤٥]

هذا وقد أورد ابن مقرب الحكمة فى شعره بشكل مقنع ومسلم به ، وواضح على عادة حكماء الحياة وذوى التجــارب المحنكين ، فالحكمة لا تتطلب غموضا أو اخفاء ، بل الوضوح هو سبيل انتشارها بين الناس كى يفهموها ويستفيدوا منها ، كما جاءت حكمة ابن مقرب فى لغة فصيحة

---

(١٤٤) ص ٥٣ .
(١٤٥) ص ١٦٧ ـــ العدوة : المرة من العــدوان ، مفللا : مثلوما ، والوشيج : شجر الرماح ، مقصدا : مكرا ، تأيد : تقوى .

سليمة وأسلوب سلس جميل ، وعرضها صاحبها عرضا سهلا جزلا رائعا مستساغا .

ومن ناحية أخرى استخدم ابن مقرب بعض الأمثال المتداولة المعروفة فى شعره ، ولا شك أن ادخال مثل هذا النوع من الأدب فى الشعر يزيده افرادا وتنوعا ويضفى عليه طرافة غير قليلة ، وهذه الأمثال من ناحية أخرى تدلنا على كثرة اطلاع الشاعر وتنوع ثقافته ، الا أن ابن مقرب لم يكثر منها لأن ذلك يعد ممجوجا مستكرها ، يقول ابن رشيق :(١٤٦) « وهذه الأشياء فى الشعر انما هى نبذ تستحسن ونكت تستظرف ، مع القلة ، وفى الندرة ، فأما اذا كثرت فهى دالة على الكلفة، فلا يجب للشعر أن يكون مثلا كله » .

١ — فمن الأمثلة التى جاءت فى شعر ابن مقرب قوله :

فشمر وأوردها فقد زاد ظمؤها
على العشر لا تشمير غمر مؤارب
ولا توردنها ورد سعد وعلها
اذا نهلت عل الهجان الحلائب(١٤٧)

فقوله (ولا توردنها ورد سعد) يعنى به سعد بن زيد مناة ابن تميم ، وكان أخوه مالك بن زيد أحسن أهل زمانه قياما بالابل ، وكان ذا حمق ، ثم تزوج وبنى بامرأة ، فأورد أخوه سعد الابل فلم يحسن القيام عليها والرفق بها ، فقال مالك :

---

(١٤٦) ابن رشيق — العمدة ص ٢٨٥ جـ ١ .

(١٤٧) ص ٦٥ — الظم بالكسر : ما بين الشربتين ، والمؤارب : المداهى ، نهلت : النهل اول الشرب ، والعلل : السقى بعد السقى .

أوردهـا سـعد وسـعد مشـتمل
مـا هـكذا تـورد يـا سـعد الابـل

فذهب مثـلا ..

٢ — ومن براعته أنه قد يورد مثلين فى بيت واحد كقوله :

أدارى مـداراة الأسـير معاشـرا
مـداراتهم من موجعـات المصـائب

عن الرشـد أهدى من (سطيح) وكلهم
الى الغى (أعدى من سليك المقانب)[١٤٨]

وسطيح الكاهن هو ربيع بن ربيعة ، كاهن غسانى من العمرين ، كان العرب يحتكمون اليه ويرضون بقضائه ، وسليك المقانب — هـو سليك بن السلكة وهى أمه وكانت سوداء وهو أيضا ، وكان من أعدى الناس لا يشق غباره ، وأخباره فى العدو والغارة مشهورة ، وله قصص فى مجمع الأمثال للميدانى .

٣ — ويقول فى قصيدة أخـرى :

اذا رجفـت دار العـدو مخـافتى
فـلا تسألانى عن سعيد ولا سـعد[١٤٩]

وسعيد وسعد ابنا ضبة بن أدبن طانجة ، وكانا قد خرجا فى طلب أبل لأبيهما ضبه ، وقد نفرت ليلا وهما معها ، فافترقا فى طلبها فوجدها سعد ، وذهب سعيد فلقيه الحارث بن كعب ، وكان على سعيد بردين فسأله الحارث اياهما فأبى عليه فقتله وأخذهما ، فصار ضبة يقول اذا

---

(١٤٨) ص ٦٩ .
(١٤٩) ص ١٣٧ ..

نظر سوادا تحت الليل : أسعد أم سعيد ؟ فذهبت مثلا ، ثم انه لقى الحارث بعد ذلك فقتله انتقاما لابنه •

٤ — ومن تمثيله أيضا قوله :

وانـــى فى قـــومى كعمـــرو بن عـــامر
ليـــالى يعصـــى فى قبـــائله الأزد

أراهم أمـــارات الخـــراب ومـــا بـــدا
من الجـــرذ العيـــاث فى صـــخرها الصلد

فلـــم يرعـــووا مـــع مـــا لقـــوا فتمزقوا
أيادى سبا فى الغور منها وفى النجد(١٥٠)

وعمرو بن عامر هو سيد الأزد فى الجاهلية ، وكانوا يسكنون اليمن، وكان لعمرو تحت سد مأرب من الحدائق مالا يحاط به ، ولما رأى عمرو ابتداء الخراب فى السد أشار على أهل تلك الأرض أن يرجعوا الى طاعة الله ، وخوفهم من انتقامه ، ولكنهم لم يسمعوا له،فأشار عليهم بالخروج للنجاة من عذاب الله ، ولكنهم رفضوا أيضا ، فعندئذ خرج هو وأولاده وجماعات من الناس معه وتفرقوا فى الأرض ، فأرسل الله تعالى على أهل تلك الأرض سيل العرم ، فأغرق جناتهم ، ومزقهم كل ممزق ، كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن ، فصاروا مثلا وعبرة لكل معتبر •

٥ — وقـــــال :

مـــا انتظـــارى بـــرؤوس أينعت
ليس هـــذا الينـــع الا للحصـــاد(١٥١)

---

(١٥٠) ص ١٣٨ — الجرذ : نوع من الفئران ، عاث : أفسد ، الغور: المنخفض من الأرض والنجد ما ارتفع منها .

(١٥١) ص ١٨٠ — الينع : نضج الثمر .

والمعنى أصله مأخوذ من قول الحجاج بن يوسف الثقفى لأهل العراق فى أول خطبة له بعد توليته عليهم يخوفهم : انى أرى رؤوسا أينعت وقد حان قطافها .

٦ — وذكر ابن مقرب — الحجاج بن يوسف هذا فى بيت آخر مع مثل آخر فقال :

فآه منى بحجاج يزول به
ما كان من عجر عندى ومن بجر

والعرب تقول : لقى فلان فلانا فأتى له بعجره وبجره ، أى شكا اليه همومه وأحزانه(١٥٢) .

وهكذا استخدم ابن مقرب الأمثلة فى شعره بطريقة زادت من قوة هذا الشعر وجزالته وأضفت عليه طرافة وتنوعا وجمالا ، وهذه الأمثلة من ناحية أخرى دلتنا على مبلغ الضجر الذى كان يعتمل فى صدر الشاعر تجاه أنداده وشانئيه ، بحيث دعاه ذلك الى استخدام المثل فى شعره الوصول الى غرضه المقصود من أقصر سبيل وبأبلغ حجة .

الهجـــاء :

نصيب هذا الغرض فى ديوان ابن مقرب قليل ، وكل ما جاء منه على شكل قصائد مباشرة مستقلة بذاتها نحوا من ثلاث قصائد فقط ، بالاضافة الى مقطوعة مكونة من بيتين هجا بهما أمير الموصل بدر الدين لؤلؤا بعد ما ساءت العلاقات بينهما بفعل الوشاة ، وهجا عامل (واسط) واسمه (ابن الدبيثى) بقصيدتين من هذه القصائد الثلاث لأنه سلط

---

(١٥٢) الديوان — الطبعة الثانية — دمشق جـ ١ ص ٣٩٦ — العجر والبجر : العيوب والأحزان .

عامله على المكوس كى يفرض ضريبة عالية على تجارة كانت للشاعر يحملها فى طريقه وهو عائد من أرض العراق .

والقصيدة الثالثة هجا بها أهل الغدر والنميمة فى بلاده البحرين والذين كان لوشاياتهم الدور الأول فى تعكير صفو العلاقات بينه وبين أبناء عمه ، وبين الأمراء بعضهم ببعض مما عاد على الدولة العيونية فيما بعد بأسوأ الأثر وأوخم العواقب .

على أن أكثر هجائه لهؤلاء الغادرين جاء موزعا ضمن قصائد الديوان بجانب الأغراض الأخرى المختلفة ، وعلى عكس قصيدة المدح وما تميزت به من مقدمات مطولة ، فان قصيدة الهجاء خلت من مثل هذه المقدمات ، وافتتحها الشاعر بالدخول الى غرضه مباشرة ، ومن الناحية الموضوعية فان ابن مقرب مسف فى هجائه أيما اسفاف ، ولا يتورع عن ايراد العبارات المخجلة والألفاظ النابية التى تذكرنا بالشاعر جرير وهو يسلط بذىء شعره ومقذع قوله على الفرزدق وأمه وعلى الأخطل وأمه، وينطبق هذا الكلام أكثر ما ينطبق على القصيدتين اللتين هجا بهما الشاعر عامل واسط ابن الدبيثى كما سنرى .

على أن هذه الناحية — وأعنى بها هجاء الشخص من ناحية المرأة — ليست جديدة على الشعر والشعراء ، فقد عرفوا منذ القدم أى عار وشنار يصيب المهجو اذا عير بأمه أو أخته أو حليلته ؛ فأسرفوا فى ذلك وأمعنوا فيه ، « وعرف الشعراء ذلك فألحوا أشد الألحاح حين الخصومة والمنافرة والقتال على تناول المرأة بألسنتهم ، يضعون منها ليضعوا من قدر أهلها وأسرتها وعشيرتها ، يصفونها بأسوأ الأوصاف ، ويبلغون بذلك حدا لا تسيغه الأذواق السليمة الحضرية اليوم ، يذكرون منها سوأتها ، ويصورون انحطاط عفتها بالحق أو بالباطل ، سواء أكانت زوجا أم أم شقيقة »(١٥٣) .

---

(١٥٣) سامى الدهان — الهجاء — سلسلة فنون الأدب العربى ص ١٢ .

وابن رشيق لا يعد هذا النوع من الهجاء جيدا ، ويرى أن أجود ما فى الهجاء أن يسلب الانسان من الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان فى الخلقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون ما تقدم[١٥٤] ، وقال فى موضع آخر : « وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح »[١٥٥] .

على أن مما دفع ابن مقرب للاقذاع والفحش فى هجاء (ابن الدبيثى) — بالاضافة الى ما قلناه — هو ما ذكرته كتب الأدب[١٥٦] عن هذا الشخص من خصال سيئة ، وما بلغه فى الطمع والظلم ومشاطرة قطاع الطرق ما يحصلون عليه حدا كبيرا ، اتخذ منه الشاعر ثغرة ينفذ منها لهجوه وهتك حجابه والتشهير به .

فمن ذلك قوله مخاطبا نفسه داعيا لها بالنأى وترك (واسط) مادام يسكنها هذا الشخص :

بـــع واســطا بالنـــأى والهجــر
ودع المـــرور بهـــا الى الحشـــر

أرض يدبـــرها (ابــن صـــائبة)
شــابت مفارقهــا عــلى الكفــر[١٥٧]

ثم يهجوه ويهجو حايلته :

لــك لحيـــة كالتيــس مــا برحـــت
مــن بـــوله فى ناطـــف تجـــرى

---

(١٥٤) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٧٤ .
(١٥٥) المصدر السابق ص ١٧٢ .
(١٥٦) عمران العمران — ابن مقرب دراسة ص ١٢٦ .
(١٥٧) صبأ : خرج من دين الى آخر .

وبهـــا اذا حاضـــت خليلتـــك
ـــ الرعناء تعـرف أول الطهـر ـــ[١٥٨]

ويسخر منه لتلقيبه بالسديد وتسميته بالأديب :

لقبـت جهـــلا بالســـديد ومـــا
ســـددت فى نهـــى ولا أمـــر
ولقـــد تســـميت الأديـــب وفى
أدب الحمـــار عجائـــب الدهـــر
لـــو كنـــت يانـــوتى ذا أدب
لخلعـت عنـك ملابســـا تعـــرى
يـــا تيـس قرنـــك كـــله نقـــد
فى النطـح لا يقوى على الصـخر[١٥٩]

وبأنه أسرف فى ظلم العباد واعانة قطاع الطريق فهو بهذا قد خان الخليفة فى رعيتـه :

أســرفت فى ظـــلم العبـــاد أمـــا
للبعـــث فى نـــاديـــك مـــن ذكـــر
وأعنـــت قطـــاع الطـريـــق عـــلى
فقـــر التجـــار وخيبـــة السـفر
نصـــف البضـــاعة حـــين تظفـــرها
مـــكس لقـــد بالغـــت فى النـــكر
خنـــت الخليفـــة فى رعيتـــه
وعصيتـــه فى الســـر والجهـــر[١٦٠]

(١٥٨ ، ١٥٩) السديد : الموفق فى اموره ، النوتى : الملاح فى البحر، النقد : اكلان فى القرن وتقشر فى الحافر .
(١٦٠) ص ٢٢٧ ـــ السفر: الجماعة المسافرون، المكوس : الضرائب .

وعندما قيل له ان ابن الدبيثى شاعر مجيد ومن أهل العلم والأدب قـــــال :

قالـــوا : الدبيثـــى ذو قـــوافٍ
محـــكمة النظـــم مســـتقيمة
فقلــت : بعـــدا لـــكم وســـحقا
فـــكل أفهامـــكم ســـقيمة
شـــعر الدبيثـــى لـــو عقـــلتم
أبـــرد مـــن أمـــه الائيمـــة
هـــو الـــذى تعلمـــون كاـــب
فهـــل لنبـــح الـــكلاب قيمـــة[١٦١]

وامعانا منه فى هجائه والسخرية به صور المخازى وكأنها أصبحت بنات لهذا الرجل وهو لها أبا ، وعندما يموت تصرخ المخـــازى وتولول بالشقاء واليتم والضياع ، وكل ذلك فى صورة طريفة فريدة أضفت على القصيدة نوعا من الحيوية والحركة :

متـــى يمـــت تصـــرخ المخـــازى
يـــا أبتـــا واشـــقا اليتيمـــة
بعـــدك حلـــت بنـــا أمـــور
مقعـــدة الغـــوا مقيمـــة
راحـــت جيـــوش الضـــلال فوضـــى
قـــد هزمـــت أســـوأ الهزيمـــة
وأدرك الحـــق بعـــد ذلـــك
منـــا بآثـــاره المنيمـــة[١٦٢]

---

(١٦١) ص ٥٠٥ .

(١٦٢) ص ٥٠٦ .

أما بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل فلم يهجه الا ببيتين وذلك بعد أن ساءت العلاقات بينهما بفعل الوشاة فقال فيه معيرا له بأصله الأرمنى :

تسلطن بالحدباء عبد بلؤمه
بصير بلا عن نيل مكرمة عم

اذا أيقظته لفظة عربية
الى المجد قالت أرمنيته نم(١٦٣)

على أن أكثر هجاءه كان فى أهل الفساد والغدر فى بلده أولئك الذين عملوا بوشاياتهم على ضعضعة أركان الدولة العيونية ، وأوغروا صدور الأمراء على بعضهم البعض ، فوقف ابن مقرب منهم موقفا اتسم بالحقد والمرارة لما يراه من شأنهم ومن أعمالهم ، فأكثر من وصفهم بالذل والمهانة والرضا بهوان العيش ، وأن فيهم جلد الجمل على تقبل هذا الهوان فقال :

جلد الجمال على الهوان وفيهم
ضعف الدبا وتلون الحرباء

واذا ابتذوا بحثوا البذا فكأنهم
دجج تباحث عذره بفضاء

عمى عن الاحسان الا أنهم
أهدى الى لؤم من الزرقاء

صم عن الحسنى ولكن طالما
سمعوا كلام الحكل فى العوراء(١٦٤)

---

(١٦٣) ص ٥٠٥ — الحدباء : الموصل ، تسلطن : أصبح سلطانا .

(١٦٤) ص ١٤ ، الدبا : الجراد ، البذا : الفحش ، الدجج : جمع الدجاج ، كلام الحكل : الغير مفهوم .

ويصرخ فيهم وينديهم لترك ما هم فيه من أعمال ونذالة ، ولكن هيهات فلو كانوا أحياء لأجابوا ، وانما هم أموات ، ولا يرى منهم سوى أشباح متحركة تمشى مع الناس :

تا اللــه أقســم لــو دعــوت بندبتــى
حيــا للبــى دعـــوتى ونـــدائى

لـــكننى ناديــت مـــوتى لــم تــزل
أشـــباحهم تمشى مــع الأحيـــاء

ألفــوا الهــوان فلــو تنـــاءى عنهــم
لســعوا لبغيتــه الــى صــنعاء(١٦٥)

وفى أبيات أخرى وصفهم وصفا دقيقا مزريا ، فشبههم بالخطاطيف التى تحمل الأباطيل بينما فى الأمور العظيمة كأنهم خشب مسندة لا يلبون النداء ولا يسمعون :

وغــظ باصــطناعى معشــرا أن دعوتهم
لنــائبة آبــوا ، وان أمنــوا نبـــوا

خطاطيــف فى حمــل الأباطيــل بــل هم
أخف ، وفى الجلى كأنهم الخشــب(١٦٦)

ويحث نفسه ويدعوها الى مفارقة أرض يدبرها هؤلاء الأوباش الأنـــذال :

وأهجــر دارا لــو يحــل ابن قاهــث
بهــا راح مسحوتا من المــال مجحــدا

---

(١٦٥) ص ١٦ ، صنعاء بلدة باليمن .

(١٦٦) ص ٣٣ — آب : رجع ، نب : صاح عند الهياج ، الجلى : الأمــر العظيم .

يدبرها أوباش قوم تنكبوا
عن الرشد حتى خات ذا الغى أرشدا

اذا رضى الأعداء منهم مهانة
بأخذ الجزى عدوه نصرا مؤيدا

أقاموا الأغانى بالمغانى وضيعوا
كرام المساعى والثناء المخلدا(١٦٧)

وحفل هجاؤه فيهم بصور كثيرة أخرى من التشبيهات والمفارقات التى تصور ما وصل اليه هؤلاء من مهانة وضعة كالذى رأيناه ؛ وسنورد شيئا من هذه التشبيهات والصور الشعرية فى الفصل القادم ان شاء الله عندما نتحدث عن الخصائص الفنية لشعر ابن مقرب .

* * *

الشوق والحنين :

كان من نتيجة مجافاة ابن مقرب لقومه بسبب اضطهادهم له وحرمانه من حقوقه أن قضى شاعرنا حياته فى سلسلة من الرحلات والتنقلات التى لا تنقطع الا لتبدأ من جديد ، وكان من نتيجة ذلك أيضا أنه اكتوى أشد ما يكون بألم الفراق ومضاضة البعد عن وطنه البحرين، وعن مرابع الصبا ومواطن الذكريات ؛ ونتيجة لذلك كان حتما أن يصدر عنه شعرا فى الشوق وللحنين لهذه الربوع والديار ، أو لهذه الذكريات والأيام الخوالى الماضية المليئة بالمتعة والأنس ، وهذا اللون من الشعر لن نجده طبعا الا فى القصائد التى نظمها وهو فى الغربة بعيدا عن ربوع الاحساء .

---

(١٦٧) ص ١٥٦ — ابن قاهث : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وهو من يضرب به المثل فى كثرة المال . مسحوتا من المال مجحدا : أى أصبح لا مال له ، الأوباش : السفلة ، تنكب عن الرشد : عدل عنه ، الجزى : جمع جزية .

وشعر الحنين عنده يأخذ عدة اتجاهات مختلفة ، فقد يكون حنينا الى الوطن، وقد يكون حنينا الى المحبوبة أو تذكرا لأيامه السعيدة معها فى ربوع الوطن ، وقد يكون حنينا لأيام الصبا والشباب وذكريات ذلك العهد الطرى وأماكن اللهو السعيدة .

١ ــ الحنين الى الأهل والديـار :

فمن ذلك قوله فى شعر ينضح باللوعة والألم للبعد عن الوطن والأهل :

فيا راكبا تطوى به البيد جسرة
وتغتال غيطان الفلا والأخاشيا

اذا أنت ألقيت العصى مخيما
بالاحسا ، وجاورت الملوك الأطايبا

فيمم لجرعاء الشمال فان لى
بها خلة أشتاقها وملاعبا

وقف وقفة بالدرب غربى بابها
فثم تلاقى أسرتى والأقاربا

فتلقى ملوكا كالأهلة لم تزل
تهش الى الحلى وتأبى المعايبا

وان تأت قصر القرمطى تجد به
جماجم قومى والقروم المصاعبا

ذوى الملك والتيجان والمنصب
الذى سما فعلا فخرا فجاز الكواكبا

فقل لهم بعد السلام مقالة
تعم بها عنى شبابا وشائبا

ألا يـا لقـومى والفتـى حين يرتمـى
به الدهر يدعـو قومـه لا الأجانبـا

كفـى حـزنا أنـى ببغـداد مفـرد
عن الأهـل ألقـى كـل يـوم عجائبـا

ويشـتاقكم قلبـى فأذكـر دونـكم
مهـامه لا أشـتاقها وسـباسـبا

فيسـهل عندى خوضـها فيعـز لـى
تذكر حـالات أشـبن الذوائبا(١٦٨)

ونلاحظ على هذا الشعر الذى ترجم به الشاعر أحاسيسه ومشاعره. أنه امتزج بالافتخار بقومه الملوك ، فكأنه بذلك أضاف الى دافع شوقه اليهم دافعا آخر كما نستشف من ذلك ، كما نلاحظ حرصه على تعميم السلام عليهم جميعا فى قوله (نعم بها عنى شبابا وشائبا) وما يقطر به قوله : (كفى حزنا ..) من لوعة وأسى شديدين .

وله مقطوعة فى الحنين والتشوق الى أهله يقول فيها :

كتـاب مشـوق مـا تغنـت حمـامـة
من الـورق الا حـن شـوقا اليـكم

مقيـم بأرض المجـزرى وقلبـه
رهـين بجرعـاء الشـمال لديـكم

يحـن اذا هبـت شـمال لأنهـا
تـؤدى اليـكم أو تمـر عليـكم(١٦٩)

---

(١٦٨) ص ٣٨ — الجسرة : العظيم من الابل ، غيطان الفلا : المطمئن الواسع من أرضها ، الاخاشب : اسم جبال ، القرم : السيد .

(١٦٩) ص ٤٦٥ — المجزرى : لعله نسبه الى الجزيرة وهى أرض بالبصرة ؛ الجرعاء : موضع بالاحساء .

فصوت الحمام على الأشجار شوقه اليهم ، ورغم بعـده ونأيه عنهم ، الا أن قلبه معلق لديهم ويزيده حنينا هبوب ريح الشمال ، لأنها تذهب اليهن ، أو تمر بديارهم ، وهكذا صور ابن مقرب حنينه الى أهله بعبارات تفيض باللوعة والألم الممض الذى لا يسع من يقرأه الا التأثر به ، ومشاركة صاحبه فيه .

ويتشوق الى الحسا والثليم من أرض البحرين فيقول :

يـا حبـذا بـلاد الحسـاء فانـه
لـو سـاءنى — بـلاد الـى محبـب
بـل حبـذا درب (الثـليم) وحبـذا
ذاك القطـين بـه وذاك الملعـب(١٧٠)

وفى أبيات أخرى يذكر شوقه وحنينه الى بلاده وجمالها وجمال حدائقها الورافة التى لو مر بها الشاعر ذو الرمة لأنسته حدائق نجد التى وصفها فى شعره :

ولا بـأس لـو عنيتمـانى فقاتمـا
رعـى الـله بالجرعـاء حيـا ومألفـا
بخفـق المثـانى فى ظـلال حـدائق
تظـل عـلى أغصـانها الطـير عـكفا
دجيليـة لـو حـط غيـلان رحـله
بهـا ساعة أنسـته حزوى ومشرفا(١٧١)

---

(١٧٠) ص ٨٥ — القطين : القاطن أو أهل الدار .

(١٧١) ص ٢٨٤ — المألف : المكان المألوف ، المثانى من أوتار العود : ما بعد الأول ، عكفا : عاكفه ، دجيلية : نسبة الى دجيل اسم نهر ، وغيلان هو ذو الرمة الشاعر المعروف ، حزوى :موضع بنجد ، ومشرف رمل بالدهناء .

٢ ـ تذكر الأحبة والخلان :

من ذلك أنه رأى البرق يوما يلمح فى السماء ، فذكره بثغر الحبيبة اذا ابتسمت :

خليلى هبا من كرى النوم وانظرا
مخائل هذا البرق من حيث يلمح
لقد كدت مما كاد أن يستفزنى
أبوح بسرى فى الهوى وأصرح
ذكرت به ثغر الحبيب وحسنه
اذا ما تجلى ضاحكا وهو يمرح
ويا حبذا ذاك الجبين الذى غدا
يلوح عليه الزعفران المذرح
فكم ليلة قد كاد يخطف ناظرى
ونحن بميدان الدعابة نمرح(١٧٢)

وكان مرة يعبر نهر دجله ، وعن كثب ترامى الى سمعه هديل حمامة فأهاج صوتها فى فؤاده لواعج الشوق والفراق ، وأجرى على لسانه أغانى اللوعة والحنين الى أحبته :

صبا شوقا فحن الى الديار
ونازعه الهوى ثوب الوقار
وهاج له الغرام غناء ورق
هواتف فى غصون من نضار
صدحن غدية فتركن قلبى
وكان الطود كالشىء الضمار(١٧٣)

---

(١٧٢) ص ١٣١ ـ ذرح الزعفران فى الماء : جعل فيه منه شيئا يسيرا .

(١٧٣) ص ٢١٤ ـ الورقاء : الحمامة ، النضار : الاثل ، الغدية : تصغير الغداة ، والصود : الجبل ، والضمار : الشىء لا يرجو رجوعه .

ويخاطب الحمام بقوله :

رويــــدا يــا حمـــام بمســتهام
مشـــوق منــه طــول الســفار
بــراه الشــوق بــرى القــدح جــدا
فغـــادره بقلـــب مســــتطار
فوا عجبــا لــكن تنحــن خــوف الفــ
ــراق ومــا بــدت خيــل المعار
ولــم تصــدع لــكن عصــا ببــين
ولــم تعبــث لــكن نــوى بغــار(١٧٤)

فيعجب من نوح الحمام لخوفها من الفراق مع أنها لم تعرف هذا الفراق ولم تجربه كما جربه هو ولم تصدعها عصا البين أو تعبث بهـا النوى كما قاساها وكابدها ، ثم يخاطبهن بقوله كيف بكن لو كابدتن ما أكابده ، وقاسيتن هذه الشجون التى تعلقت بى ونار الشوق ولفحها:

فــكيف بــكن لــو نيطــت شــجونى
بــكن ونــار وجــدى وادكارى(١٧٥)

وكان مسافرا مرة فرأى فى الطريق شجرة وارفة الظلال ، فدعا صاحبيه للجلوس تحتها ، والتفيؤ بظلالها ، لعل المقيل والاضطجاع يعيد الى قلبه المشتاق بعض الذكريات الجميلة :

لعــل مقيــلا تحتهــا واضــطجاعة
تــرد عــلى عــين المشــوق كــراهــا

---

(١٧٤) المرجع السابق — من السير فلانا : اضعفه ، القدح : السهم قبل ان يراش ، المعار : الفرس الذى يحيد عن الطريق براكبه ، صدع العصا : كناية عن التفرق ، البين : الفراق ، النوى : البعد .

(١٧٥) الشجون : الأحزان : الادكار : التذكر .

وبيتا وظلا بالديار وذكرا
ليالينا بالقصر واذكراها

فكم ليلة بتنا بها لو يباعها
أريب بشطرى عمره لشراها[١٧٦]

٣ — اشتاق الشاعر الى أيام صباه وذكريات شبابه فقال شعرا غلة بذلك يستعيد — ولو فى خياله فقط — أيام لهوه ومرجه ، ويعوض بهذا الشعر ما يعانيه فى حاضره المر من شقاء وعناء ، ومن خلال هذا الشعر أمكننا الوقوف على الأماكن التى شهدت نشأته وشبابه مثل (حجر) و (اجله) وغير ذلك يقول ابن مقرب :

لله أيام الصبا اذ درانا
حجر القرى ولنا بأجلة معهد
اد لمتى تحكى الغداف وانما
أشهى الشعوز الى العيون الأسود
والخد من ماء الشباب كأنما
فيه لأحداق الكواعب مورد
كم ليلة طالت فقصر طولها
شدو المزاهر والغزال الأغيد
وترنم الأوتار فى يد قينة
غنج يدين لها الغريض ومعبد[١٧٧]

فأيام شبابه كما نرى حافلة بالأنس والطرب فحق له أن يبكيها ويتحسر لفوتها :

رعى الله أيام الشباب فانها
هى العمر يا طول الأسى باستلابه

---

(١٧٦) ص ٦٤٤ .
(١٧٧) ص ١٦٠ .

وجـاد ديـار الحـى من أيمـن الحسا
مرب يـوارى الهضـب دانى ربابه[١٧٨]

ويدعو لهذه الليالى بالسقيا ، فقد تولت كالحـلم ، وتحسر على نضرتها ومرحها ، وعدم دوامها ، فقد كان آنذاك شابا فتيا قويا لا تعيره الحسان بالشيب والكبر :

سـقيا لليـالى اللهـو لقـد
كانـت وتولـت كالحـلم

يـا خضـرتها يـا نضـرتها
يـا حسـرتها اذ لـم تـدم

اذ ليـس البيـض تؤنبنـى
بمشـيب لاح ولا عـدم[١٧٩]

وهكذا نرى أن شعر ابن مقرب يموج بالشوق والحنين الى ما فاته وما خلفه وراءه ، سواء كان وطنه وأهله ، أو كان ذكرياته مع الأحبة فى أيام الشباب والصبا ، وكما رأينا أيضا فقد امتزج هذا الشعر بلواعج الحسرة واللوعة ومشاعر الحزن الممض ، ولعل مما زاده لوعة على لوعة أن الظالم الذى وقـع عليه كان من ذويه وقرابتـه وليس من الغريب البعيد ، فلا حرج عليه اذا أن يحاول بهذا اللون من الشعر أن يخفف عن نفسه بعض آلامها ، ويروح عنها شيئا من مصابها ومتاعبها .

الوصـف :

الشعر الا أقله راجـع الى باب الوصف[١٨٠] ، وقد قصـد اليه الشعراء فاجادته دليل على عمق الشاعر ، وبعد الخيال وخصوبة الفكر ،

---

(١٧٨) ص ١٠١ ، الرباب : السحاب الأبيض .
(١٧٩) ص ٥٨١ .
(١٨٠) ابن رشيق — العمدة — ج ٢ ص ٢٩٤ .

ولكن هذا الغرض لم يكن له نصيب كبير فى الشـــعر العربى ، بل ورد عرضا فى ثنايا القصائد ، وشأن شاعرنا ابن مقرب فى ذلك شأن باقى الشعراء ، ولهذا فمن العسير أن نظفر بوصف متكامل لشىء فى شعره ، فكل ما هنالك أبيات قليلة وردت ضمن قصائد معدودة من شعره ، ولم يكن هذا الوصف القليل قد قصد اليه الشاعر ، بل جاء كما قلنا عرضـــا ضمن الموضوعات الأخرى التى تزخر بها القصيدة ، ومن الناحية الفنية فان هذا الوصف فى عمومته تنقصه جودة الحبك واحكام التصوير •

والوصف عند ابن مقرب يأخذ اتجاهين :

الأول : التفت فيه الشاعر الى البيئة البدوية فوصف منها ما شاهده أثناء رحلاته ، فوصف الصحراء وطبيعتها ، ووصف الابل ، ووصـــف البحر وأمواجه ، والسفينة التى سافر عليها أحيانا وشبهها بالناقة •

الثانى : الوصف الحضرى ، وهذا قليل فى شعره ، ومنه وصف مجلس الحضر والطرب فى افتتاحية بعض قصائده ، كما أنه وصف بعض المشاهد الحربية وصور فيها شجاعة الممدوح وبسالته واقدامه ، ووصفه للمعارك الحربية ينبئنا عن انسان قـــد جربها ، وخاض غمارها بنفسه وشاهد أهوالها •

فمن النوع الأول قوله يصف البحر والصـــحراء وغالبا ما يقرب بينهما :

فـــكم خضت رجو اليوم من لج مزيـــد
يظن اصـــطفاق المـــوج فيـــه مشـــاهلا

وكـــم جبـــت من مـــوماة أرض ترى بها
مع الآل حـــق العـــين والأذن باطـــــلا

تخـــال بهـــا الحـــرباء فى رأس جـــذلة
شـــبيحا من البـــدوان للعـــرض ماثـــلا

وتحسب فيها الثعليان مجدلا
من الخيل اذ تعلو كثيبا مقابلا

وان عرضت فيها الرئال حسبتها
بخاتى تحسلن الروايا قوافلا[١٨١]

فأمواج البحر عند إصطفاقها وعلو زبدها الأبيض كأنها مشاعل ملتهبة ، والصحراء مقفرة لا ترى فيها العين ولا تسمع الأذن شيئا غير هذه الدواب والحشرات التى تبرز بين الحين والحين ، ونلاحظ أن أوصاف ابن مقرب لمخلوقات الصحراء لا تتعدى الى الجزئيات ، بل تقف عند التعميم والتشبيه الخارجي .

وغالبا ما يصف الصحراء بالتيه والخواء وبأنها تتعب سالكها ، والبحر بأنه مزبد الأمواج :

كم جبت دونك من تيهاء خاوية
يشكو الكلال بها النجاءة التعب

ومزبد يتراءى الموت راكبه
سلامة المتخطية له عجب[١٨٢]

ويحكى لنا عما يصيبه من الرعب فى وحشته بالصحراء المقفرة ، وما يتراءى له أحيانا من الجن وما تبثه من أضواء وما يسمعه من انتحاب وبكاء :

---

(١٨١) ص ٣٩٦ — رجوى اليوم : رجاء له وطلبا ، الموماة : المفازة المهلكة ، الآل : السراب ، الحرباء : دويبه تتلون بما حولها ، الجذل : أصل الشجرة ، الثعلبان : الذكر من الثعالب ، المجدل من الخيل : القوى ، الكثيب : المجتمع من الرمل .

(١٨٢) ص ٩٨ — المزبد : البحر كثير الزبد من شدة الموج ، والكلال : التعب ، النجاءة : الاسراع فى النجاة .

فكم لذا اليوم من دوية قذف
قطعت والقلب فى أهوالها يجب
تبدو بها الجن لى حينا وآونة
تبث أضواءها حولى وتنتحب(١٨٣)

أما وصفه للناقة فتتبدى فيه الروح البدوية لفظا ومعنى :

وقد قربوا للبين كل همرجل
أمون القرى ضخم العثانين تامك
قمطر درفس قيسرى كأنما
مناكبه جالن وشى الدرانك
رعى واجفا فالصلب من أجبل الغضا
بحيث استهلت كل وطفاء رامك(١٨٤)

فالناقة قوية متكاملة الخلقة والأعضاء ، وهذا يعنى أنها سريعة الجرى خفيفة ، ومن جمال فروتها كأن عليها ثياب موشاة وليس فروا ، وما ذلك الا لأنها ترعى مراعى خصيبة لا ينفك المطر يهطل عليها .

ويصف ناقته بأنها تنحدر من سلالة قوية لذلك فهى سريعة لا تقف ولا تتمهل :

وحرة من بنات العيد ناجية
لا تعرف السير غير الشد والخبب

(١٨٣) ص ٩٣ — الدوية : البرية ، فلاة قذف : تتقاذف بمن سلكها ، يجب : يضطرب .

(١٨٤) ص ٣٠٦ ، الهمرجل : الجواد والناقة السريعة ، ناقة أمون : وثيقة الخلق ، القرى : الظهر ، العثنون : شعيرات تحت حنك البعير ، التامك : الناقة العظيمة السنام ، القمطر والدرفس والقيسرى : أوصاف للجمل العظيم ، والدرنوك : نوع من الثياب ، واجفا والصلب : أماكن استهل المطر : اشتد انصبابه ، الوطفاء : السحابة الممطرة ، الرامك : المقيمة .

تخالهــا بعــد خمس الركــب رائحـــة
دويـــة فقـــدت رألا بـــذى نجـــب(١٨٥)

وشبهها فى البيت الأخير بالنعامة التى فقدت ابنها فهى تعدو هنا وهناك بحثا عنه ، وهذا أدل على نشاطها وكثرة حركتها .

وفى معرض وصفه الناقة قد يصف سفينة البحر ويشبهها بسفينة الصحراء ، وينسب صفات هذه لتلك :

ليبعــدنى عنهــم شـــد ناجيـــة
وجنـــاء غفــل مــن التوقيــع والوقــع
أو ذات قلــع من العينـــاء مـــا عرفــت
فى زجــرها بخــل يومـــا ولا هـــدع
ولا رغت عنـــد حمــل الثقــل من ضجر
ولا الى هبـــع حنــت ولا ربـــع
تجرى مع الريح ان هــونا وان مرحـــا
فنعم مطلعـــة من هـــول مطـــلع(١٨٦)

فبعد أن وصف ناقته بقوة السير ونفى عنها التمهل انتقــل الى وصف السفينة وشبهها بالناقة ، فهى لا تحتاج فى ســيرها لمن يزجرها كسفينة الصحراء ، وهى قوية شديدة التحمل ، لا ترغى ولا تضجر ، للاثقال المحمولة عليها ، بل انها تسير هادئة أحيانا وحثيثة أحيانا أخرى كى تصل الى هدفها المقصود ، ونلاحظ من هذا المثل ارتباط ذهن الشاعر

---

(١٨٥) ص ٧٦ — من بنات العيد : من نسل قوى ، الناجية : السريعة ، والشد : العدو والخبب : نوع من العدو ، الخمس : توقيت لرى الابل ، والروية : النعامة والرأل : ابنها ، وذى نجب : مرضع .

(١٨٦) ص ٢٧٦ ، الناجية والوجناء : الناقة الشديدة ، التوقيع : نوع من السير ، القلع : شراع السفينة ، الهدع : كلمة يسكن بها صــغار الابل ، الهبع : الفصيل ، والربع أيضا ، المطلع : القوى .

بالبادية ومخلوقاتها حتى فى تشبهاته وأوصافه للأشياء الأخرى ونجد فى مثل آخر مقارنة بين السفينة والناقة أيضا ونلاحظ فى كلا المثلين ما قلناه سابقا عن وصف الشاعر وأنه يبتعد عن الوصف الجزئى ، ويكتفى بالوصف الخارجى العام ، وذكر حسنات الموصوف من قوة وسرعة فيقول هنا :

بكل مطلى الملاطين لم
يجرب ولم يرع بمرعى السوام
تسوقه الريح وتحتثه
الجل وفى الوجعاء منه الزمام
لا يعرف الاعياء فى سيره
ولا يبالى أمضى أم أقام
وقد تساوى عنده فى المدى
يوم وأسبوع وشهر وعام
اذا يمس الأرض فى جريه
خيف على راكبه الاصطلام(١٨٧)

وقد يكون وصفه للسفينة بأنها (مطلية الملاطين) أى الجانبين ، الوصف الجزئى الوحيد فى هذه الأبيات ، بالاضافة الى قوله فى البيت الثانى أن زمام السفينة فى مؤخرتها (وفى الوجعاء منه الزمام) ، على أنه يعود بعد ذلك وينسب للسفينة صفات الناقة ، وما يصيب الأخيرة من جرب وأمراض جلدية ، ويقول انها لا تحتاج الى الكلأ أو الرعى كالناقة ، ولا تعرف الاعياء ، ولا تبالى بالرسو أو الانتقال ، ويتساوى عندها فى البعد الأزمان الطويلة والقصيرة ، لكن اذا مست الأرض فى

---

(١٨٧) ص ٥٧٣ ، الملاط : ما يملط به الحائط او الجنب ، يجرب : يصيبه الجرب ، الجل : الشراع ، الوجعاء : يعنى بها هنا مؤخر السفينة ، الاصطلام : الاستئصال .

أحد جوانبها ، فهناك مكمن الخطر عليها وعلى راكبها ، وكل هذه الأوصاف كما نرى أوصافا عامة ، ولكنها تؤكد قوة ارتباط نفسية الشاعر وذهنه بالصحراء ومخلوقاتها .

ويعود الى وصف الناقة بالسرعة ، ويشبهها بسرعة النعامة فيقول:

أو كـــل روعـــاء عزيزيـــــة
تـــزف بالرحـــل زفيـــف النعـــام(١٨٨)

ومن وصفه للفرس وهو قليل قوله :

يصـــحبها أجـــرد عـــرض النســـا
قصـــير الأرســـاغ طـــويل الحزام(١٨٩)

فوصفه بالشدة والصلابة وقوة التحمل :

ومن وصفه الذى أبدع فيه وأحسن قوله يصـــف المطر وشـــدة غزارته :

ملـــث ، يظـــل الجـــأب فى عنفـــوانه
على النشـــز وهـــو السحسح المتمايـــح
كمسترعف ، أحـــذى ودنـــح بعـــــدما
غـــدا طلقـــا واســـتبدهته المطـــاوح

---

(١٨٨) ص ٥٧٤ ــ الروعاء : الناقة الحديدة الفؤاء ، بنـــو عزيز : قبيلة من العرب تنسب اليهم كرام الابل ، زفيف النعام : اسراعه فى عدوه.

(١٨٩) ص ٥٧٤ ــ عرض النسا : قوية صلبة ، والنسا : عرق من الورك الى الكعب ، الرسغ : الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوضيف من الرجـــل .

وتمســـى الرعـــان القـــود فيـــه كأنهـــا
بعاليـــــل فى آذى بحـــر طوافـــح[(١٩٠)]

فهذه الصورة مع جمالهـــا نلاحظ أنها منتزعة من البيئة انتزاعا ، سواء فى ذلك من ناحية اغراق خيال الشاعر ، أو الألفاظ الغريبة التى استخدمها للدلالة والتعبير عن هـــذا الخيال ، فهو فى البيتين الأولين يقول : ان شدة المطر وغزارته ألجأت الحيوان العنيف الذى يرى غاديا رائحا فى هياجه ، ألجأته شدة المطر الى مرتفع أرضى كى ينجو من غزارة المطر ، فوقف منكمشا على نفسه مستسلما متخاذلا كأنه رأى المهالك وقد أحاطت به ، بعد أن كان يجرى هنا وهناك فى شدة وسرعة ، ومع أن هذا التشبيه ليس بكبير معنى الا أننا نحس بالجهد الذى بذله الشاعر لكى ينتزعه من خياله ، مما جعله تشبيها أقـــرب الى النحت منه الى التصوير ، وكأنما كثرة الماء وغزارته ذكرته بمنظر البحر وأمواجه فصور لنا فى البيت الثالث رؤوس الجبال بارزة من خلال الماء الغزير ، وكأنها رؤوس أمواج هائجه ارتفعت فى بحر طام ، ومع أنها مبالغة فى وصف غزارة المطر الا أننا نستدل من هذه الصورة والتى قبلها على بعد خيال الشاعر وبراعته فى الوصف والتصوير .

ووصف الشاعر بعض الوقائع الحربية فمن ذلك قوله يصف معركة شارك فيها أحد أبناء عمه وهو الأمير الفضل بن محمد العيونى :

ســـل القـــوم عنـــه يوم جاءت وأقبلت
تخـــب المذاكـــى تحتهـــا وتتـــاقل

---

(١٩٠) الملث : الدائم ، الجأب : الحمار الغليظ ، النشر : المرتفع ، السحسح : المطر الشديد ، المتمايح : المتمايل والمسترعف : المتقدم ، احذى التراب : حثاه ، استبدهته : فاجأته ، المطاوح : المهالك ، الرعن : انفه يتقدم الجبل ، البعلول : حباب الماء ، آذى البحر : موجه .

أغـــارت على درب الحنــــائد غـــــارة
يطـــير الحصــا من وقعهـــا والجـــراول

لهـــا فيلـــق بالجـــو ذى النخـــل كامـــن
وريعانهـــا للمســـجد الفـــرد شـــامل

وطاردت الفتيـــــان فيهـــا وأظهـــرت
كناهـــا وكـــل عـــارف مـــن يجـــــادل

فولت حمـــاة القـــوم خيـــلا ولـــم تزل
بنـــو الحرب فى يـــوم التلاقى تحـــاول

فراحـــت عليهـــا الخيـــل فانبعثت لهـــا
جحافــــل جمـــــع تقتفيهـــــا جحافــــل

فحاصت حـــذار القتـــل والأســـر خيـــله
وســـمر القنـــا فيهـــن صـــاد وناهـــل

فأوردهـــم صـــدر الحصـــان كأنمـــا
لـــه المـــوت جنـــد بالمعـــادين كافـــل

وعاجـــل طعنـــا سيد القـــوم فافتـــدوا
وقـــد عـــاف كل منهم ما يحـــاول(١٩١)

ونلاحظ على وصف المعركة التسلسل والاتساق من البـــداية الى النهاية فالخيل مقبلة فى شدة ، وسرعة ومن شدة وقعهـــا على الأرض تتطاير الحجارة والحصى ، وغبارها يملأ الجو ويشمل المكان ، والفرسان

---

(١٩١) ص ٣٤٥ خب الفرس فى عدوه : راوح بين يديه ورجليه ، وناقل الفرس : أسرع فى نقل القوائم ، الجراول : الحجارة ، الجنادل : الصخور العظيمة ، الجـــو ذو النخل : موضع ، ريعـــان الشيء : أوله ، والمسجد : مسجد الجعلانية، وهو مسجد الأميرة بنت الأمير عبد الله بن على، الكنية : ما صدر بأب أو أم ، حاصت : عدلت وتراجعت .

فوقها كل يصاول عدوه ويعرف نفسه للذى يبارزه ، وهذا من عادات العرب فى المبارزة ، وعندما تتبع العدو خيل القوم ، برز لهم الأمير فى خيله ، وحاذر منهم أن يصيبوا منه مقتلا ، ثم أعمل فيهم السيف قتلا وتجريحا ، وأوردهم صدر حصانه مما يدل على شجاعته واقـــدامه ، وعندما حانت له الفرصة عاجل سيدهم بطعنة مردية ، جعلت من وراءه يركنون الى الفرار ، ويعافون القتال •

عبر الشاعر عن كل هذا بكلمات ضخمة تناسب منظر القتال وما يجرى من شدة وأهوال كقوله : (أغارت ، فيلق ، جحافل) ، واستخدم الشاعر فاء التعقيب بكثرة فى أبيات متقاربة ، وذلك للدلالة على كثرة الكر والفر والمصاولة والمجاولة مثل (فراحت ، فحاصت ، فأوردهم) •

ومن أوصافه الحضرية ، وصفه للخمر ، وما تحدثه من آثار فى شاربها وذلك فى قوله :

قـــم فاســـقنيها قبـــل صـــوت الحمـــام
كرميـــــة تجمـــع شـــمل الـــــكرام

صـــهباء ممـــــا عتقـــت بابــــــل
مزاجهـــا الأرى ومـــــاء الغمـــــام

ممــــا أديـــر الـــكأس منهــــا علـى
كســـرى ونمـــرود بن كـــوش بن حـــام

لـــو احتســـاها ابن الزبـــــير اغتـــدى
أكـــرم مـــن كعــــــب وأوس بـــن لام

تذهــــب باليـــأس وتـــدنى المنـــــى
وتنشـــر اللهـــو وتطـــــوى الغـــــرام

أو ذاقهـــا المنـــزوف ضـــرطا لمـــا
هـــاب ابن ذى الجدين يوم الزحام(١٩٢)

فالشاعر يصف الخمر بأنها كرمية أى مأخوذة من الكرم وهو العنب، وأنها معتقة جيء بها من بابل ، وطعمها مزيج من العسل والماء العذب ثم ينتقل الى وصف آثارها ، فيقول لو أن عبد الله بن الزبـير شربها لترك البخل الذى اشتهر به ، ولصار أجـود من كعب وأوس بن لام المعروفين بالكرم ، ولو شربها الرجل الذى مات ضرطا من شدة الخوف لصار شجاعا لا يهاب قتال أحد ولو كان ابن ذى الجدين الشـجاع ، وكل ذلك من تأثير الخمر وما تحدثه من آثار .

وكما لاحظنا فان وصف ابن مقـرب لأثر الخمر أكثر من وصـفه للخمر فى حد ذاتها ، وهذا ما يخرج به عن التخصيص الى التعميم ، وهذه الملاحظة الأخيرة تبقى ظاهره عامة فى أوصافه كما قلنا سابقا ، مما يجعل معظم وصفه يفتقد الوضوح وتحديد الصورة والالمام بجزئياتها، ولعل مرجع ذلك أن الشاعر لم يتفرغ لهذا الغرض بشكل يتيح له الاجادة والاكثار فيه نظرا لما اكتنف حياته من ظروف معاكسة جعلت هذا الغرض يأتى عارضا ضمن الأغراض الأخرى فى شعره ، ولعل الشاعر بعـدم التقصى والتفصيل فى وصفه يستلهم فى ذلك الروح العربى البيانى الذى يقول عنه الدكتور زكى المحاسنى: «انه انطوى منذ كان على الاختصار فى سرد الصور والزهد فى التقصى »(١٩٣) .

* * *

(١٩٢) ص ٥٧١ — كرميه : نسبة الى الكرم وهو شـجر العنب ، الأرى : العسل ، ونمرود : هو صاحب القصة مـع ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، ابن الزبير ، هو عبد الله بن الزبير ، وقد شهر بالبخل ويشهد التاريخ إنه كان حريصا على أموال المسلمين غير مفرط فيها .
فى المثل : أجبن من المنزوف ضرطا : وقصته أن رجلين خرجا فى فلاة فلاحت لهما شجرة ، فقال أحدهما : أرى قوما قد رصدونا ، فقال الآخر : انما هى عشرة (بضم العين) فظنه يقول بفتحها فقال : وما غناء اثنين عن عشرة ويضرط حتى مات .

(١٩٣) د. زكى المحاسنى : شعر الحرب فى ادب العرب ص ٢٧ .

الخلاصـــــــة :

نظم ابن مقرب شعرا فى معظم الأغراض الشـــعرية كما رأينا . وعلى الرغم من أن المديح والفخر يشكلان العمود الفقرى لديوانه من ناحية الأغراض الا أنه برع عموما فى معظم أغراضه ، واســتطاع أن يظهر لنا فنونه الشعرية فى قوالب بديعة وتصاوير جميلة خلدت هــذا الشعر ، وأبقته لنا رغم مرور السنين وبعد الشقة بيننا وبينه ، ومن خلال تحليلنا لهذا الشعر استطعنا أن نستظهر أهم صفات ابن مقرب النفسية ، من همة عالية ونفس طموح لا تقف عند حد ، كما وقفنا أيضا على مدى معاناته ومجالدته وتحمله لنوائب الزمن ، رغم مجافاة الأقرباء وابتعاد الأحبة ، ويبقى بعد ذلك أن نقف على أهم خصائص هذا الشعر من حيث اللغة والتراكيب والأخيلة وما الى ذلك ، وهــذا ما سنتحدث عنه فى الفصل القادم ان شاء الله .

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

« خصائص شعره »

أولا : الألفاظ والأســاليب :

عاش ابن مقرب حيــاة قلقة غير مســتقرة ، وكان دائم التنقــل والارتحال بين بلده البحرين وبلاد العراق ، وبين الحواضر والبوادى وتبعا لذلك جاء شعره متنوعا مصورا لهذه الحياة الغير مستقرة أكمــل تصوير ، وبالتالى اختلفت لغة شــعره بين لغة بدوية جافة صــور بها مشاهداته فى البادية ومخلوقاتها وبين لغة حضرية واضحة عبر بها عن مشاهداته فى الحواضر والمدن بلغة سلسة وأسلوب سهل ممتنع مزجه الشاعر ببعض الاقتباسات من القرآن الكريم والتراث الاسلامى ، ولذلك نستطيع القول بأن شعره جمع بين خصائص الأسلوبين : الجاهلى فى بداوته ، والعباس الاسلامى فى تحضره واقتباسه من كتاب الله العزيز .

تناول ابن مقرب كل ذلك بألفاظ قوية جزلة وعبارات متينة محكمة وأسلوب رصين حاكى به أسلوب الجاهلين ، حتى أتى بغريب الألفاظ التى وان كانت مألوفة للبدوى الا أنها غريبة لمن يسكن المدن والحواضر، وهذا لا ينسحب على كل شعره ، اذ أن لشعره جانبا حضريا كما قلنا ، وفى هذا الجانب رقت عبارته وسلس أسلوبه ووضحت ألفاظــه ، فجاء شعره مناسبا متآلفا خاليا من الابتذال والاغراب .

ومن غريب ألفاظه قوله :(١)

أمــن دمنــة بــين اللــوى والدكــادك
شــغفت بتــذراف الدمــوع الســوافك

عفــــت غــــير آرى وأورق حائـــــل
وأشــعث مشــجوج وسفع روامــك

---

(١) الديوان ــ ص ٣٠٥ .

ونــؤى كجذم الحــوض غــير رســمه
وجيف الحصــا بالموجفــات الحواشــك

وقوله حاكيا عن الصحراء :

وكــم جبت من مومــاة أرض ترى بهــا
مــع الآل حــق العــين والأذن باطــلا

تخــال بهــا الحــرباء فى رأس جذلــة
شــبيحــا من البذوان للعــرض ماثــلا

وتحســب فيهــا الثعلبــان مجــدلا
من الخيــل اذ تعــلو كثيبا مقابــلا(٢)

ومن أمثلة النوع الثانى من ألفاظه قوله :

زهــت هجــر من بعــد مــارث حالهــا
وعــاد اليهــا حســنها وجمــالها

وأضحت تبــاهى جنتى أرض مــأرب
ليــالى بنــو مــاء الســماء حلالهــا

فياحســنها حــين اســتقر قــرارها
وزايلهــا مــا كــان فيــه وبالهــا(٣)

وقوله : رويدا بعض نوحــك يا حمــام
أجـــدك لا تنيـــم ولا تنـــام

أكــل الــدهــر تــذكــارا ونــوحــا
أمــا فنــى اشــتياقك والغــرام

---

(٢) الديوان ، طبعة الاحساء — ص ٣٩٧ — انظر شرح الكلمات صفحة ٢٢٧ من هذا البحث .

(٣) المصدر السابق — ص ٣٥٩ .

هتفت فهجت لى شوقا فقل لى
حمام أنت ويحك أم حمام[٤]

وخلت تراكيب ابن مقرب من التكلف والصنعة ، وجاءت طبيعية تجانب المعاضلة والمعاناة والتعسف ، وتخضع للنسق الطبيعى ، فلا تعقيد ولا التواء ولا غموض ولا اضطراب ، اللهم الا فى القليل النادر ، كالتعقيد اللفظى الخفيف فى قوله :

مازال يجتاب البلاد مشمرا
تشمير لاوان ولا متحير[٥]

فوقوع (لا) فى هذا الموضع أدخل العبارة فى حكم التعقيد اللفظى وهو عند البلاغيين ضرب من ضعف التأليف للجمل . وعدا ذلك فقد خضعت له التراكيب وانصاعت له الألفاظ ، حتى انها لتكاد تنظم نفسها بنفسها فى سمط لآلئه ، وتأخذ مكانها بين درره وجواهره .

بناء القصيدة :

نهج ابن مقرب فى معظم قصائده نهج متقدمى الشعراء وسار على منوالهم ، فهو يبدأ القصيدة بغرض خارجى بعيد عن غرضها الأساسى الذى نظمت من أجله ، ثم ينتقل الى غرض آخر وربما الى أكثر ، حتى ينتهى به المطاف الى التخلص فى براعة وحسن من تلك الأغراض الى الغرض الرئيسى فى القصيدة ، هذا فى معظم قصائده على أنه قد لا يمهد لموضوع القصيدة بأى تمهيد ويبدأ بالغرض المنشود رأسا وبدون مقدمات .

---

(٤) نفس المصدر — ص ٥٦٢ ، أجدك : استخلاف بالحقيقة . والحمام : الموت .

(٥) الديوان — طبعة الاحساء — ص ٢٢٣ .

ومثال النوع الأول قوله[٦] :

مـــن ذا أفتـــاك بســـفك دمـى
يـا غــرة حــى بنــى جشـــم

فتعـــالى غـــير مدافعـــة
نقصـــص رؤيـــاك عــلى حــكم

أبنظـــــر عـــين عــن خطـــأ
عرضــت بالعمـــد يــراق دمـــى

وبعد هذه المقدمة الغزلية يتحدث عن أيام اللهو ويصفها بالحسن ثم يتخلص من كل ذلك الى المدح ببراعة فيقول :

ساوت فى الحسن زمان الملك عماد الدين حيا الأمم
مسعود الخيل نقى الذيل سنى النيل لدى القحم

ومن أمثلة دخوله على الغرض المنشود مباشرة قوله فى المدح :

بنانــك من معــذ ودق المــزن أهطـــل
وباعــك من رضــوى وثهــلان أطــول

ودارك دار الأمـــن مــن كــل حــادث
ومنزلــك المعمــور للمجــد منـــزل

اذا عــد أربــاب النبـــاهة والعـــلى
فأنــت على رغــم المعــادين أول[٧]

وعلى ذلك فان القصيدة لديه ليست وحدة قائمة بذاتها ، وانمـا البيت ــ فى الغالب ــ هو الوحدة ، فالبيت يجىء مســتقلا بذاته عما

(٦) المصدر السابق ــ ص ٥٨٠ .
(٧) الديوان ــ طبعة الاحساء ــ ص ٤٢٧ .

قبله وعما بعده ، وهذا هو شأن معظم الشعراء العرب ، كما أن الطابع التقريرى هو الغالب على شعر ابن مقرب ، ولكن تقريريته غير مباشرة .

البـــديـــع :

جاء البديع فى شعر ابن مقرب عرضا ولم يقصد اليه قصدا شأنه شأن متقدمى الشعراء أيضا ، هذا على الرغم من أنه عاش فى أوج عصر الصنعة والاحتفال بالمحسنات البديعية ،يقول صاحب الوساطة: « وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء فى الجود والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ،وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض ، وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ، ويتفق لها فى البيت على غير تعمد وقصد » .

ومن ألوان البديع التى جاءت ضمن شعر ابن مقرب « الجناس »، ومن أمثلته قوله :

نفســى الفــداء لمن غــدا رقــى لـــه
رقــا ولــم أسمح بــه لســـوائه[٨]

فالرق الأولى بمعنى الجلد والثانية بمعنى العبودية .

وقولـــــه :

ذرينــى لا أبالـــك كيــف يرضـــى
بدار الهــون ذو الحســب النضـــار

---

(٨) الديوان — ص ١٩ .

فظل السدر عند الذل أولى
بأهل المجد من ظل السدار[٩]

وكقوله فى الغزل : [١٠]

رويدا بعض نوحك يا حمام
أحدك لا تنيم ولا تنام
أكل الدهر تذكارا ونوحا
أما فنى اشتياقك والغرام
هتفت غهجت اى شوقا فقل لى
حمام أنت ويحك أم حمام

وقد يأتى بأكثر من تجنيس فى البيت الواحد كقوله :

أدن النجيبة للترحال وأرخ لها
زمامها ، واخلط الروحات بالبكر
وخطها الخط ارقالا وأول قلى
أوال — لا نادما — واهجر قرى هجر[١١]

ويأتى (الطباق) فىشعر ابن مقرب كلون آخر من ألوان البديع ، كما فى البيت الأول من البيتين السابقين (الروحات والبكر) وكقوله فى الحماس :

دع الدار بالبحرين تعفو ربوعها
وسقها ولو لم يبق الا نسوعها

(٩) المصدر السابق — ص ٢١٦ ، النضار : الذهب ، والسدر : شجر النبق والسدار : الحذر .

(١٠) نفس المصدر : ص ٥٦٢ ، والحمام : بالكسر ، الموت .

(١١) الديوان — ص ٢٤٢ ، خلط الروحات بالبكر : أى الدوام على السير ، الخط : التطيف ، والارقال : الاسراع ، والقلى : البغض ، وأوال : جزيرة بالبحرين الآن وهجر : قضبتها .

وخل أحاديث المطامع والمنى
ألا انما أشقى الرجال طموعها

ولا تحسدن فيها رجالا بشبعها
فخير لها من ذلك الشبع جوعها(١٢)

وقوله :

أحق ملوك الأرض بالملك من به
ينال الغنى الراجي وتحمى الحقائق

همام اذا ما هم ضاقت برحبها
مغاربها عن عزمه والمشارق(١٣)

وقد يأتى بأكثر من طباق فى البيت الواحد كقوله :

آليت أنفك من حل ومرتحل
أو أن تقول لى الآمال خذ ودع(١٤)

أما (المقابلة) فقد وردت فى شعر ابن مقرب كقوله :

وصاحبت أقواما ألا ليت أنني
تبدلت زنجا منهم وصقالبا

ظننتهم ظلا ظليلا وجنة
فكانوا سموما يوم صيف وحاصبا(١٥)

---

(١٢) المصدر السابق — ص ٢٥٢ ، النسع : سير عريض لشد الرحال .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٢٩٨ ، الحقائق : ما يحق عليك أن تحميه .

(١٤) الديوان — ص ٢٧٣ ، آليت : حلفت .

(١٥) المصدر السابق — ص ٣٦ — الصقالب : جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر ، والحاصب : الريح الشديدة .

وقولـــــه :

يا ســاكنى الخط والأجــزاع من هجــر
هــل انتظــاركم شــيئا ســوى العطب

بححــت مما أناديـــكم وأنــدبــكم
لخــير منقلب عن شــر منقــلب(١٦)

وغولـــــه :

تبـــا لدنيـــا كلمـــا وهبــت ثنــت
فاســترجعت منـــا نفيس هباتهـــا(١٧)

وقولـــــه :

فمـــا من تنــأى بــه الــدار غائــب
ولا كل من تدنـــو به الدار حاضــر(١٨)

وقد كان لثقافة ابن مقرب الاسلامية أثر واضح على شعره تجلى فى اقتباسه من آيات القرآن الكريم كقوله :

ولا تهنوا واستشـــعروا الصــبر جنــة
وعزمـــا فمـــا للحــرب الا اعترامهـــا

فانـــكم ان تألمـــوا فعـــدوكـم
كذاك وللأمــر العظيم عظامهـــا(١٩)

---

(١٦) نفس المصدر — ص ٧٥ ، الأجزاع : جمع الجزع وهو منعطف الوادى ، والعطب : التلف . بححت : البحة خشونة وغلظ فى الصوت .

(١٧) نفس المصدر — ص ١١٠ .

(١٨) نفس المصدر — ص ٢١٣ .

(١٩) الديوان : ص ٤٦٣ ، لاتهنوا : لا تضعفوا ، جنة : وقاية .

وقولـــــــه :

العـــابد المحيـــى قيامـــا ليـــلة
اذا ناشـــئات الليـــل أقـــوم قيـــلا[٢٠]

وقولـــــــه :

نـــكال لجـــان غـــيرهم فاذا جنـــوا
فبـــرد عليهـــم مـــا جنـــوا وسلام[٢١]

وقولـــــــه :

اذا خـــدم الأمـــوال باعـــت حظـــوظها
من الباقيـــات الصالحات شراها[٢٢]

وقولـــــــه :

محيـــى البـــلاد وقد أشـــفت على جرف
هـــار ومانعهـــا بالبيض والأســـل[٢٣]

ثانيا : المعانى والأخيله :

تتسم معانى ابن مقرب عموما بأنها واضحة تميل الى العمق ولكنها لا تدق دقة الفلسفة ، ولا تغمض غموضها ، الا أن أفكاره ليست ضحلة على كل حال بل تتميز بالبساطة والوضوح ، ومعانيه وأفكاره مستمدة

---

(٢٠) المصدر السابق — ص ٤٠٨ .

(٢١) نفس المصدر — ص ٤٧٥ ، والنكال : العذاب والعقاب .

(٢٢) نفس المصدر — ص ٦٤٦ .

(٢٣) نفس المصدر — ص ٣٨٦ ، الجرف الهارى : ما اكله النهر من أسفل ساحله مبذا مغلقا يوشك أن ينهار ، والبيض : السيوف ،والأســـل : الرمـــــــاح .

غالبا من البيئة التى تنقل خلالها الشاعر ، فهو عندما يكون عابرا الصحراء فى احدى سفراته يتحدث لنا عنها ، فيصفها بأنها مهلكة ومرعبة وأنه يسمع فيها أصوات الجن ، ثم يصف مخلوقاتها من ثعالب وذئاب وسحالى وغير ذلك من مشاهدات[٢٤] ، وعندما يسافر خلال البحر يصف لنا السفينة وصفا موجزا ، ثم يقارن بينها وبين الناقة سفينة الصحراء بشكل بسيط وغير عميق[٢٥] ، أما عندما يكون فى المدن والحواضر فنراه يحدثنا عن العمران الذى أحدثه الممدوح من جوانب ومشاريع وأسواق وغيرها ، وربما وصف بساتين البحرين وأشاد بجمالها وخضرتها[٢٦] .

أما الخيال العميق فى شعر ابن مقرب فلم يكن نصيبه وافرا وقد يكون ذلك بسبب طبيعة الحياة التى عاشها ابن مقرب وما صاحبها من عنت وارهاق فى سبيل استرجاع حقوقه المغتصبة مما صرفه عن اطلاق العنان لخياله والاسترسال فى استخراج الصور المنمقة للتعبير عن معانيه ، ولكن ذلك لا يعنى أنه لم يكن قادرا على ذلك فشعره الذى بين أيدينا يدل فى قوته وجزالته على أن الشاعر يملك من المواهب الشعرية الشىء الكثير ، ثم ان شعره لم يخل من صور خيالية جميلة وان كانت قليلة ، وهذا القليل اعتمد فيه الشاعر على التشبيه والاستعارة والكناية كغيره من الشعراء .

ومن أمثلة (استعاراته) قوله فى المدح :

أخذت بأعضاد العشيرة بعدما
هوت وعلت منها الرؤوس الأسافل

(٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) انظر الديوان على التوالى ص ٣٩٧ ، ص ٩٨ ، ص ١٨٨ .

وأنقــذتها مــن بعــد مــا لعبــت بهــا
يــد الدهر ، واستولت عليها الزلازل[٢٧]

وقولــــــه :

رفعــت عمــاد المجــد من بعد ما وهى
ورث وأضحــى ركنــه وهــو مائـــل

وأحييت روح الجــود من بعــد ما قضى
ورد عليــه التــرب حــاث وهائــل[٢٨]

وقولــــــه :

وداويت قرحــا كــان فى كبــد العــلى
تبطنــه داء مــن الغــل قاتـــل[٢٩]

وقوله فى الفخــر :

فيالــك من مجـــد تداعــت فروعـــه
ومــال ذراه وانقعــرت أســافله[٣٠]

وقولــــــه :

صــداق المعــالى مشــرفى وذابـــل
وسابغة زغف وأجــرد صــاهل[٣١]

(٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) الديوان ص ٣٤٢ ، أخذ بأعضاد العشيرة : قواها وعززهـــا .

(٣٠) المصدر السابق — ص ٣٣١ . انقعرت : سقطت .

(٣١) نفس المصدر ، ص ٣٥٠ .

وقولـــــــه :

فقــلت لهــا والنفــس فى غلوائهـــا
تجيش ، وأفـــكارى تغـــور وتتهـم
ذرينـــى فان الحـــــر لا يألــف الأذى
وقـــد أكثر النسل الجـديل وشدقم(٣٢)

وقوله يهجو قوما بالبخل :

ولـــو درهــم يــوما دعــاهم لأقبــلت
رجــال وخيــل تملا الجــو قسطلا(٣٣)

ومن استعاراته الطريفة قوله :

محيـــى البـــلاد وقـــد أشفت على جرف
هــار ، ومانعهــا بالبيــض والأســـل
وباعــث العــدل حيــا بعــدما صرخــت
وأعلنـــت أمــه بالويــل والثـــكل(٣٤)

وأما أسلوب (الكناية) فلابن مقرب فيه صولات وجولات عديدة، فمن ذلك مثلا قوله يصف جو معركة :

ويــوم يــوارى الشـــمس ريعــان نقعه
ويحول قبــل الطــرف فيــه الحمالــق
وتمشـــى نســور الجــو فــوق عجاجه
وتبنـــى بـــه أوكــارهن اللقــالــق

---

(٣٢) الديوان ص ٤٥١ .
(٣٣) الديوان ص ٣٦٧ .
(٣٤) الديوان — ص ٣٨٦ .

ويكنى عن شدة القتال بقوله :

ولم يبق يثنى من عنان جواده
أب لابنه والموت للقوم خافق(٣٥)

وقوله معبرا عن سرعة حركة الخيل :

أغارت على درب الحنائد غارة
يطير الحصا من وقعها والجراول(٣٦)

ويفتخر بعزة قومه فيقول :

ولا يمنعنى ذاك بيت بناؤه
أناف على هادى الثريا وأشرفا(٣٧)

وكقوله :

وفى على عض الليالى بقية
وان قطعت من راحتى الأنامل(٣٨)

فالتعبير فى الشطر الثانى كناية عن قلة المساعد والنصير .

ويكنى عن كثرة كيد أعدائه فيقول :

وأصفح عن جهال قومى حمية
وان أسرجوا فى هدم عزى وألجموا(٣٩)

---

(٣٥) الديوان — ص ٣٠٠ .
(٣٦) الديوان — ص ٣٤٥ — الجراول : الأرض ذات الحجارة .
(٣٧) ص ٢٨٩ — أناف : أشرف .
(٣٨) ص ٣٤٧ .
(٣٩) ص ٤٤٩ .

وقوله فى المدح أيضا :

منيـــع الحمـــى لا يذعــر القوم سرحـــه
ولا تتقـــى غاراتــــه بالمـــآلك[٤٠]

وقولـــــــه :

وتبيـــت جـــاراته ولـــم يرفـــع لهــــا
كســـرا بعـــلة قائـــل متضـــلل[٤١]

وقوله :

فـــلا عـــــدم الاســـلام أيامـــه التـــى
أقامـــت بـــدار المشـــركين التلهفـــا[٤٢]

أما (التشبيه) فكثير فى شعره ، وحسبنا أن نورد الأمثلة لذلك ، وسنلاحظ أن معظم تشبيهاته مستمدة من البيئة التى حوله ، فمن ذلك قوله يصف معركة حربية :

ويـــوم نحس يـــوارى الشمس عثـــبرة
حتى يخـــال الضـــحى قـــد غاله الأصل

كأنمـــا البيض راحـــت وهـــى مصـــاتة
فيـــه بـــوارق غيـــث رعـــده زجـــل

والسمر قـــد جعـــلت تحـــكى أســـنتها
كواكـــب القذف والفرســـان تتصـــل

---

(٤٠) ص ٣١٠ ، والمآلك : الرسائل .
(٤١) ص ٤١٥ ، والكسر : جانب الخباء .
(٤٢) ص ٢٨٧ — التلهف : التحسر .

والنبـــل فى الجـــو يحـــكى بالمشـــبهه
الكبريت فى روسه النـــيران تشـــتعل[٤٣]

ونلاحظ أن هذه التشبيهات أضفت على وصف المعركة شيئا غير قليل من سرعة الحركة والاضطراب ، فالسيوف فى لمعانها كأنها البرق الذى يسبق المطر ، ورؤوس الرماح كأنها كواكب مقذوفة فى سرعتها ، وطيران النبل فى الجو كأنه الكبريت والنيران مشتعلة فى رأسه .

ومن تشبيهاته الجميلة قوله يصف شجاعة ممدوحه :

ولطـــالمـــا خـــلى الرؤوس كأنهـــا
للبعـــد ساخطة على الأجســـام[٤٤]

وقوله معبرا عن هيبة الخليفة فى صدور أعدائه :

تبيـــت طواغيـــت النفـــاق لهمـــه
كأن حشـــاياها ظهـــور الشياهم[٤٥]

والشياهم هى ذكور القنافذ التى عظم شوكها ، فهؤلاء المنافقون، كأن همومهم قد تحولت الى شوك عظيم يجرح أمعاءهم وأحشاءهم ، فما أبلغه من تشبيه !!

وقد يقوده خياله الى الاتيان بصور تمثيلية طريفة للدلالة على المعنى الذى يريد توصيله للسامعين ، كقوله يصف قوما باللؤم والخسة والبخـــــــل :

يـــرى جـــوادهم العـــافى فتحســـبه
رأى هزيـــرا هريـــت الشـــدق طيـــانا

---

(٤٣) الديوان — ص ٤٤٤ ، العثير : الغبار ، والأصيل : ما بين زوال الشمس الى غروبها .
(٤٤) ص ٥٠١ .
(٤٥) ص ٤٩٥ — الشياهم : العظيم من ذكور القنافذ .

يخـــال ســـائلهم من صـــر أوجههـــم
بالمـــح يعـــرك آنافـــا وآذانـــا[٤٦]

فهؤلاء القوم بلغوا من البخل مبلغا كبيرا حتى أن جوادهم لو رأى سائلا آتيا أصابه الرعب كما لو رأى أسدا عظيما بلغ به الجوع كل مبلغ فاضطرب منه وفزع ، ويخيل لمن يراهم حين يسألهم سائل فينقبضون ويصرون وجوههم ، ان هذا السائل يعرك أنوفهم وآذانهم بالملح لشدة وقع السؤال عليهم ، وهذه كما نرى صورة طريفة دلل بها الشاعر على بخل هؤلاء القوم وشدة لؤمهم .

ومثل آخر فيه تصوير طريف يمثل فيه لأحد المهجوين وشدة لؤمه وخسته بأن المخازى أصبحت بنات له ، وأنه حينما يموت ستصرخ بناته حزنا عليه وتولول لانتصار الحق واندحار الباطل فقال :

متـــى يمـــت تصـــرخ المخـــازى
يـــا أبتـــا واشـــقا اليتيمـــة

بعـــدك حـــلت بنـــا أمـــور
مقعـــــدة للغـــوى مقيمــــــة

راحـــت جيـــوش الضـــلال فوضى
قـــد هزمـــت أســـوأ الهزيمـــة

وأدرك الحـــــق بعـــــد ذل
منـــا بآثـــار المنيمـــة[٤٧]

ونلاحظ طرافة الصورة من حيث تمثيل المخازى بأنها بنات هذا اللئيم ، وبالتصاقها به لدرجة أنه لو مات ، لولوات عليه وندبته كما تندب

---

(٤٦) الديوان ص ٦٠٤ ، هريت : واسع الشدق ، العليان : الجائع .

(٤٧) الديوان — ص ٥٠٦ .

البنات أبيها الميت ، وكيف أن الشاعر صور الحق بالذل فى حياة هـذا الرجل الظالم ، فلما مات ظهر الحق وانمحت المخازى واختفت •

كل هذه المعانى اظهرها الشاعر فى صورة طريفة مبتكرة لم نسمع بها من قبل اذ هى هجاء رثائى أو رثاء هجائى •

وعلى العموم جاءت صور ابن مقرب وأخيلته تقليدية فى الغالب نهج فيها نهج القدماء ، ففيها السيوف والنصال والأسود ونحو ذلك من مألوف التشبيهات •

أهمية شعر ابن مقرب التاريخية :

لديوان ابن مقرب أهمية أخرى لا تقل عن أهميته الشعرية ، فان القارىء لهذا الديوان يخرج منه بفكرة شاملة للحياة السياسية بالبحرين فى ذلك العهد ، كما يمكن للباحث فى شعر ابن مقرب أن يتلمس من خلاله بعض صور الحياة العامة المعاصرة له ، ان شعر ابن مقرب يكاد يكون وحده — بالنسبة لتاريخ الدولة العيونية خاصة وتاريخ الجزء الشرقى من بلاد العرب عامة — هو أحد المصادر المباشرة التى أمدتنا بوصـف كامل للصراع على السلطة والحكم فى تلك الحقبة من الزمن ، وسجل لمعظم الحوادث التى وقعت فى ذلك الجزء ، مما نجزم معه أنه لولا شعر ابن مقرب لضاع ذلك التاريخ أو معظمه •

ومن شعر ابن مقـرب نستخلص فوائد تاريخية دقيقة أهملهـا المؤرخون ولم يتطرقوا اليها من قريب أو بعيد مثل وصفه لمعارك الأمراء العيونيين ، ووصف غارات البدو على مـدن البحرين ، وحـديثه عن الاصلاحات التى أحدثها الأمير باتكين فى البصرة فى ذلك الوقت كقوله :

بنـى بالبصـرة الفيحـاء سـورا
يضـاهى السـد سـبكا وانعقـادا

وأيـــده بمثـــل اللهـــب تأبـى
عـلى الأيـام صـــفته انهـدادا
وزينهـــــا بأســـــواق أرنـــــا
بهـا كـل البـلاد لهـا ســـوادا[٤٨]

ومن ذلك أيضا ذكره لقبيلة (هتيم) فى معرض الضعة والتحقير ، والكتب القديمة التي بين أيدينا لا تمدنا بما نحتاج اليـــه من معلومات كافية عن هذه القبيلة ، بل لا تذكر حتى اســـمها ، ولكن ابن مقـــرب وابن المشد من شعراء القرن السابع ذكراها .

يقول ابن مقرب :

وكيف مقـــامى بـــين أوباش قـــرية
أرى الرأس منهـــا من بها كان أســفلا
بنـــى عم من أمســـى كثـــيرا ســـوامه
ولو كان أدنـــى من (هتيم) وأرذلا[٤٩]

وعرض ببعض عاداتها الذميمة فى مكان آخر فقال :

فان (هتيمـــا) لو حـــوت مـــال طـــيىء
(هتيم) ، فـــلا يغـــررك طيف خيـــال
ســـترجع فيمـــا عـــودت مـــن حمـــيرها
وتحـــريق « اشـــنان » وخصف نعال[٥٠]

ولا تزال بعض أحياء هتيم معروفة عند قبائل العرب بالخمـــول وسوء القدر وضعة الحال وبالتقهقر الاجتماعى والمعيشى ، وتبرز لنـــا

---

(٤٨) الديوان — ص ١٨٨ ، السد : المراد به سد يأجوج ومأجوج الذى بناه ذو القرنين . وصفته : حجارته المصفوفة .
(٤٩) الديوان — ص ٣٦٤ ، والسوام : الابل والمقصود هنا المال .
(٥٠) المصدر السابق ص ٣٧٥ ، والاشنان : نوع من الشجر .

هذه الأهمية التاريخية لشـــعر ابن مقرب حينما نرى أحــد الباحثين المعاصرين يستعين بشعر ابن مقرب حينما يتحدث عن قبيلة (هتيم) فيقول :[٥١] (ولا نجد فيما بين أيدينا من الكتب ذكرا يوضـــح لنـــا ما نحتاج توضيحه عن هذه القبيلة) ويقول : كما نجد فى شعر ابن مقرب المتوفى سنة ٦٢٩ هـ ••• ثم يورد البيتين السابقين لابن مقرب •

ومن ناحية أخرى نعرف من خلال شعر ابن مقرب بعض أنواع اللبس والأكل المستحبة وغير المستحبة فى زمنه فيقول :

ومن (مـــروذى) بالقطيـــف و (لالس)
(عبـــاء) بوادى طـــىء و (نطوعهـــا)

ومن لحم (صاف) فى أوال و (كنعـــد)
(ضباب) و (جرذان) كثير خدوعها[٥٢]

واحتفظ لنا شعر ابن مقرب ببعض المسميات السائدة فى زمنـــه لبعض المواقع ، وان ذكره لأسماء كثير من الأمكنة والمواضع فى زمانه لما يساعد على تحقيق المواقع الجغرافية ومعرفة مدى التقدم العمرانى، وخاصة ما كان فى البحرين وساحل الخليج العربى •

فمن ذلك قوله يصف غارات البدو على الاحساء وما ألحقوه بها من أضرار ونكبات :

أخذوا (الحساء) من (الكثيب) الى (محا
ديث العيـــون) الى نقـــا (حـــلوان)

---

(٥١) مجلة العرب — دار اليمامة بالرياض ربيع الأول — ص ٨٦١ .

(٥٢) الديوان — ص ٢٥٥ — مروزى : ثوب منسوب الى (مرو) وهى بلدة بفارس ، واللالى : جنس ناعم من الثياب ، والنطع : ثوب يصنع من الجلد ، الصافى والكنعد : صنفان من السمك الجيد فى الخليج العربى ، خدع الضب فى حجره — دخله .

و (الخط) من (صفواء) جازوها فمـا
أبقـوا بهـا شـبرا الى (الظهـران)

والبحـر فاسـتولوا على مـا فيـه من
صـيد الـى در الـى مرجـان

وأمـض شـىء للقـلوب فضـائع
« بالمرزوان » لهـم و « كرزكان »(٥٣)

وقال فى معرض افتخاره بالأمير فضل بن عبد الله بن على :

منـا الذى حـاز من (ثاج) الى (قطر)
وصير (الرمل) من مال العدو حمى(٥٤)

وقال :

يا ساكنى « الخط والجرعاء » من «هجر»
هـل انتظاركم شيئا سوى العطب ؟(٥٥)

وورد فى شـعره ذكر بعض عيون الاحسـاء ، ومن ذلك عـين (الجوهرية) المعروفة فقال :

فخـير لعمـرى من بسـاتين (مرغم)
على ذى المجارى طلح « نجد » وشوعها

ومن مـاء نهر « الجوهرية » لـو صـفا
ذبابـة حسـى لا يرجـى نبوعهـا(٥٦)

---

(٥٣) المصدر السابق ص ٦٣٨ ما بين الأقواس كلها أسماء مواضع بالبحرين .
(٥٤) الديوان — ص ٥٤١ — ما بين الأقواس اسماء مواضع .
(٥٥) ص ٧٥ ، العطب : التلف .
(٥٦) ص ٢٥٤ ، الذبابة : بقية الشىء ، والحسى : سهل من الأرض ، يستنقع فيه المـاء .

ومن أسماء الأمكنة والمواضع الواردة فى شـعره فى غير الخليج العـــربى :

منـا الذى صحب المجتـاز من « حلب »
الى العراق ، الى نجد الى « أدما »(٥٧)

وقال يفخر بعشيرته :

أطاعت لهم ما بين «مصـر» الى «القنا»
الى حيث تلقى دارها «الشحر» و «النقب»(٥٨)

وقـــال :

ولو نـام سيف « بالحصيب » ولم يلـج
على الهـول لم يدع المليـك المجـدا
ولم ينشـع الأحبـوش كأسـا مريـرة
ويجمع فى « غمدان » شـملا مبددا(٥٩)

وقال فى أحد مطالعه :

ألا رحـلت نعـم وأقفـر نعمـان
فبـح باسـمها ان عز صبر وسلوان(٦٠)

---

(٥٧) ص ٥٤٨ — أدم : موضع فى عمان .

(٥٨) ص ٢٩ — القنا : موضع باليمن ، الشحر : ساحل بين عمان وعدن ، والنقب : بلدة باليمامة .

(٥٩) ص ١٥٣ — وسيف : هو سيف ابن ذى يزن ، والحصيب موضع باليمن ، ينشع : ينزع ، الاحبوش : الاحباش وغمدان : قصر بصنعاء .

(٦٠) الديوان — ص ٥٨٥ ، نعمان : اودية قرب الكوفة .

وقـــــال :

أمن دمنـــة بـــين اللـــوى والدكـــادك
شغفت بتذراف الدمـــوع الســـوافك[٦١]

وقـــــال :

مـــلك تحمـــل مـــا لا يســـتطيع لـــــه
حمـــلا « ثبير » و « ثهلان » فيحتمل[٦٢]

وقال فى العتاب :

فخبـــر من الاحســـــاء ان دام عتبـــكم
« أشـــىء ووادى » ماهم « ونعام »[٦٣]

وقال فى المدح :

يهز حســـاما صـــارما لو رمـــى بـــــه
شماريخ«رضوى» لا نزوى عنهضابه[٦٤]

مآخـــذ على شـــعره :

مع ما قلناه عن شعر ابن مقرب وما فيه من جودة اللغـــة ومتانة الأسلوب وجزالة الألفاظ فانه مع هذا قد تعتوره بعض الهنات ولكنها هنات هينات ، فهى لا تضيره ولا تنال من شاعريته عـــلاوة على كونها قليلة ومعدودة ، وكفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه كما قيل .

---

(٦١) ص ٣٠٥ — والدكادك : الغليظ من الأرض .
(٦٢) ص ٤٤٣ — وثهلان وثبير : اسم جبلين .
(٦٣) ص ٤٨٠ — ما بين الأقواس اسماء مواضع باليمامة .
(٦٤) ص ١٠٢ — شماريخ الجبل : أعلاه ، ورضوى : جبـــل بين المدينة وينبع .

وهذه الهنات أو المآخذ منها ما يتنافى مع مفهوم الفصاحة ، ومنها ما يخالف القواعد العامة فى النحو والصرف ، ومنها ما لا تقره أصول علم القافيـــة •

من هذه الأخطاء مثلا قول الشاعر :

والبصـرة الفيحـــاء لا تتخــافــن
عنهـــا ، ولا تتجاوزنهــا ميـــلا(٦٥)

فادخال نون التوكيد على هذا البيت مرتين هو من دأب النظامين من العلماء والنحاة لا الشعراء •

وكقولـــــه :

فبحـــرك لـلــوراد ذو متغطمـط
وربعــك للوفــاد ذو سـعة رحــب(٦٦)

فكلمة (متغطمط) عسيرة على النطق والمخرج ، ثقيلة على السمع واللســـــان •

ومثلها كلمة (محبنطئا) — أى ممتلىء غضبا — فى قوله :

فــلا تقعــدن محبنطئا خــوف ميتـــة
ستأتى ، فمــا تلقى جــوادا مخلدا(٦٧)

ومن مبالغاته فى المدح قوله :

لــولا النبـــوة بالنبــى محمـــد
ختمت ، لقلت أرى نبيــا مرســـلا(٦٨)

---

(٦٥) الديوان — ص ٤٠٧ .
(٦٦) ص ٣٥ — متغطمط : متحرك مضطرب .
(٦٧) ص ١٥٢ .
(٦٨) ص ٤٢٥ .

على أن أمثال هـذه المبالغات يمكن حملها على القاعدة النقـدية المعروفة عند العرب وهى : أجود الشعر أكذبه .

وكالاقواء فى قوله :

أنـخ فهـذى قبـاب العـز والـكرم
وقـل فـكل العـلا فى هذه الخيم(٦٩)

فحرف الروى كما نرى جاء بالكسر ، ولكن الشـاعر ما لبث أن تحول عن الكسر الى الضم وذلك فى البيت الرابع والأبيات الثلاثة التى تليه فقـال :

هـم الـملوك وسـادات الملـوك همـم
ومـا ربـى المـلك الا فى بيوتهـم
وقـد نزلـت بأسـراهم وأنبـاهم
عـلى سـراواتهم فينـا ونبـلهم
فانظـر بعينـك هـذا فهـو سـيدهم
طـرا وسـيد عدنـان وغـيرهم
هـذا الهمـام عمـاد الدين أكـرم من
يدعـى ويرجـى وخير الناس كلهم(٧٠)

ثم عاد الى الروى المكسور واستمر عليـه حتى البيت الخامس والخمسين حيث جاء الروى فيه مضموما ، وبعده عاد مرة أخرى الى الروى فاستمر عليه حتى نهاية القصيدة .

ومهما يكن من شىء فان هذه المؤاخذات لا تؤثر شيئا فى شـعر ابن مقرب ، وقل أن يخلو شاعر من مآخذ تؤخذ عليه .

---

(٦٩) ص ٥٥٤ — قل وقت القيلولة .
(٧٠) الديوان — ص ٥٥٥ — ربى الملك : زاد وعلا .

آراء النقــاد فى شعره :

لابن مقرب كشاعر منزلة رفيعة فى نفوس الأدباء والنقاد قدامى ومحدثين ، فمن النقاد القدامى :

(أ) (ابن ماكــولا) : الذى وصــف ابن مقــرب بأنه شــاعر محسن(٧١) .

(ب) كما وصفه بعض المتقدمين بأنه : (فريد دهره المتقدم على متقدمى عصره ، حسن السبك فى شعره ، جزل الألفاظ فى كلمــه كثير الأمثال فى نظمه)(٧٢) .

(جـ) وقال عنه الحافظ المنذرى : (كان شــاعرا مجيدا مليــح الشعر)(٧٣) .

(د) وقال عنه ابن الفــوطى : (كان شــاعرا مســترفدا جزل الألفاظ)(٧٤) .

(هـ) وقال عنه ابن الشعار الموصلى : (كان شاعرا مجددا منتجعا، كثير المدح ، قليل الهجاء ، جيد القول متينه ، قوى اللفظ رصينه ، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهر فى عصرنا المعروفين) .

أقر له الحذف أئمة العراق من ذوى الأدب والعلم ، ومذهبه فى الشعر مذهب الشعراء المتقدمين فى جزالة الألفاظ ، وابداع المعانى(٧٥).

---

(٧١) الاكمال ــ لابن ماكولا .

(٧٢) نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ــ رقم ٦٣٧ تاريخ .

(٧٣) التكملة لوفيات النقلة ــ عند سرد وفيات ٦٢٩ هـ .

(٧٤) تلخيص مجمع الآداب ــ لابن الفوطى .

(٧٥) قلائد الجمان فى شعراء الزمان ــ لابن الشعار الموصلى .

(و) أما ياقوت الحموى : فقد أورد فى ترجمته لابن مقرب شيئا من شعره ثم قال :

وليســت بالطايل عندى [٧٦] .

ومع احترامنا لياقوت كجغرافى الا أننا نختلف معه فى رأيه الأدبى فى شعر ابن مقرب ، فان كل من قرأه شهد له بالتفوق والسبق وبالحسن والجودة ، وعلى كل حال فكل انسان له رأيه ، وان كان ياقوت لم يعلل لرأيه الذى قال به .

أما النقاد المحدثين فقد أجمعوا على جــودة شــعره ووضعه فى منزلته الصحيحة .

١ — فمنهم د. محمد جابر الانصارى : الذى وصف ابن مقرب بأنه ظاهــرة فريدة فى عصره ، ووصف شــعره بالحيــوية والصراحة والقوة[٧٧] .

٢ — أما الأديب المحقق عبد الفتاح الحلو فقد وصف ابن مقرب بالنبوغ وبأنه شاعر ذائع الصيت فى الجزيرة العربية[٧٨] .

٣ — وقال عنه الباحث عمران العمران : ان ابن مقرب كان بعثــا للشعر ويقظة للأدب وحيوية للغة ، وان انتاجه الجيد يرفعه الى مصاف كثير من أعيان الشعر العربى وفحوله[٧٩] .

٤ — أما الأديب « مقبل العيسى » : فيصف انتاج ابن المقــرب الشعرى بالوفرة وبأنه بلغ المستوى الرفيع من الجودة التى تؤهله لأن يكون مشهورا منذ زمن بعيد[٨٠] .

---

(٧٦) ياقوت الحموى — معجم البلدان — جـ٦ ، ص ٢٥٩ .
(٧٧) محمد جابر الانصارى — لمحات من الخليج العربى — ص ٣١ .
(٧٨) عبد الفتاح محمد الحلو — ديوان ابن المقرب — طبعة الاحساء ص ٣ .
(٧٩) عمران العمران — دراسة عن ابن مقرب ص ٦ .
(٨٠) مجلة البيان الكويتية — العدد ٣٧ — ابريل ١٩٦٩ .

٥ ـــ ويقول الباحث الأديب « درويش المقــدادى » : انه على الرغم من عدم شهرة ابن المقرب الا أنه من أعظم شعراء الخليج العربى، وهو يشابه المتنبى فى الروح الشعرية ، وخصوصا فى الفخر والحماس والمطالبة بالحق[٨١] .

٦ ـــ أما الأديب المؤرخ « محمــد سعيد المســلم » فيقول : ان ابن مقرب نظم الشعر فى سن مبكرة ، وهو لا يتجاوز العاشرة من عمره، وبعد أن يقارن الباحث بين سيرة ابن مقرب وسيرة المتنبى ، يصف شعر ابن المقرب بأنه ثروة أدبية [٨٢] .

ويكفينا هذا القدر من آراء النقاد والأدباء قدامى ومحدثين لاظهار مكانة ابن المقرب ، ومنزلته الشــعرية فى النفوس ، مما جعــل الناس يرددون أشعاره ويتداولونها بينهم على الرغم من مرور فترة طويلة من من عمر الزمن على وفاة الشاعر ، وليس تعدد طبعات ديوانه الا الدليل الأكبر على ذلك .

---

(٨١) مجلة العربى ـــ الكويت ، عدد ابريل ١٩٦٠ .
(٨٢) محمد سعيد المسلم ـــ ساحل الذهب الأسود ـــ ص ٢٧٦ ـــ طبعة بيروت ..

الفصل السادس

« بين المتنبي والعيوني »

بادىء ذى بدء أود أن أبين السبب الذى دفعنى الى عقد هـذا الفصل وموازنة المتنبى بالعيونى ، ذلك أنى رأيت كثيرا ممن كتبوا عن ابن مقرب شبهوا شعره بشعر المتنبى وقارنوا سيرة حياته بحياة هـذا الشاعر العظيم .

فمنهم مثلا د. محمد جابر الأنصارى ، الذى يقول عنه : « وتراه فى معظم أشعاره قوى العاطفة ، متوقد الفكر ، جزل الأسلوب ، ينتمى الى الطبقة الوسطى من شعراء العربية ، فكأنه أبو الطيب المتنبى فى ثورته وصراحته وفى نفسه الشعرى المتين »[1] ويقول الباحث مقبـل العيسى : « ان ابن مقرب لم ينل حظا من الشهرة مثل غيره من الشعراء الذين عاصروه فى الأقطار العربية الأخرى ، أو الذين عاشـوا بعده ، بالرغم من وفرة انتاجه الشعرى وبلوغه المستوى الرفيع من الجـودة والأصـالة ، فمن يقرأ ديوانه يتذكر بعض الشعراء الذين ملأوا سمع الدنيا دويا كأبى الطيب المتنبى .. »[2] .

وقال عمران العمران : « ان لابن مقرب ولا غرو بعض قصـائد ومقطعات لا تقـل فى أهميتها وفى قيمتها الفنية والموضـوعية عن بعض قصائد أبى الطيب المتنبى .. »[3] .

أما عن سيرة حياة الشاعرين وتشابههما الى حد ما فقال الباحث درويش المقدادى : « وهو ــ أى ابن مقرب ــ يشبه المتنبى من هذه الناحية ، المتنبى حاول بشعره وأسفاره واتصاله بأمراء مصر والشام

---

(١) محمد جابر الانصارى ــ لمحات من الخليج العربى ص ٣٣ .
(٢) مقبل العيسى ــ مجلة البيان ــ عدد ٣٧، ابريل ١٩٦٩ ــ الكويت.
(٣) عمران العمران ــ دراسة عن ابن مقرب ، ص ٧ .

أن يكون ذا ولاية وملك فلم يفلح ، كذلك فعل ابن المقرب بالخليج العربى والعراق فلم يحقق أمنيته »[٤] وكتب الأديب محمد سعيد المسلم مقارنا سيرة حياة الشاعرين ببعضهما قائلا : « وسيرة الشاعر ابن المقرب تشابه الى حد كبير سيرة أبى الطيب المتنبى ، كلاهما طموح للملك ، حاول ابن المقرب الوصول الى الملك فى وطنه فأبعده أقاربه ، فسجن وصودرت أملاكه ، كما حاول المتنبى التوصل الى الملك بادعائه النبوة فوشى به وسجن ، ولما أطلق سراحه حاول الوصول الى غاياته عن طريق الشعر ، فوفد على سيف الدولة الحمدانى فمدحه دون طائل ، فجافاه ، وقصد كافور الأخشيدى ملك مصر ، وعقد عليه الأمل فى تحقيق آماله فلما فشلت هجاه ، كذلك كان ابن المقرب حين أطلق سراحه حاول الوصول الى غاياته عن طريق الشعر ، فطاف بأنحاء البلاد ، ومدح أمراءها ، كما حاول الاتصال بالملك الأشرف ، وانتهى به المطاف الى أمير الموصل الذى كان مملوكا أرمنيا فمدحه ، فلما لم ينل منه مبتغاه عمد الى هجائه »[٥].

وكما نلاحظ فانما ذكره هؤلاء الأدباء والنقاد انما هو اشارات خاطفة عابرة ونظرات بسيطة لم يتعمقوا فيها ولا تشبع نهم الدارس . لذلك اتخذتها مفتاحا للتفصيل فى الموازنة بقدر الامكان ، ورأيت أن الواجب العلمى يحتم على عقد مقارنة فيها شيء من التوسع بين الشاعرين لبيان أوجه الشبه بين سيرة حياتهما وموازنة بعض ما اشتهروا به من أغراض شعرية علنى بذلك أخرج بجديد يفيد الدرس الأدبى .

ولقد أعلم أن هذه الموازنة بين المتنبى والعيونى — لكى تكون أصيلة قويمة — ينبغى على الأقل أن تقوم على دراسة مفصلة لشعر المتنبى والبيئة التى عاش فيها ، ومعنى ذلك أن أنهض بأعباء دراسة أخرى لشاعر آخر توازى دراستى لابن مقرب لأستطيع أن أعقد هذه

---

(٤) درويش المقدادى — مجلة العربى ، عدد ابريل ١٩٦٠ الكويت .

(٥) محمد سعيد المسلم — ساحل الذهب الأسود ، ص ٢٧٦ .

الموازنة على أساس من الدرس الشخصى الذى أنهض به ، والواقع أن ذلك عسير ، لأنه من جهة يستنفد الكثير من الوقت ، ومن جهة أخرى فان طبيعة الموازنة التى سأعقدها هنا تقوم على الايجاز والاختصار وليس على الاستطراد والتطويل ، ثم ان التعاون بين الدارسين والباحثين من جهة ثالثة يعفينى من المبالغة وعناء الدراسة ، اذ الواقع أن الباحث يمكنه بل يجب عليه الى حد ما أن يعتمد على النتائج العلمية المقررة التى انتهى اليها غيره من المختصين فيما يتصل بموضوعه ثم يضع بجانبها أو يربط بها ما انتهى هو اليه من بحثه الخاص ، وهنا تبدو النتائج العلمية متكاملة منسقة ، وعلى هذا الأساس أتقدم للموازنة بين المتنبى والعيونى ، فما أكثر الدراسات والأبحاث التى كتبت عن المتنبى ، فهو الشاعر الذى يوصف بأنه قتل بحثا ، وهذه الدراســات والأبحاث الكثيرة لها نتائج ومقررات يمكننا أن نطمئن ونرتاح اليها .

أولا : حياة الشاعرين

أبو الطيب المتنبى : (٦)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندى ، ولد سنة ٣٠٣ هـ بالكوفة فى محلة تسمى كنده فنسب اليها ، ويقال ان والده كان سقاء بالكوفة ، وأنه رحل بابنه الى الشام فشب فيها مولعا بفنون اللغة ، حريصا على طلبها ، ساعيا الى أهلها فى البادية والحضر حتى نال منها أوفر نصيب وينسب لأبى الطيب أنه ادعى النبوة فى بادية « السماوه » ، فأغوى كثير من قبيلة « بنى كلب » وغيرهم ، حتى خرج اليه لؤلؤ أمير «حمص» من قبل الأخشيديين ، فأسروه ، وفرق أصحابه ، وحبسه طويلا حتى تاب فأطلقه ، وفى سنة ٣٣٧ هـ ، اتصل ببلاط سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، وظل يمدحه سنوات بأبدع الشعر وأروعه ، فيكافئه بأعظم العطايا والمنح ، حتى وقعت بينهما جفوة قضت على الشاعر أن يفارقه الى دمشق ، والرملة فمصر ، وقد دخلها سنة ٣٤٦ هـ ، واتصل بواليها كافور ، ومدحه طمعا فى أن يوليه احدى الامارات ، ولكن كافورا خيب ظنه حين رأى طموحه وسعة آماله ، فحنق عليه المتنبى وهجاه أشنع الهجاء ، وفر غاضبا سنة ٣٥٠ هـ الى بغداد مقر الخليفة العباسى ، فلم تطل بها اقامته اذ تمالأ عليه حساده ومنافسوه من الشعراء والأدباء ، وائتمروا به ، فتظاهر أول الأمر باحتقارهم وعدم المبالاة بهم ، ولكنه لم يجد بدا من أن يؤثر السلامة والهدوء بترك بغداد ، وقصد الكوفة ثم « أرجان » حيث ابن العميد الأديب العالم المشهور وزير ركن الدولة ، فأقام عنده فترة كانت من أطيب فترات حياته ، ولقى من عطفه ورعايته ما أنساه كثيرا من متاعبه ، ثم غادرها الى « شيراز » قاصدا أميرها الديلمى « عضد الدولة بن بويه » فأغدق عليه وأرضاه بالعطايا الكثيرة ، ثم اشتاق الى بلاده فاستأذنه فى العودة فأذن له ، فاتجه الى بغداد ثم

---

(٦) العكبرى جـ ١ ، ويتيمة الدهر .

الكوفة ، وفى طريقه اليها قابله رجل يقال له « فاتك الأسدى » فى جماعة من أصحابه (وكان المتنبى هجا أخته أقذع هجاء وأفحشه ، فحقد عليه فاتك وأسرته وأضمر له الشر حتى حانت هذه الفرصة ، فخرج عليه وقتله وقتل ابنه محسد وغلامه مفلح وأخذ جميع ما معه وفرق أصحابه، وكان ذلك فى رمضان سنة ٣٥٤ هـ ، بالقرب من موضع يقال له «الصافيه» بالجانب الغربى من بغداد عند « دير العاقول ») •

وبمقارنة سيرة المتنبى بسيرة ابن المقرب[٧] يتضح لنا أوجه الشبه بينهما فيما يلى :

(أ) كلا الرجلين صاحب طموح وهمة عالية واعتداد بالنفس وتبعا لذلك فان كلا منهما حاول الوصول الى الملك والامارة، فلما لم يفلحا حاولا الوصول الى غايتهما عن طريق الشعر •

(ب) مدح المتنبى كافورا عله يصل الى مبتغاه ، لكنه فشل فهجاه هجاء مقذعا ومدح ابن مقرب ، أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ فلما لم ينل منه ما يريد هجاه أيضا •

(جـ) كلاهما عاش حياة غير مستقرة ، وأكثرا من التنقل من مكان الى مكان بغرض مدح الملوك والأمراء ، وكانت حياتهما أشبه بسلسلة من الرحلات التى لا تنقطع •

(د) كلاهما نقم على الحياة وعلى الناس وصرحا بذلك فى شعرهما • قال المتنبى :

ومن عرف الأيام معرفتى بها
وبالناس روى رمحه غير راحم

---

(٧) راجع حياة الشاعر ص ٣٣ من هذا البحث .

فـــليس بمرحــــوم اذا ظفـــــروا بـــه
ولا فى الردى الجــارى عليهـــم بآثم[٨]

وقال ابن مقرب :

واعص الذليـــل اذا أشـــــار ولا تثــق
فى الـــكائنات بـــكل مـــن تســـتصـــحب

واعـــــلم بـــأن النـــاس قـــد جربتهـــم
فاذا صـــحيح الـــود منهـــم عقـــرب[٩]

---

(٨) ديوان المتنبى ص ٢١٠ ؛ طبعة صادر بيروت .

(٩) ديوان ابن المقرب ص ٩٠ .

ثانيا : الناحية الشعرية

أما ناحية الشعر فسأحاول أن أكشف عن وجوه الشبه بينهما فى الأغراض الشعرية والنواحى الفنيـــة التى تقرب بينهمـــا وتربط بين اتجاهيهما فى هذا المجال •

١ ــ الحـــــكمة :

وصف القدماء المتنبى بأنه حكيم ، اذ لا تكاد تخلو قصيدة له من حكمة ومثل ، بل حكم وأمثال ، وهذه الحكمة فى معظمها توحى بالقوة بل وتطالب بها ، وبالعنف والشدة فى ادراك الغايات واسترجاع الحقوق ، ودفع المظالم ، ولا ترى فى هذا السبيل ملاينة ومسالمة ، ولا تجنح الى مهادنة وصفح ، كل ذلك مصوغا فى قالب رصين ، متين الأداء ، قـــوى السبك ، مما أدى الى شيوع هذه الحكمة وتداولها على الألسنة فى كل مكان وزمان •

يقول المتنبى :

عش عــزيزا أو مــت وأنــت كـــريم
بـــين طعــن القنــا وخفــق البنـــود

فرؤوس الرمـــاح أذهـــب للغيـــظ
وأشــفى لغــل صــدر الحقـــود

لا كمــا قــد حييــت غــير حميـــد
واذا مـــت مـــت غـــير فقيـــد

فاطلب العـــز فى لظــى وذر الـــذل
ولــو كــان فى جنـــان الخـــلود[١٠]

---

(١٠) ديوانه ــ طبعة صادر ص ٢١ . البنود : الأعلام ، الغل : الحقد ، لظى : جهنــم .

٢ — ومن قصيدة له فى المدح يقول :

لا افتخـــار الا لمـــن لا يضـــام
مـــدرك ، أو محـــارب لا ينـــام

ليس عـــزما مـــا مـــرض المـــرء فيـــه
ليس همـــا مـــا عـــاق عنه الظـــلام

واحتمـــال الأذى ورؤيـــة جانيـــه
غـــذاء تضـــوى بـــه الأجســـام

ذل مـــن يغبـــط الذليـــــل بعيـــش
رب عيـــش أخـــف منـــه الحمـــام

كـــل حـــلم أتـــى بغـــير اقتـــدار
حجـــة لاجـــىء اليهـــا اللئـــام

مـــن يهـــن يســـهل الهـــوان عليـــه
مـــا لجـــرح بميـــت ايـــلام[11]

٣ — ومن قصيدة له فى الهجاء نرى له الحكم التالية :

ولقـــد رأيـــت الحادثـــات ، فـــلا أرى
يقعـــا ، يميـــت ، ولا ســـوادا يعصـــم

والهـــم يخـتـــرم الجســـيم نحافـــة
ويشـــيب ناصيـــة الصـــبى ويهـــرم

ذو العقـــل يشـــقى فى النعيـــم بعقـــله
وأخـــو الجهـــالة فى الشـــقاوة ينعـــم

---

(١١) ص ١٦٤ ، مرض بمعنى قعد ، الهم : حديث النفس ، تضوى ، تهـــزل .

والنـاس قـد نبذو الحفـاظ فمطـلق
ينسـى الذى يـولى وعـاف ينـدم

لا يخدعنـك مـن عـدو دمعـه
وارحـم شـبابك مـن عـدو تـرحم

لا يسـلم الشـرف الرفيـع من الأذى
حتـى يـراق عـلى جوانبـه الـدم

يـؤذى القليـل من اللئـام بطبعـه
من لا يقـل ، كمـا يقـل ويلـؤم

والظـلم من شـيم النفوس فـان تجد
ذا عفـة فلعـله لا يظـلم[١٢]

٤ — ومن قصيدة فى المدح يقول :

من الحلم أن تسـتعمل الجهـل دونـه
اذا اتسـعت فى الحـلم طرق المظـالم

وأن تـرد المـاء الـذى شـطره دم
فتسقى ، اذا لم يسـق من لم يزاحـم

ومـن عـرف الأيـام معرفتـى بهـا
وبالناس ، روى رمحـه غـير راحـم

فليـس بمرحـوم اذا ظفـروا بـه
ولا فى الردى الجـارى عليهـم بآثم[١٣]

---

(١٢) ديوانه — ص ٥٧٠ ، اليقق : البياض ، ويقصد به بياض الشعر ، يخترم : يهلك ، نبذوا : طرحوا ، الحفاظ : المحافظة على الحقوق ، العافى : من العفو . القليل : الخسيس .

(١٣) ص ٢١٠ .

٥ ـ ومن قصيدة فى مدح سيف الدولة جاءت فيها حكم كثيرة متفرقة :

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت
على عينه حتى يرى صدقها كذبا

ومن تكن الأسد الضوارى جدوده
يكن ليله صبحا ، ومطعمه غصبا

ولست أبالى بعد ادراكى العلا
أكان تراثا ما تناولت أم كسبا

أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه
حريصا عليها مستهاما بها صبا

فحب الجبان النفس أورده التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ويختلف الرزقان والفعل واحد
الى أن يرى احسان هذا لذا ذنبا(١٤)

ومن حكمه الأخرى :

كثير حياة المرء مثل قليلها
يزول ، وباقى عمره مثل ذاهب

اذا لم تكن نفس النسيب كأصله
فما الذى يغنى كرام المناصب(١٥)

---

(١٤) ديوانه ص ٣٢٥ .

(١٥) ص ٢٢٦ النسيب : الشريف ، المناصب : الأصول .

وقولــــــه :

وكـل امـرىء يولـى الجميـل محبب
وكـل مـكان ينبـت العـز طيـب(١٦)

ابن المقـــــرب :

عاش ابن مقرب حيـاة صعبة مريرة حافـلة بالتجارب والمواقف العسيرة أكسبته كثـير من التجارب والحنكة ، لذا فقد انثالت أبيـات الحكمة على لسانه سلسة فياضة معبرة عن خلاصة تجارب صاحبها فى الحياة وفى معاملة الناس ، وهى من الناحية الفنية قوية الصياغة جيـدة السـبك .

ولنسمع له وهو يقول :

من سـالم النـاس لم تسـلم مقـاتله
منهم ومن عـاث فيهـم بالأذى سـلما

لا يقبـل الضـيم الا عاجـز ضـرع
اذا رأى الشـر يغـلى قـدره وجمـا

وذو النبـاهة لا يرضـى بمنقصـة
لو لـم يجـد غـير أطراف القنا عصما

وذو الدنـاءة لـو مزقـت جـلدته
بشـفرة الضـيم لم يحسس لهـا ألمـا

ومن رأى الضـيم عـارا لم تمـر بـه
شـرارة منـه الا خالهـا أطمـا

وكـل مجـد اذا لـم يـبن محتـده
بالبأس نقـرة الأعـداء فانهدمـا

---

(١٦) ص ٤٦٨ .

لا يضبط الأمـر مـن فى عـوده خـور
ليس البغاث يسـاوى أجـدلا قطما[١٧]

٢ ـ وهذا ما عرفه ابن مقرب بعد مخالطة الناس :

ولقـد حلبـت الدهـر أشـطر نابـه
وعرفـت مـا يبـدى ومـا يتغيـب
فاذا مـودة كـل مـن أصـفيته
ودى لـدى الحاجـات بـرق خلب[١٨]

٣ ـ وقولـه :

لا تركـنن الـى العـدو ولا تطـع
آراء من فى حبـل غـيرك يحطـب
واعص الذليـل اذا أشـار ولا تثـق
فى الـكائنات بـكل مـن تسـتصحب
واعـلم بأن النـاس قـد جربتهـم
فاذا صـحيح الـود منهم عقـرب[١٩]

٤ ـ وعن رأيه فى أهمية المال للانسان يقول :

ألسـت تـرى أن المقـل بمجـه
أخـو الرحم القـربى وتبـدو معايبـه
اذا المـرء لـم يمـلك من المـال ثروة
رمتـه عـداه واجتـوته أقـاربـه
ومن يجعـل العجـز المطيـة لـم يـزل
يمر عليـه الدهـر والفقـر صـاحبه
فقـم واركب الأهـوال جـدا فطالمـا
أفـاد الغنى بالمركب الصـعب راكبه[٢٠]

---

(١٧) ص ٥٢٧ وسبق شرح الكلمات فى ص ١٨٧ .
(١٨ ، ١٩ ، ٢٠) انظر شرح الأبيات ص ١٩١ من هذا البحث .

٥ — وأخيرا فان ابن مقرب يلخص لنا رأيه فى كثير من مفاهيم الحياة حسب تجربته :

العز ما خضعت لهيبته العدا
وأقام بالفكر الملوك وأقعدا

والمال ما وقاك ذما أو بنى
علياك أو أبقى لقومك سؤددا

والجود ما بلت به رحم وما
أوليت ذا أمل أعدك مقصدا

واللؤم اكرام اللئيم لأنه
كالذئب لم ير عدوة الا عدا

والعزم ما ترك الحديد مفللا
والخيل حسرى والوشيج مقصدا

والنبل فتكك بالمعادى غادرا
أو وافيا مستنجدا أو منجدا(٢١)

وبالنظر الى غرض الحكمة عند الشاعرين يتضح لنا ما يلى :

— كلاهما يؤمن بطريق القوة والسيف ، وترك اللين والمسالمة .

— أن حياة العز هى الحياة ، وما عداها فهو الموت والذل .

— أن المجد لا يحفظ الا بالسيف والا تداعى وانهار .

— ومع أنهما يشتركان فى ترديد هذه المعانى دائما ، الا أن الأسبقية فى ذلك للمتنبى دون شك وما توالى حكم ابن مقرب الا ترديد لمعانى

---

(٢١) ص ١٦٧ — وانظر شرح الكلمات ص ١٩٢ من هذا البحث .

للمتنبى فى كثير منها ، حتى أنه يبدو تأثر ابن مقرب بالمتنبى فى كثير من معانيه الحكمية ، فقوله :

وذو الدناءة لو مزقت جلدته
بشفرة الضيم لم يحسس لها ألما

يشبه قول المتنبى :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام

وقوله :

وكل مجد اذا لم يبن محتده
بالبأس نقره الأعداء فانهدما

يشبه قول المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وغير ذلك .

— وأخيرا فلا شك — كما لاحظنا — أن الروح الشعرية أقوى عند المتنبى ، ويبتدى ذلك فى قوة سبكه واحكام صياغته .

٢ — الفخر بالنفس :

أكثر كل من الشاعرين من الافتخار بنفسه ، وبقوة شاعريته ، فى أسلوب رصين قوى ؛ ولعل نصيب المتنبى من الفخر الذاتى أوفر نصيب بين شعراء العربية ، وامتاز فخره بأنه وجدانى رصين ، ونمت كلماته فى هذا الجانب عن ثورة داخلية عميقة ، وشعور نفسى قوى صادق ، وجاء تصوير هذا الشعور قويا صادقا كذلك :

ومن الأمثلة على ذلك قوله :

الخيـل والليـل والبيـداء تعرفنـى
والضرب ، والطعن ، والقرطاس ، والقلم

كـم تطـلبون لنـا عيبـا فيعجـزكـم
ويـكره اللـه مـا تأتـون والـكرم

مـا أبعد العيب والنقصـان عن شـرفى
أنـا الثريا ، وذان الشـيب والهرم[٢٢]

٢ — ويقـول :

ردى حيـاض الـردى يا نفس واتركى
حيـاض خـوف الردى للشـاء والنعم

ان لـم أذرك عـلى الأرمـاح سـائلة
فـلا دعيـت ابن أم المجـد والـكرم

أيمـلك المـلك — والأسـياف ظامئـة
والطـير جائعـة — لحـم على وضـم

من لـو رآنـى مـاء مـات من ظمـأ
ولـو مثلت لـه فى النـوم لم ينم[٢٣]

٣ — ويقـول :

أى محـل أرتقـى
أى عظيـم أنتقـى

(٢٢) ص ٣٣٢ — الكرم : أى وكرمكم يكره ذلك .

(٢٣) ص ٣٨ ، روى : أمر من الورود ، الردى : الهلاك . الحياض : جمع حوض وهى مجمع المياه . والوضم : خشبة يقطع الجزار عليها اللحم .

وكـــل مــــا خـــلق اللــــــه
ومــــــا لــــــم يخــــــلق
محتقــــــــر فــى همتـــــى
كشـــعرة فــــى مفرقـــى[٢٤]

٤ ـ وقولـــــه :

مـــا مقـــامى بأرض نخــــلة الا
كمقـــام المســـيح بـــين اليهــود
مفرشــــى صهــوة الحصـان ولــكـ
ـن قميصــى مســــرودة من حـــديد[٢٥]

ومنهــــا :

لا بقـــومى شرفت ، بـــل شـــرفوا بـــى
وبنفسى فخــــرت ، لا بجــــــدودى
وبهـــم فخـــر كل من نطـــق الضـــاد
وعــوذ الجـــانى ، وغــوث الطـــريد
ان أكـــن معجبـــا فعجـــب عجيــب
لـــم يجـــد فـــوق نفســـه من مزيـــد
أنـــا تـــرب النــــدى ورب القــــوافى
وســـمام العـــدى وغيـــظ الحســـود

---

(٢٤) ص ٤٠ .
(٢٥) ص ٢٠ ، وارض نخلة : قرية عند بعلبك ، الصـــهوة : مقعد الفارس من الفرس ، المرودة : المنسوجة .

٥ — ويقول مخاطبا سيف الدولة :

وما أنا الا سمهرى حملته
فزين معروضا ، وراع مسددا

وما الدهر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغنى مغردا

أجزنى اذا أنشدت شعرا فانما
بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتى فاننى
أنا الصائح المحكى والآخر الصدى(٢٦)

وقوله :

أمط عنك تشبيهى بما ، وكأنه
فما أحد فوقى ولا أحد مثلى(٢٧)

٦ — وقوله :

فلما أنخنا ركزنا الرماح
فوق مكارمنا ، والعلا

وثبنا نقبل أسيافنا
ونمسحها من دماء العدا

---

(٢٦) السمهرى : الرمح الصلب ، المعروض : المحمول بالعرض ، المسدد : الموجه للطعن ، المشمر ، المجد .

(٢٧) ص ١٤ — امط : ازل .

لتعـــلم مصـــر ، ومـــن بالعـــراق
ومـــن بالعواصـــم أنـــى الفتـــى

وأنـــى وفيـــت وأنـــى أبيـــت
وأنـــى عتـــوت عـــلى من عتـــا (٢٨)

ابن المقـــرب :

شغل افتخاره بنفسه حيزا كبيرا من فخره عمـوما ، وامتاز هذا الفخر بالكثرة والقوة ، وتطرق فيه الشاعر الى كثير من معان الشجاعة والكرم والسمو للعلا والهمة العاليـــة ، وكذلك الفخر بقوة الشـــاعرية وذيوع الصيت .

ومن أمثلة فخره بنفسه قوله :

١ — عـــلى م وفى م ظلمـــا تلحيـــانى
ذرانـــى لا أبالـــكما ذرانـــى

وحســـبكما فمـــا ســـمعى بمصـــغ
ولا واع لمـــــا تتحـــــدثان

فـــلى همـــم اذا جاشـــت أرتنـــى
قـــرى عمـــان ميـــلا من عمـــان

اذا ســـولتما فتنـــا ســـيانى
وان أســـلمتما فتذكـــرانـــى

فمثـــلى من يقيـــم صـــغى الأعـــادى
ويســـتعدى على نـــوب الزمـــان

---

(٢٨) ص ٥١١ ، انخنا : نزلنا ، العواصم : اسم بلاد ، الفتى : الحر الكريم ، ابت : امتنعت ، عتوت : تجبرت .

ومـا ذكـر المنيـة عنـد أمـر
أحـاوله بشـان من عمـان[٢٩]

٢ — وقولـه :

أتـدرى الليـالى أى خصم تشـاغبه
وأى همـام بالرزايـا تـواثبـه

تجـاهل هـذا الدهـر بـى فتكتبـت
عـلى بأنـواع البـلايا كتائبـه

وظـن محـالا أن أديـن لحـكمه
اتبـك عـلى عقـل المعنـى نـوادبـه

وانـى وان أبـدى اصعرارا بخـده
وأوجـف بـى وازرر للبغـض جانبـه

لأغضـى عـلى بغضـائه وازوراره
وأعجـب من حـر كـريم يعاتبـه

وأسـتقبل الخطـب الجليـل بثـاقب
من العزم يعلو لاهب النـار لاهبـه[٣٠]

ورأى متـى جـودته وانتضيتـه
وجـدت حسـاما لـم تفـلل مضـاربه

ولسـت بيهفـوف يـرى رأى عرسـه
متـى أركبتـه مركبـا فهـو راكبـه

يظـل اذا مـا نابـه الأمـر محجـرا
يخاطبهـا فى شـأنه وتخاطبـه

---

(٢٩) انظر شرح الأبيات ص ١٥٤ .
(٣٠) انظر شرح الأبيات ص ١٥٣ ، من هذا البحث .

٣ ــ ويقـــــول :

فـــلا يتوهـم الســـفهاء أنـــى
أحـــن الـــى غـــوان أو مغـــان

ولا أنـــى أرى والمـــوت حتـم
بعـــين جـــلالة مـــن لا يرانـــى

عظيـم النـاس فى عينـــى حقـــير
اذا بالمقـــالة الخوصـــا رآنـــى

محـــال أن أواصـــل من جفـــانى
وأســمح بالــوداد لمـن قــلانـى[٣١]

ومنهـــا :

ولسـت اذا تشـــاجرت العـوالى
بغمـــر فـــى اللقـــاء ولا جبـــان

ولكنـــى حـديـا كـــل يـــوم
تـلاقـى عنـده حـلق البطـــان

٤ ــ وقال فى مجال افتخاره بشعره :

ودونـك من تيـــار بحــر اذا طمـــى
أراك بحـــار الأرض جمعـا صـــلاصلا

وأنفــذتهـا فى حـكمـة وبـــلاغـة
كسـت حـلة من بعد عهدك عاقـــلا[٣٢]

---

(٣١) الأبيات مذكورة أيضا ص ١٥٥ من هذا البحث .

(٣٢) انظر شرح الكلمات ص ١٦١ ، من هذا البحث .

وبالنظر الى هذا الغرض عند الشاعرين يتضح لنا ما يلى :

ـ كلاهما أكثر من الافتخار بنفسه وبشعره والأمثـلة على ذلك كثـيرة .

ـ اشترك الشاعران فى معظم معان الفخر كالشجاعة والاقـدام وعلو الهمة والأنفة من الذل ، واظهار قوة الشاعرية .

ـ وعلى الرغم من أن ابن مقرب افتخر بنفسه بقوة وبراعة . وأتى فى ذلك بمعان كثيرة ؛ الا أن المتنبى فاقه فى هذا الجانب من حيث التفرد بالمعانى والصور الفذة ، ومن حيث صياغة هذه المعانى باحكام وأسلوب قوى رصين أضفى عليها كثير من الفخامة والروعة .

٢ ــ وصف المعارك :

يتجلى المتنبى فى وصف المعارك شاعرا قويـا فى عباراته ومعانيه وأخيلته ، وبدائع افتنانه ، لا يكاد يسبقه فى هذا الميدان أحد من شعراء العربية ، فقد اقتحم ميدان الحرب بنفسه ، وكابد أهوالها ، ورأى ببصره وسائلها ودخائلها ، وعرف من جلائلها ووقائعها ما لا يعرفه الا الخبراء، ومن أمثلة أوصافه الحربية قوله مخاطبا سيف الدولة ومعرضا بالروم :

١ ــ صـدمتهم بخميـس أنـت غرتـه
وسـمهريته فـى وجهـه غمـم

فـكان أثبـت مـا فيهـم جسـومهم
يسـقطن حـولك والأرواح تنهـزم

والأعوجيـة مـلء الطـرق خلفهـم
والمشـرفية مـلء اليـوم فـوقهم

اذا توافقـت الضـربات صـاعـدة
توافقـت قـلل فى الجـو تصـطدم

وأسلم ابن شمشقيق أليته
الا انثنى ، فهو ينأى وهى تبتسم

لا يأمل النفس الأقصى لمهجته
فيسرق النفس الأدنى ويغتنم

ترد عنه قنا الفرسان سابغة
صوب الأسنة فى أثنائها ديم

تخط فيها العوالى ، ليس تنفذها
كأن كل سنان فوقها قلم

ألقت اليك دماء الروم طاعتها
فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

يسابق القتل فيهم كل حادثة
فما يصيبهم موت ولا هرم(٣٣)

٢ — وقال فى مدح سيف الدولة :

رمى الدرب بالجود الجياد الى العدا
وما علموا أن السهام خيول

فما شعروا حتى رأوها مغيرة
قباحا ، وأما خلقها فجميل

سحائب يمطرن الحديد عليهم
فكل مكان بالسيوف غسيل

وأمسى السبايا ينتحين بعرقة
كأن جيوب الثاكلات ذيول

---

(٣٣) ص ٤٢٣ — الغمم : كثرة شعر الناصية ، الأعوجية : خيل منسوبة الى أعوج وهو فرس كريم القلل : الرؤوس ، اسلم : ترك ، الصوب : الانصباب ، أثنائها : طاقاتها .

تسايرها النيران فى كل مسلك
به القوم صرعى ، والديار طلول

وعن بنا قلب الفرات كأنما
تخر عليه بالرجال سيول

يطارد فيه موجه كل سابح
سواء عليه غمره ومسيل

تراه كأن الماء مر بجسمه
وأقبل رأس وحده ، وتليل(٣٤)

٣ — ومن ذلك أيضا قصيدته فى وصف القلعة التى بناها سيف الدولة فى بلاد الروم وسماها « الحدث » ومطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وفيها يقول :

هل « الحدث » الحمراء تعرف لونها
وتعلم أى الساقيين الغمائم

سقتها الغمام الغر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم

بناها فأعلى ، والقنا تقرع القنا
وموج المنايا حولها متلاطم

---

(٣٤) ص ٣٥٦ — قباحا : اى بالنسبة لفعلها بهم ، والحديفد : السيوف ، عرقه :بلد بالشام ، الجيب : ما انفتح من القميص على النحو ، السابح : الفرس ،الغمره : معظم الماء ، المسيل : مجرى النهر ، التليل : العنق .

وكان بها مثل الجنون ، فأصبحت
ومن جثث القتلى عليها تمائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفى أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة
فما تفهم الحداث الا التراجم

فلله وقت ذوب الغش ناره
فلم يبق الا صارم أو ضبارم(٣٥)

ابن المقرب :

برع كذلك فى أوصافه الحربية ، وأتى فيها بصور وأخيلة قوية تدل على سعة اطلاع ، وخبرة فى مضمار المعارك وميادين السلاح ، ومن أمثلة أوصافه الحربية قوله يصف معارك الملك الأشرف مع الأفرنج :

١ — ويوم يوارى الشمس ريعان نقعه
ويحول قبل الطرف فيه الحمالق

وتمشى نسور الجو فوق عجاجه
وتبنى به أوكارهن اللقالق

كأن العجاج عارض وكأنما
به المشرفيات المواضى عقائق

---

(٣٥) ص ٣٨٥ — فأعلى : اى فأعلاها ، التمائم : جمع تميمه وهى العوذة يتوقون بها مس الجن . الخميس:الجيش ، الجوزاء : نجمان معترضان فى وسط السماء ، الزمازم جمع زمزمه وهو صوت الرعد ، اللسن : اللغة ، الحداث : القوم ، لله : كلمة تقال عند التعجب ، الغش : ما يدخل على المعادن الثمينة ، وأراد به هنا الرجال والسلاح ، الضبارم : الشجاع .

وتحسب من رأى الأسنة أنها
قواذف قذف صوتت وصواعق

وقد أبطل الضرب القسى وألقيت
فلم يبق الا ضارب ومعانق

مشى نحوهم مشى السبنتى فداحض
بشكته ، أو طائش اللب زاهق

بنصل يقول الموت حين يشكه
بزوجه من يعلى به : أنت طالق

فصك به الأبطال صكا به التقت
لقاء قلى أقدامها والعنافق(٣٦)

٢ — ومنها قوله :

ومالوا لقذف المال فى اليم بالضحى
وبالليل ثارت فى الرحال الحرائق

وأزعجهم من ذاق للجرح بعدهم
بأمس ، وهل يستعذب الموت ذائق

فولوا فمنكب على أم رأسه
لدن ذاك لم ينفق وآخر نافق

ومستعصم بالبحر منه وعائذ
بأخلق تنبو عن صفاه المطارق

---

(٣٦) ص ٢٩٨ ، ريعان الشيء : شدته ، والنقع : الغبار ، اللقلق : طائر ، العارض : السحاب الممتلىء . العقيق : خرز أحمر ، السبنتى : الجرىء ، العنفقة : شعيرات بين الشفة والذقن .

ولـــم يبـــق يثنـــى من عنـــان جـــواده
أب لابنـــه والمـــوت للقـــوم خافـــــق

فســـال دم لو ســـال فى الأرض لاستوى
بهـــا ردغ ، مـــا عمـــرت ومزالـــق

جـــرى منه فـــوق البحـــر بحر فموجه
الى الآن من بعـــد الأقاحـــى شـــقائق

فصـــار نئيمـــا ذلك الـــزأر واغتـــــدت
بغـــاما لفـــرط الخـــوف تلك الشـــقائق

ولـــم ينـــج منهـــم لج بحـــر ولا حمت
حصـــون أديـــرت حـــولهن الخنـــــادق

ولا منعـــــت فى ملتقـــــاها ملوكهـــــا
قرابتهـــا صـــهب اللحى والبطـــارق[٣٧]

٣ ـــ وقال أيضـــا :

وأقبـــل ليـــث الغـــاب أغنـــى محمـــدا
يفتـــش عـــن أشـــــباله ويســـــائل

فقيـــل لـــه تحـــت العجـــــاجة دأبهـــم
طعـــان العـــدا فى حيث تخفى المقـــاتل

فأوردهـــم صـــدر الحصـــــان كأنـــــه
بأخـــذ نفـــوس القـــوم بالسيف كافـــل

---

(٣٧) ص ٣٠١ ـــ الصفا : الحجارة الصلدة ، الردغ : الوحل الشديد، الاقحوان : نوع من النبات ، شقائق النعمان : نبات احمر الزهر ، النئيم : الصوت الخفيف والبغام بنفس المعنى ، وشقشق الجمل : هدر ، صهب اللحى : فى لحاهم شقرة ، والبطريق : القائد من قواد الروم .

فطـــاروا ســـلالا من أسـير وهـــارب
ومن هـــالك تبـــكى عليــه الثواكـــل

ولـم يبـــق الا خائـــف مترقـــب
حماما ســريعا أو نزيـل منـــازل[٣٨]

وبالنظر الى أوصافهما الحربية يتضح لنا ما يلى :

(أ) وصف المعارك لدى كل منهما يموج بالحركة والحيوية ، وكأنما يسمعنا قعقعة السيوف وصهيل الخيول .

(ب) كلاهما يدل فى أوصافه الحربية على خبرة وتمرس فى ميادين القتال والمشاهد الحربية ؛ وان كان المتنبى أصدق تصويرا وأسبق لما له من باع طويل فى هذا المضمار .

(ج) ومن الناحية الفنية نلاحظ أن المتنبى أكثر دقة وتحديدا فى وصفه لمراحل المعركة وسيرها ، وأن ابن مقرب يميل الى التعميم وبيان الآثار الناجم عن الموقعة الحربية .

٤ ــ الجزالة والقـــوة :

اذا كان كل من الشاعرين قد امتاز شعره بالقوة والجزالة وروعة السبك ؛ حتى ساغ لنا أن نشبه ابن المقرب بالمتنبى فى هذا المجال ، فمما لا شك فيه أن المتنبى يعتبر أسبق من ابن المقرب فى هذا المجال روعة وقوة وأداء ؛ وذلك يرجع الى قوة المتنبى وفحولته فى الفصاحة والبلاغة وقربه من عهد الجزالة والقوة .

ومن أمثلة ذلك قوله فى المدح :

١ ــ ذى المعـــالى فليعـــلون من تعـــالى
هـــكذا هـــكذا والا فـــلالا

---

(٣٨) ص ٣٥٧ ، انسل وتسلل : انطلق فى استخفاء .

شــرف ينطـــح النجــوم بروقيـــــ
ـــه وعـــز يقـلقـل الأجبـــالا

حـــال أعــدائنا عظيــم وسـيف الـــ
ـدولة ابن السـيوف أعظـم حـــالا

كلمـــا أعجـاوا النـــذير مسـيرا
أعجلتهــــم جيــــاده الاعجــــالا

فأنتهـــم خـــوارق الأرض مـــا تحـ
ـمـــل الا الحـــديد والأبطــــالا

خافيــات الألوان قــد نسـج النقـــ
ــع عليهـــا براقعـــا وجـــلالا

حالفتـــه صـــدورها والعـــوالى
لتخـــوضـن دونـــه الأهــــوالا(٣٩)

ومنهـــا قولــــه :

نزلـــوا فى مصـــارع عرفـــوها
ينـــدبون الأعمـــام والأخــوالا

تحمــل الريـــح بينهـــم شــعر الهـــام
وتـــــذرى عليهـــم الأوصــــالا

تنــذر الجســم أن يقـــوم لديهـــا
فتريـــه لـــكل عضـــو مثـــالا

أبصـــروا الطعـــن فى القــلوب دراكــا
قبــل أن يبصــروا الرمــاح خيـــالا

(٣٩) ص ٤٠٩ ــ النذير : الذى ينذر قومه من الأمر قبل وقوعه ، خوارق : التى تخرق الصحراء ، الجلال : جمع جــل وهو ما تلبسه الدابة لتصـــان به .

واذا حـاولـت طعـانك خيـل
أبصـرت أذرع القنـا أميـالا

بسـط الرعـب فى اليمـين يمينـا
فتـولوا وفى الشـمال شـمالا

ينفـض الروع أيـديا ليـس تـدرى
أسـيوفا حمـلن أم أغـلالا(٤٠)

٢ — وقوله فى مدح سيف الدولة :

قـاد الجيـاد الى الطعـان ولم يقـد
الا الـى العـادات والأوطـان

كـل ابن سـابقة يغـير بحسـنه
فى قـلب صـاحبه عـلى الأحـزان

ان خليـت ربطـت بآداب الوغـى
فدعـاؤهـا يغنـى عـن الأرسـان

فى جحفـل سـتر العيـون غبـاره
فكأنمـا يبصـرن بالآذان

يرمـى بهـا البـلاد البعيـد مظفـر
كـل البعيـد لـه قـريب دان

ومنهـا قولـه :

نظـروا الـى زبـر الحـديد كأنمـا
يصـعدن بـين مناكـب العقبـان

وفـوارس يحيـى الحمـام نفوسـها
فكأنهـا ليسـت مـن الحيـوان

---

(٤٠) ص ٤١١ .

مــازالت تضــربهــم دراكا في الــذرى
ضــربا كــأن الســيف فيــه اثنــــان

خص الجمــاجم والوجـــوه كأنمــا
جــاءت اليــك جســـومهم بأمــان

فرمـــــوا بما يرمــون عنــه وأدبــروا
يطــأون كـــل حنيــــة مرنــــان

يغشــاهم مطــر الســحاب مفصــلا
بمهنــــــد ومثقــــف وســــــنان

حرمـــوا الــذى أمــلوا وأدرك منهــم
آمــاله من عـــاد بالحرمـــان[٤١]

ابن المقـــرب :

تظهر الجزالة والقوة فى ثنايا شعره بكل وضوح ، وان كان يغلب عليها طابع البداوة والخشونة أكثر من السلاسة والمرونة .

١ — ومن الأمثلة على ذلك قوله :

خليــانى مــن وطـــاء ووســـاد
لا أرى النـــوم عــلى شــوك القتــاد

وارحـــلا من قبــل ألا ترحـــلا
فالبـــلايا كــل يــوم فى ازيــاد

(٤١) ديوان المتنبى — ص ٤١٦ ، دار صادر — بيروت ، الى العادات: اى الى ما تعودته من الغارات ، سابقه : اى فرس سابقه ، والمظفر : هو سيف الدولة ، زبر : جمع زبره وهى القطعة من الحديد والمراد بها السيوف، دراكا : متابعا ، الذرى : جمع ذروه وهو أعلى كل شيء ، الحنية : القوس، المرنان : كثيرة الرنين ، يغشاهم : يغطيهم ، مفصلا : يعنى ان السيوف والرماح تعمل فيهم هذه مرة وتلك اخرى .

واتركانـــى من أباطيـــل المنـــى
فهـو بحـر ليـس يـروى منه صـادِ
وابـذلا فى العـز مجهـود كمـا
لا يـلام المـرء بعـد الاجتهـاد
انمـا تـدرك غايـات المنـى
بمسـير أو طعـان أو جـلاد[٤٢]

٢ — وقوله فى المدح :

وكـأن أطـراف الأسـنة أنجـم
شـهب وداجـى النقـع ليـل غيهـب
فى معـرك عـاث الـردى فى أهـله
فمعفـر ، ومضـرج ومقعضـب
ألـف الحـروب جـواده فـكأنـه
من مـاء هامـات الفـوارس يشـرب
يهـوى انقضـاضا فى الـكر كمـا هوى
لقنيصـة حجـن المخـالب أشـهب
مـا صـبحت دارا هـوادى خيـله
الا وقـام المـوت فيهـا يخطـب[٤٣]

---

(٤٢) الديوان — طبعة الاحساء ص ١٧٦ .

الوطاء : خلاف الوساد ، والوساد : المخدة ، والقتاد : شجر صلب له شوك كالابر . الصادى : من بلغ به العطش مبلغه .

(٤٣) الديوان— ص ٨٧ — القعضبة : الشدة والاستئصال ، حجن المخالب : معوجها ، هوادى الخيل : متقدماتها .

٣ — وقوله :

ومـا الفخـر الا الطعن والضرب والندى
ورفض الدنايـا واغتفـار الجـرائم

ونـف السـرايا بالسـرايا تخـالها
حـرار الحجـاز أو بحـار اللواطم(٤٤)

٤ — وقولـه :

لأطلبن العـلا جهـدى طـلاب فتـى
يـدوس بالعـزم هـام السبعة الشـهب

فـان أنـل فبسـعيى مـا أتيـت بـه
بدعـاء والا فقـد أعذرت فى الطلب(٤٥)

وبالنظر الى هذا الجانب من شعر الرجلين نخرج بما يلى :

(أ) امتاز شعر الشاعرين بالجزالة والقوة فى معظمه ، وظهر ذلك واضحا جليا فى أبيات شعرهما .

(ب) يمتاز المتنبى بالجزالة والقوة حتى فى غزلياته ، رغم أن هذا الغرض يتطلب عادة الرقة والليونة .

(حـ) تواءمت الجزالة والقوة مع السلاسة والرقة فى شعر المتنبى بشكل عجيب ، مما أضفى على شعره كثيرا من العذوبة والجمال .

---

(٤٤) ص ٥١٢ — اللواطم : الأمواج .

(٤٥) ص ٧٧ .

(د) افتقد شعر ابن مقرب العنصر السابق فى بعض قصائده مما جعل جزالته تأخذ طابع الخشونة والبداوة .

الخلاصـــــــــة :

وهكذا يتضح لنا أن تشبيه ابن المقرب بالمتنبى ليس أمرا غريبا ، فقد حذا حذوه فى كثير من معانيه وأساليبه وأغراضـــه ، وانطبع فنـــه بطابـــع المتنبى فى كثير من مظـــاهره ، واذا كان لم يبلغ مرتبة المتنبى فحسبه أنه تعلق به وساماه ودنا منه حتى قرن اسمه باسمه .

الخاتمة

... درست فيما مضى حياة ابن مقرب وشعره :

فى البداية ألقيت الضوء على حالة عصره من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية ، وبينت مدى تأثر ابن مقرب بها ايجابا وسلبا ، وفيما يتعلق بحياته تحدثت عن نشأته وأوضحت قلة المصادر التى بين أيدينا عن هذه الفترة من حياته ، ثم تطرقت فى الحديث عن شخصيته وقلت ان أبرز ما تميزت به هذه الشخصية هو الطموح البعيد والهمة العالية ، وتكلمت عن رحلاته وثقافته وأثر الحرمان فى شعره .

وفى حديثى عن ديوانه قلت ان تعدد طبعات الديوان ما هو الا دليل على قوة شعره ، وتعلق الناس به مما أدى الى خلوده وصموده لعوامل النسيان .

أما فيما يتعلق بشعره فقد ذكرت أهم الأغراض والفنون التى قال فيها شعرا وحللت هذا الشعر واستعرضت أهم الظواهر التى تميز بها ، ثم أوضحت أن أهم خصائص هذا الشعر هى الجزالة والقوة ، فهو بذلك يصور روح صاحبه الممتلئة بالحماس والثورة والطموح ، ورغم أن هذا الشعر لا يتميز بالعمق فى كثير من الأحيان ، الا أنه على كل حال لا يهبط الى درجة السطحية والابتذال .

ونظرا لوجه الشبه الكبير بين ابن مقرب وشاعر العربية الكبير المتنبى فى كثير من الجوانب فقد خصصت الفصل السادس من هذا البحث لمقارنة أهم أوجه الشبه بين شعر الشاعرين وخرجت بنتائج لهذه

المقارنة من أبرزها التشابه الواضح فى الروح الشعرية بين الشاعرين من ناحية الجزالة والقوة والحماس والاندفاع •

فالى أبناء المنطقـــة التى عاش فيها ابن المقـــرب ، والى المهتمين بأدبها وتاريخها واحياء تراثها ، والى المكتبة العربية أهدى هذا الجهد المتواضع عسى الله أن ينفع به ، وهو تعالى من وراء القصد وهو يهدى الســـــبيل •

المصادر والمراجع

١ ــ الأدب فى العصر الأيوبى :
د• محمد زغلول سلام ، القاهرة •

٢ ــ الاعـــلام :
خير الدين الزركلى ــ مطبعة كوستا تسوماس ــ جـ ٥ دمشق •

٣ ــ ابن الرومى حياته من شعره :
عباس محمود العقاد ــ دار الهلال ــ ١٩٦٩ •

٤ ــ الأدب ومذاهبه :
د• محمد مندور ، القاهرة •

٥ ــ أصـــول النقـــد :
د• محمد عبد المنعم خفاجى ــ القاهرة ــ مطبعة عيسى الحلبى •

٦ ــ الأدب العربى المعاصر فى الخليج العربى (قسم الشعر) :
د• عبد الله المبارك ، ط القاهرة ١٩٧٣ •

٧ ــ الأدب القطرى الحديث :
محمد عبد الرحيم قافود • ط • القاهرة ١٩٧٩ •

٨ ــ ابن طباطبا الناقـــد :
د• محمد عبد الرحمن الربيع ــ الرياض ١٩٧٩ •

٩ ــ أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله :
د• عمر فروخ المكتب التجارى ــ بيروت •

١٠ — البحرين فى صدر الاسلام :

عبد الرحمن عبد الكريم النجم — مطبعة الجمهورية — بغداد ، ١٩٧٣ .

١١ — البحوث الأدبية — مناهجها ومصادرها :

دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، د. محمد عبد المنعم خفاجى .

١٢ — ابن رشيق ونقد الشعر :

د. عبد الرؤوف مخلوف — الكويت ١٩٧٣ .

١٣ — ابن مقرب — دراسة :

عمران محمد العمران — الرياض ١٩٦٨ .

١٤ — النقد المنهجى عند العرب :

د. محمد مندور — القاهرة ١٩٦٩ .

١٥ — النقد والنقاد المعاصرون :

د. محمد مندور ، القاهرة .

١٦ — التحفة النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية :

محمد خليفة النبهانى — ١٣٤٢ هـ .

١٧ — التكملة فى وفيات النقلة :

(مخطوط) للحافظ المنذرى — القاهرة .

١٨ — الوساطة بين المتنبى وخصومه :

للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، على محمد البجاوى ، القاهرة — ١٩٦٩ .

١٩ — الوافى بالوفيات — للصفدى (مصور) :

٢٠ — الحركة الأدبية فى المملكة العربية السعودية :
د• بكرى شيخ أمين ، ١٩٧٢ •

٢١ — المستدرك على ابن ماكولا :
لابن نقطة — (مخطوط) •

٢٢ — الموازنة بين الشعراء :
د• زكى مبارك — مطبعة المقتطف — القاهرة — ١٩٢٦ •

٢٣ — الموازنة بين أبى تمام والبحترى :
أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى •

٢٤ — المتنبى وشوقى :
عباس حسن ، ١٩٧٣ — دار المعارف ، القاهرة •

٢٥ — المتنبـى — سلسلة نوابغ العرب :
د• زكى المحاسنى عدد ١٥ دائرة المعارف ١٩٥٦ — القاهرة •

٢٦ — العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده :
أبو على الحسن بن رشيق القيروانى (جزءان) •

٢٧ — القرامطـة :
عارف تامر — دار مكتبة الحياة — بيروت •

٢٨ — القرامطـة :
محمود شـاكر — المكتب الاسلامى — بيروت ١٩٧٩ •

٢٩ — الكامل فى التاريخ :
أبو الحسن عز الدين بن الأثير ، (الأجزاء ١٠ ، ١١ ، ١٢) — القـاهرة •

٣٠ — الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى :
حافظ أحمد ، دار الفكر العربى — القاهرة .

٣١ — ابراهيم ناجى — (الاعـلام) :
القاهرة ، د. على محمد الفقى — ١٩٧٧ .

٣٢ — جرير — حياته وشعره :
د. نعمان أمين طـه ، القاهرة .

٣٣ — دراسات فى النقد الأدبى :
د. حسن جاد حسن — القاهرة ١٩٧٧ .

٣٤ — دراسات فى الشعر العربى المعاصر :
د. شوقى ضيف ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩.

٣٥ — دراسة فى مصادر الأدب :
د. الطاهر أحمد مكى ، ط ، القاهرة ١٩٧٧ .

٣٦ — دراسات ونماذج فى مذاهب الشعر ونقده :
د. محمد غنيمى هلال ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة .

٣٧ — ديوان الأبيوردى :
تحقيق ودراسة عمر محمد الأسعد ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ .

٣٨ — ديوان ابن مقرب :
تحقيق وشرح : محمد الحلو ، طبعة الاحساء .

٣٩ — ديوان ابن مقرب :
طبعة دمشق ، الطبعة الأولى والجزء الأول من الطبعة الثانية .

٤٠ — ديوان ابن مقرب :
(مخطوطة مكتبة الاسكندرية) .

٤١ — ديوان ابن مقرب :
(ثلاث مخطوطات بدار الكتب المصرية) .

٤٢ — ديوان المتنبى :
نشر دار صــادر — بيروت .

٤٣ — ديوان المتنبـى :
شرح عبد الرحمن البرقوقى ، بيروت ، لبنان ، نشر دار الكتاب العربى ١٩٧٩ .

٤٤ — زكى مبارك ناقــدا :
كريمة زكى مبارك ، دار الشعب ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ، القاهرة .

٤٥ — حصــاد الهشــيم :
ابراهيم عبد القادر المازنى ، دار الشروق القاهرة ١٩٧٦ .

٤٦ — حول الأدب فى العصر السلجوقى :
د . محمد التونجى ، بنغازى ، ليبيا ، ١٩٧٤ .

٤٧ — لمحات من الخليج العربى :
د . محمــد جابر الأنصــارى ، الطبعة الأولى ، ابريل ١٩٧٠ — البحــــرين .

٤٨ — معجم المــؤلفين :
عمر رضا كحالة ، جزء ٧ ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٥٨ .

٤٩ — معجم الأدبــــاء :
ياقوت الحموى ، مطبوعات دار المأمون ، القاهرة .

٥٠ — معجم البــلدان :
ياقوت الحموى ، الجزء ٦ ، القاهرة .

٥١ ــ من قضايا الشعر والنثر فى النقد العربى القديم :
د. عثمان موافى ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، مصر .

٥٢ ــ مهيـــار الديلمى ، حياته وشعره :
د. عصام على ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، ١٩٧٦ .

٥٣ ــ مصطفى وهبى التل ، حياته وشعره :
أحمد عطية أبو مطر ، جامعة الكويت ، كلية الآداب ١٩٧٤ .

٥٤ ــ نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر :
تحقيق وتعليق : د. محمد عبد المنعم خفاجى ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ .

٥٥ ــ ساحل الذهب الأسود :
محمد سعيد المسلم ، الطبعة الثالثة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بـــيروت .

٥٦ ــ على بن الجهــم ، حياته وشعره :
عبد الرحمن الباشا ، القاهرة .

٥٧ ــ فصول فى الشعر ونقده :
د. شوقى ضيف ، دار المعارف ، ١٩٧١ ، القاهرة .

٥٨ ــ فى نقد الشـــعر :
د. محمود الربيعى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعـــة الرابعة ، ١٩٧٧ .

٥٩ ــ فصول الأدب والنقد :
د. طـــه حسين ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة .

٦٠ ــ من حديث الشعر والنثر :
د. طـــه حسين ، دار المعارف ، القاهرة .

٦١ ــ تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء فى القديم والجديد :
(الجزء الأول والثانى) محمد عبد الله الاحسائى ، طبعة الرياض ١٩٦٠ .

٦٢ ــ تاريخ الأدب العربى :
كارل بروكلمان ، دار المعارف بمصر .

٦٣ ــ تلخيص مجمع الآداب :
لابن الفوطى (مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة) .

٦٤ ــ تاج العروس من جواهر القاموس :
الامام محب الدين المرتضى الزبيدى ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هـ .

٦٥ ــ تاريخ الدولة الاسلامية :
المستشرقة يوجينا غيانه ، المكتب التجارى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦ .

٦٦ ــ تاريخ البحرين العام :
محمود بهجت سنان ، بغداد .

٦٧ ــ تاريخ الدولة الاتابكية :
أبو الحسن عز الدين بن الأثير ، تحقيق : عبد القادر طليمات ، نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣ .

٦٨ ــ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى :
عباس محمود العقاد ، دار النهضة المصرية ، ١٩٦٥ ، القاهرة .

٦٩ ــ شعر الحرب فى أدب العرب :
د. زكى المحاسنى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١ .

٧٠ — شعراء هجـــر :

عبد الفتاح محمد الحلو ، الاحساء .

٧١ — قلائد الجمان فى شعراء الزمان :

ابن الشعار الموصلى ، (مصور بمعهـد المخطوطات العربيـة بالقاهرة) .

٧٢ — ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام :

عبد الوهاب عزام ، دار المعارف ١٩٦٨ القاهرة .

* * *

(المجـــــــــلات) :

١ — مجلـة العربى — أبريل — ١٩٦٠ ، الكويت .

٢ — مجـلة البيان — عدد ٣٧ ، ابريل ١٩٦٩ ،الكويت .

٣ — مجلة العرب — جزء ربيع الأول ، ١٣٨٩ — دار اليمامة بالرياض.

فهرس الكتاب

الموضـــوع صفحة

الموضـــوع | صفحة

الفصـــل السادس

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٢/٥٤٢٢